التفسير البلاغي للقرآن الكريم
((صور وموضوعات))

د/ السيد عبدالسميع حسونة

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد

كلية دار العلوم – جامعة المنيا

الإهداء

إلى والدي الحبيبين أرفع هذا الكتاب لطالما رفعتما أيديكما إلى السماء ضارعين أن يفتح الله عليّ فأحفظ القرآن وأجيد ترتيله .

فإليكِ يا أماه ، وإليكَ يا أبتاه ثمرة توجيهكما الطويل لطفلكما الصغير ولفتاكما الكبير . ولئن فاتني جمال الترتيل فعسى ألا يكون قد فاتني جمال البيان والتأويل لأجَلّ كتاب عرفته البشرية والله يرعاكما ويحفظكما ويرضى عني وعنكما ، ويجمعني وإياكما في صحبة الحبيب محمد ﷺ في الفردوس الأعلى .

ابنكما

سيد

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقدم ....

أحمدك ربى حمد العبودية الحق للربوبية الصدق ، وأصلى وأسلم على سيدي وحبيبي محمد ﷺ طب القلوب ودوائها ، وعافية الأبدان وشفائها ، ونور الأبصار وضيائها .

أما بعد ،،،،،،

فهذه محاولة نحو التفسير البلاغي للقرآن الكريم ، قمت بها منذ خمسة عشر عاماً * اعتمدت فيها على كل ما كتب حول النص القرآني تفسيراً ولغة وبلاغة ، منذ القرن الثاني الهجري ، حتى الوقت الحاضر ، وحاولت قدر الاستطاعة – أن أربط بين النص القرآني وواقعنا المعاصر ، ذلك ليؤدى القرآن الكريم دوره فى هداية الأمة ، ونقلها من التيه الذي هي فيه ، إلى الطريق الذي تاهت عنه ، ومن الموات الذي تسبح فيه ،إلى النور الهادي الذي تحمله ولا تستفيد منه:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء من فوق ظهورها محمول .

وتناول الكتاب عدة موضوعات شيقة ، منها : الله جل جلاله ، والكون الدال على وحدانيته سبحانه ، والتصور الفاسد للخالق جل وعلا ، ثم الحياة الدنيا ، وما فيها من أنماط بشرية عجيبة ، والقصص القرآني والدرس المستفاد منه ، وختمت الكتاب بفصل عن الدار الآخرة وما فيها من أحداث ، نسأل الله عز وجل – أن يسترنا ولا يفضحنا فيها ... هذا ويظل القرآن الكريم ، مصدر عزة هذه الأمة ، وسبيلها إلى النهوض ، فى عالم يموج بالفتن والأهواء .

قرآننا يا قوم مصدر عزنا قرآننا نور يضئ طريقنا

الفقير إلى عفو الرؤوف الرحيم

د/ السيد حسونة

---

* هذا الكتاب جزء من رسالتي في الدكتوراة والتي حصلت عليها عام ١٩٩٢م من كلية الآداب – جامعة الزقازيق بمرتبة الشرف الأولى ، وكانت بإشراف الأستاذ الدكتور / محمد زغلول سلام ومناقشة الأستاذ الدكتور/ مصطفى الجويني ، والأستاذ الدكتور/ فتحي عامر

المبحث الأول

﴿ الله جل جلاله ﴾

(*) صفاته وأفعاله

لم نر كتابا يصف مقام الألوهية وما يليق بها من كمال كما يفعل القرآن الكريم ، فالدارس له يستشعر من خلال آياته في وصف الخالق شعورًا مليئا بالخشوع والانبهار لهذه الذات الإلهية التي لا تشبه شيئا مما يخطر على الوهم ، والتي لا تتصف إلا بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ، وصدق القائل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [1] .

ولقد اشتمل القرآن علي نصوص كانت سببا لحركة فكرية واسعة ، لأنها تتناول صفات الله وأفعاله – وهذه الناحية تمثل جزءًا مهمًا من عقيدة المسلمين – ففي القرآن نصوص يثبت ظاهرها الصفات المحسوسة لله ، على أن فيه – كذلك – ما يمنع من وصف ذاته بشيء من الأوصاف المحسوسة ، وتدعو بأن نجله عن التشبيه والتجسيد .

ومن الطبيعي أن تحمل هذه النصوص علماء البلاغة والبيان على النظر الجاد فيها ، لمحاولة فهم إشكالها الظاهري ، فاختلفوا في فهمهم لاختلاف حظوظهم من الفهم والإدراك ، وتباين ثقافاتهم ، وانقسموا إزاء هذا الموضوع إلى فريقين [2] . فريق المثبتين للصفات ويقفون عند ظاهرها من غير تكييف [1] ، وفريق المؤولين للصفات وهم الذين ينفون صفات الله ؛ لأن إثبات الصفات عندهم يخالف التوحيد ، إذ الصفة غير الموصوف ، وهذا الفهم اضطرهم إلى

(*) الصفات هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل ، فتقوم بذاته ومشيئته وقدرته مثل : كلامه ومحبته ورضاه .... ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب والسنة . انظر : مجموع الفتاوي لابن تيمية ٢١٧/٦] وصفات الله – تعالى . تنقسم قسمين : صفات ذات لا تنفك عن الذات ، وهي لازمة لها كصفات الحياة والعلم والقدرة . وصفات أفعال ، وهي أفعال متعلقة بذاته كالاستواء والمجيء والنزول والضحك والغضب والرضا ، وإذا وُصف الرب بشيء من ذلك ، لم يجز أن يكون موصوفا بحقيقته ، لأنها نقص ، وإنما يتصف بمجازه ، والمجاز فيها أفضل من الحقيقة لأمرين :
١ – لخفته واختصاره من ناحية ، لأنه لو عبر عن ذلك بالألفاظ الحقيقية لطال الكلام .
٢ – ولأنه لا يتصف بهذه المعاني حقيقة لما فيها من النقص . والمجاز فيها على ثلاثة أنواع :
أ – مجاز الملازمة . ب – مجاز التسبيب . ج – مجاز التشبيه .
انظر : الإشارة إلى الإيجاز ص ٢٠٥ ، رسالة الباحث ص ٢٩٩ .

(١) انظر : كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب لمحمد بن إسحاق بن خزيمة ص ٢٥ ط . دار الكتب العلمية – بيروت .

(٢) ويمثل الفريق الأول أهل السنه الذين أخذوا بالتفسيرالحرفي للنص ، ويمثل الفريق الثاني المعتزلة والأشاعرة .

تأويل كل آية من آيات الصفات تأويلا مجازيا (٢) .

ومهما يكن من شيء فإن علماء البيان في القرنين السابع والثامن الهجري – قالوا جميعًا بالتأويل في هذا الموضوع حسب مذهب الفريق الثاني ، لأن ذلك من مستلزمات التعبير ، وأسلوب من أساليبت العرب ، ولم يشذ منهم واحد ولما كان الأمر كذلك فقد رأينا أنه من الضروري أن من تمام الوفاء بحق الموضوع أن نفرد له فصلاً خاصا يتناول موقفهم في هذه المسألة عبر نصوص القرآن ، وبعيدًا عن جدل المتكلمين ومصطلحاتهم الفنية والفلسفية . وقد آثرنا أن نبدأ الباب التطبيقي بالبحث عن ﴿ الله صفاته وأفعاله ﴾ تيمنا بلفظ الجلالة ، واستلهاما للتوفيق والسداد من الله عز وجل .

وأوصاف الله سبحانه وتعالى التي لا يجوز الاتصاف بحقائقها تنقسم إلى قسمين :
منها ما يتعلق بالخير مثل : الرحمة والمحبة والرضى والود والشكر ، ونحو ذلك من الأوصاف التي متعلقها خير ، فإن جعلت هذه الصفات عبارة عن الإرادة كانت بمعنى ما يريده الراحم بمرحومه وإن جُعل ذلك عبارة عن الفعل ، كان كمن يعامل وليه معاملة الراحم بمرحومه ، أما من حمل ذلك على التشبيه كانت الصفة عائدة إلى تشبيه معاملة المرحوم معاملة الراحم حقيقة .

وأما الصفات المتعلقة بالقسوة فمنها : الغضب والسخط والقلى والبغض ، والعداوة واللعن، ونحو ذلك من الصفات التي متعلقها شر ، ويُوجه هذا النوع من الأفعال بنفس التوجيه السابق .

وقد أثار بعض الباحثين من المستشرقين الشبهات على صفات الله عز وجل مُدَّعيا أن «صفات الحب في الله تتضاءل أمام صفات القوة والجلال ، فهو الإله المهيمن العزيز الجبار (٢) وإن الله سبحانه يبني العلاقة بين الناس على الخوف والذل لا على الود والعطف».

وفي ملاحظتنا أن صفات القوة والجلال في القرآن قليلة جدًا بالنسبة لصفات الرحمة والحب والود ، بالرغم من أن صفات القوة والجلال من لوازم الألوهية لأنها تحذّر الظالم من التمادي في غيّه ، فليس من الضروري أن نتصور الإله رفيقًا عطوفا في جميع الأحيان ، فمن الجهل أن ننسى أن غضب الله على الأشقياء من حتميات العدالة الإلهية ، وإذا كان الله شديد العقاب ، فكيف لا يهاب ؟

---

(١) انظر : تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية ص ٥٩ د. مهدي السامرائي . ط . المكتب الإسلامي– دمشق .

(٢) انظر : تاريخ العرب لفيليب حتى ١/١٧٧ .

ثم إن هناك أنواعًا أخرى من المجاز تعبر عن الأجسام والأعراض تارة بالحقيقة ، وتارة بالمجاز ، كالتعبير بلفظ الجسم عن جسم آخر ، وبلفظ العرض عن عرض آخر ، كالتعبير بألفاظ الأجسام عن المعاني مثل « اليد » و « اليمين » ، وهما عبارة عن قدرته وبطشه وقوته ، وكالتعبير بوضع القدم عن الاستهانة ، وقد تستعمل بعض الأفعال المضافة إلى الله ، والمتعلقة به على نوع من هذا المجاز لقربنا إليه ، وبعدنا منه وإعراضنا عنه ، وإقبالنا إليه .

وبعد هذا التصور المجمل لصفات الله وأفعاله والرد على مثيري الشكوك (١) يحق للباحث أن يشرع في تفصيل هذه الصفات من خلال النصوص القرآنية وتوجيه العلماء لها ، وسيكتفي البحث ببعض النماذج التي تهدي القارئ إلى التعرف على جهود علماء البيان في صفات الله تعالى .

قربه سبحانه :

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢) ، أجمع علماء البيان على أن قربه سبحانه – في الآية مجاز عن سرعة إجابته لدعوة داعيه ، ذلك لأن من قرب منك سمع الخفي والجلي من قولك ، وإلا فهو متعالٍ عن القرب الحسي لتعاليه عن المكان (٣) ، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٤) ، فقد تجوز به عن علمه بما ينطوي عليه الإنسان من أسراره ، وهو من مجاز الملازمة ؛ إذ العلم ملازم للقرب والحضور (٥) .

ويؤكد هذا القول الحديث القدسي الذي رواه الرسول ﷺ : عن رب العزة قوله : « .... وإن تقرّب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرّب إلى ذراعًا ، تقربت منه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيته أهرول » (٦) . قال ابن عبد السلام . فهذه كلها مجاز في حقنا كما هي مجاز في حقه تعالى ؛ لأن معنى تقربه إلينا بالنزول إلى سماء الدنيا ، وبالتقرب بالباع وبالذراع أنه

---

(١) انظر : تاريخ العرب : لفيليب حتى : ١٧/١ .

(٢) البقرة : ١٨٦ .

(٣) انظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٢٩٠/٢ ، والإشارة إلى الإيجاز ص١٠٧ .

(٤) ق : ١٦ .

(٥) الإشارة إلى الإيجاز ١٠٧ .

(٦) وفي رواية : هرولة . وهذا الحديث له طريقتان : أن يُروى عن الرسول ﷺ ، قال : قال الله : أو أن يُروى على أنه حديث قدسي يرويه الرسول ﷺ عن ربه ، والحديث رواه البخاري في باب (ويحذركم الله نفسه) انظر : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٣٨٤/١٣ .

يعاملنا في الإكرام معاملة سيد مشى إلى عباده ، ينزل إليهم مقبلاً عليهم ، مستعرضاً احوائجهم .

وفي التقرب يعاملنا معاملة المقرب من قربه بالحظوة والإكرام ، وكذلك مجيئنا إليه ، وتقربنا إليه ، وذهابنا وهرولتنا إليه ، ومشينا وفرارنا معناه : أنا نعامله معاملة المتقرّب الذاهب ، المهرول الماشي الفار إليه إجلالاً له وإعظامًا ، وهذا معروف في عادة الناس أن من مشي إلى إنسان فهرول إليه أو تقرّب إليه ، فتقرّب إليه أكثر من تقربه ، كان ذلك إكرامًا له واحترامًا [١] .

مجيئه وإتيانه سبحانه وتعالى :

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [٢] ، وواضح من الآية أنه تعالى ذكر نفسه ، وأراد غيرها جريًا على عادة العرب في حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه كما قال عز وجل ﴿ واسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ ، وذلك طريقة ظاهرة في المجاز ، فإعراب « الرب » كان جرًا ، وارتفع بحذف المضاف،واكتسى إعرابه ، وتقدير الآية : وجاء أمر ربك أو عذاب ربك ، أو بأس ربك ، أو متحملوا أمر ربك للمحاسبة ، أي : رسل ربك ، لأنه يستحيل عقلا تعلق المجيء حقيقة بالذات ، لاستحالته عليها ، فضلاً عن أن إسناد المجيء والحركة والانتقال إنما يجوز على من كان جهة ، والله منزّه عن المكان والمجيء – كذلك – فيُعلم أن استعمالها هنا – مجاز بالنقصان[٣] .

ويرى البابرتي أن المراد من المجئ في الآية هو مجيء أمره ، وظهور أيات قدرته ، وأيات قهره تمثيلاً له بما يظهر عند حضورالسلطان من أثار هيبته ، أي أن الآية عنده من باب التمثيل ، وهو يجري في ذلك مجرى الزمخشري [٤] .

أما إتيانه سبحانه – فهو كناية عن الانتقام كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمورُ ﴾ [٥]، يقول السمين : هذا التعبير كناية عن الانتقام ، إذا الإتيان يمتنع إسناده إلى الله تعالى – حقيقة ، ويكون هناك مجاز بالحذف ، أي حذف مضاف ، والمعنى : يأتيهم أمره ، أو قدرته ، أو عقابه ، أو نحو ذلك [٦] .

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز ص ١٠٦ .
(٢) الفجر : ٢٢ .
(٣) انظر : الطراز ٩٣/١ ، والتلخيص ٢٢٥ ، والإشارة إلى الإيجاز ص ١٠٧ .
(٤) انظر : شرح التلخيص / ٥٩٦ ، والكشاف ٢٢٥/٤ .
(٥) البقرة : ٢١٠ .
(٦) انظر : الدر المصون ٣٦٣/٢ .

وإذا ربطنا بين الإتيان والمجيء ، ترجح لدينا أن يكون المراد من إتيان الله في الآية هو أمره ، أو أن متحملي أمره يأتون ، ومما يقوي هذا الربط قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الملائِكَةُ ، أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [1] .

مكره – سبحانه وتعالى :

قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [2] ، قال العلماء : المكر احتيال على الإنسان لإلقاء المكروه به ، والفرق بينه وبين الحيلة ، أنه لا يكون إلا لقصد الإضرار ، والحيلة قد تكون لإظهار ما يعسر من غير قصد إضرار ، وعدوا مكر الله – تعالى– من مجاز التشبيه ، أو أن يكون من مجاز تسمية المسبب باسم سببه ، فإن مكره سبب عن مكرهم .

وقد يكون المقصود من الآية أن يجازيهم جزاء الماكر ، فتجوز بلفظ « المكر » عن عقوبته ، أي عاقبهم على كفرهم وسماه « مكرًا » مجازًا ، وعلى شاكلة مكره : سخريته [3] واستهزاؤه ، وخدعه [4] .

ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقة ؛ لأن المكر هو التدبير فيما يضر الخصم خفية ، وهذا يتحقق من الله باستدراجه إياهم بما أجرى عليهم من نعمه – وتركه إياهم على ما هم عليه – مع ما أعد لهم من نقمة [5] .

استهزاؤه سبحانه :

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [6] ، كيف أضاف الله الاستهزاء إليه تعالى ، وهو ما لا يجوز في الحقيقة عليه ؟ ووجه ذلك أن يجازيهم على استهزائهم ، فسمى الجزاء على الذنب باسم الذنب ، والعرب تسمي الجزاء على الفعل باسمه .

ومراد الآية أنه يعاملهم على ما وقع منهم من الاستهزاء بالرسول ﷺ ، لأنه قد ثبت في اللغة أنه قد يجري اسم الشيء على ما هو جزاء له ، كما يجري اسم الجزاء على الفعل ،

---

(١) النحل : ٣٣ .
(٢) آل عمران : ٥٤ .
(٣) كقوله تعالى : (سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) .
(٤) كقوله تعالى : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) .
(٥) انظر : الإيضاح ٤٠/٢ ، والفوائد المشوق / ٣٦ ، والبرهان ٢٦١/٢ ، ومختصر تفسير الماوردي ١٦٣/١ ، والإشارة إلى الإيجاز / ١٠٩ ، وتفسير النسفي ٦٦/٢ .
(٦) البقرة : ١٥ .

ولذلك قالوا الجزاء بالجزاء ، وقال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ، وإن كان ما يفعله الله تعالى – ليس سيئة ، وهو من الجزاء على الفعل بمثل لفظه وهذا المعنى يعرف بالمشاكلة .

وعلى غرار ذلك « الاعتداء » كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ ، فالعدوان الأول ظلم ، والثاني جزاء ، والجزاء لا يكون إلا ظلمًا ، قال عمرو بن كلثوم :

أَلا لاَ يَجْهَلَـنْ أَحَـدٌ عَلَيْنَا *** فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلينَا [١]

غضبه وسخطه سبحانه :

الغضب غليان في الدم ، واستشاطة في الطبيعة ، والله يتعالى عن ذلك ، أما غضب الله تعالى فمعناه : إنتقامه ممن عصاه ، وذلك من صفات فعله ، ويشبه انتقام الرب ممن أغضبه انتقام العباد ممن أغضبهم ، فعلى هذا يكون غضبه من مجاز المشابهة ، قال تعالى : ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [٢] .

أما سخطه تعالى فمعناه : أنه يريد بهم ما يريده الساخط بمن أسخطه ويعاملهم معاملة الساخط ممن أسخطه، أو يكون من مجاز المشابهة ، كقوله : ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [٣] ، وفي الحديث القدسي : « وأُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا » ، وعلى شاكلة هذا النوع أيضًا الأسف كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [٤] ، أي : فلما أغضبونا انتقمنا منهم [٥] .

كرسي الله :

قال تعالى : ﴿ ... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ... ﴾ [٦] ، والآية ما هي إلا تصوير لعظمته سبحانه – وتخييل فقط ، ولا كرسي ثمة ، ولا قعود ولا قاعدة ، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه ، وتمثيل حسي ، ذكره النسفي نقلا عن الزمخشري [٧] .

---

(١) يحتمل قوله « فنجهل فوق جهل الجاهلينا » معنى فنعاقبه بأغلظ عقوبة ، فسمى ذلك جهلاً ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ، وإنما قاله ليزدوج اللفظان ، فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما. انظر : الأسماء والصفات للبيهقي ص ٦١٧ ط . دار الكتب العلمية ببروت .

(٢) النساء : ٩٣ . (٣) المائدة : ٨٠ .

(٤) الزخرف : ٥٥ . (٦) البقرة :

(٥) انظر : الإشارة إلى الإيجاز ص ١١٠ ، ١١١ .

(٧) أنظر تفسير النسفي .

وهذا القول لم يعجب ابن المنيِّر السكندري ، واعتبره سوء أدب في الإطلاق ، وبُعد في الإضرار ، لأن التخييل – في نظره – يستعمل في الأباطيل ، وما ليست له حقيقة صدق[(١)] ولا نقر ابن المنير في هذا القول ؛ لأن قصد الزمخشري من التخييل قد يكون بهدف تقريب المعنى إلى الحس البشري ، وتصوير عظمة الله ، وهيمنته على الكون .

والرأي المضيء الذي نميل إليه هو ما ذكره السمين في دره بقوله :

« والكرسي قد يعبر به عن المَلِك لجلوسه عليه ، تسمية للحال باسم المحل ، ومنه قول الشاعر :

قد علم القدوسُ مولى القدْس *** أن أبا العباسِ أولى نفس

في معدن الملك القديم الكرسي

وقد يتجوز به تسمية للصفة باسم مكان صاحبها ، ومنه قيل للعلماء : الكراسي[(٢)] ، قال الشاعر :

يَحُفُّ بهم بيضُ الوجوه وعُصبةٌ *** كراسيُّ بالأحداث حين تنوبُ

وصفهم بأنهم عالمون بحوادث الأمور ونوازلها[(٣)] .

استواؤه على العرش[(٤)] .

إن الاستواء يحتمل في اللغة ، وتختلف مواقعه بحسب ما يتصل من القول ، والاستواء عند العلماء مجاز عن استيلائه على ملكه ، وتدبيره إياه ، وقد ذكر الاستواء على العرش في سور سبع من القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[(٥)] ، وقال ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾[(٦)] ، واستوى على العرش : كناية عن الملك ، لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك ، لا يحصل إلا مع الملك جعلوه كناية عنه[(٧)] ، وإن لم

---

(١) انظر : الانتصاف من الكشاف بهامش الكشاف : ١ .

(٢) الدر المصون ٢/٥٤٤ وهذا المعنى يعمل به في سلم الترقيات الجامعية .

(٣) والاستواء وأمثاله لم يتكلم فيه سلف هذه الأمة ، ولم يفسروه ، وكانوا يرون أن تفسيره هو تلاوته ، والسكوت عنه بلا تكييف ، وقد سئل الإمام مالك عن قوله : (الرحمن على العرش استوى) فأطرق رأسه حتى علاه الرحضاء ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وهذه المسألة قتلت بحثا وتوجيهاً عند المتكلمين . انظر رسالة الباحث ٤٠٧ ، والأسماء والصفات ٥١٦ومشكل الحديث وبيانه لابن فورك ص ٩٢ – ط دار الكتب العلمية – لبنان .

(٤) هي على التوالي : الأعراف / يونس / الرعد / طه / الفرقان / السجدة / الحديد .

(٥) طه : ٥ . (٦) الأعراف : ٥٤ . (٧) وهذه الكناية من استنباطات الزمخشري ، وهي نوع من الكناية غريب ، وهو أن تعمد إلى جملة معناها على خلاف الظاهر ، فتأخذ الخلاصة من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة والمجاز لتعبر بها عن المقصود . انظر : الكشاف ٤/٢٢ .

يقعد على السرير البته ، واستدلوا على ذلك من قول الشاعر :

قدْ اسْتَوى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ *** من غيرِ سيفٍ ودَمٍ مُهْرَاقِ (١)

أما ابن أبي الإصبع فيعتبر الآية من قبيل الاستعارة إذ يقول : « فالمستعار الاستواء ، والمستعار منه كل جسم مستوٍ ، والمستعار له الحق – عز وجل – ليتخيل السامع عند سماع لفظ هذه الاستعارة ملكا فرغ من ترتيب ممالكه ، وتشييد ملكه ، وجميع ما تحتاج إليه رعاياه وجنده من عمارة بلاده ، وتدبير أحوال عباده (٢) .

واستوى على سرير ملكه استيلاء عظمه ، فيقيس السامع ما غاب عن حسه من أمر الإلهية على ما هو متخيله من أمر المملكة الدنيوية عند سماع هذا الكلام ، ولهذا لا يقع الاستواء على العرش إلا بعد الإخبار بالفراغ من خلق السموات ، والأرض وما بينهما ، وإن لم يكن ثم سرير منصوب ، ولا جلوس محسوس ، ولا استواء على ما يدل عليه الظاهر من تعريف هيئة مخصوصة (٣) .

وتوجيه ابن أبي الإصبع في غاية الدقة والنصاعة، ودليل ذلك قول الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٤) ، فالآية مجاز عن إيجاد الله تعالى السماء على ما أراد ، تقول العرب : فعل فلان كذا ، ثم استوى إلى عمل كذا ، يريدون أنه أكمل الأول ، وابتدأ في الثاني . ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض (٥) .

وقد يكون المراد من الآية الانقياد لما يريده سبحانه فاستجابا ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٦) بمعنى أن قضاء الأمر من جانب الله – سبحانه – يكون من دون تراخ ومعاناة ومشقة ، وأنه في حدوثه بأيسر مدة ، يشبه قول القائل : كن ، وهذا ما سماه المتأخرون بالاستعارة التمثيلية (٧) .

---

(١) يريد أنه قهر أهله وغلبهم من غير محاربة ، وبشر : هو بشر بن مروان أخو الخليفة عبد الملك ، ولي لأخيه إمرة العـــراق ، وقد امتدحه الفرزدق والأخطل توفى سنة ٧٤هـ ، والبيت للأخطل يمدحه فيه . انظر : البداية والنهاية ٧/٩ ، والأسماء والصفات ص ٤٣٠ .

(٢) انظر : بديع القرآن : ٢٤ .

(٣) انظر : تفسير الرازي ١١٧/١٤ ، والتبيان /٢٧٨ ، والبرهان ٣٠٩/٢ .

(٤) فصلت : ٢٢ .

(٥) انظر : تفسير النسفي : ٨٩/٤ .

(٦) النحل : ٤٠ .

(٧) انظر : بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار ص ٣٠٢ . د. عبد الفتاح لاشين ط : دار الفكر العربي سنة ١٩٧٨م .

الفراغه سبحانه وتعالى :

الفراغ هو الخلاص عن المهام ؛ بمعنى القصد للعقوبة وإحكام الجزاء ، والله عز سلطانه لا يشغله شأن عن شأن ، في قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ (1) . وقع مستعار للأخذ في الجزاء وحده ، مستعار من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك ، يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنه ، بغرض التوفر على النكاية والانتقام (2) .

والآية عند العز بن عبد السلام مجاز عن مبالغته في حساب الثقلين ، ومجازاتهم على أفعالهم ، فإن من كثرت أفعاله لم يتأت مع الاشتغال بها المبالغة فيما يريده من أفعاله ، ومن تفرغ لشيء أتى به بكماله ، إذ لا شاغل عنه ، ولا مانع له ، وهو من مجاز التشبيه (3) ، ويعتبر توجيه العز دقيقا بالمقارنة مع كثير من العلماء (4) ؛ لأن الدنيا ستنتهي وتبلغ آخرها ، وتنتهي شؤون الخلق التي ذكرها الله بقوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (5) ، فلا يبقى إلا شأن واحد هو الجزاء ، فجعل ذلك فراغًا على طريقة المثل (6) .

كشفه عن ساقه :

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ (7) ، ذكر الرازي – رحمه الله – أن معنى الآية، الأمر الشديد ؛ لأن الإنسان إذا دهمته شدة شمّر لها عن ساقه ، فقيل للأمر الشديد : ساقه ، وتقول العرب : قامت الحرب على ساق ، أي اشتدت ، واستدل على ذلك بقول الجعدي :

أَخُو الحَرْبِ إن عضّتْ به الحربُ عَضَّهَا
وإنْ شَمَّرت عَنْ سَاقِهَا الحربُ شَمَّرا

ويوافق النسفي الرازي في فهمه للآية ، فيقول : والساق مثّل في الشدة (8) أما ابن عبد

---

(1) الرحمن : ٣١ .

(2) انظر : مفتاح العلوم / ٢٨٩ ، وتفسير النسفي ٢١١/٤ .

(3) انظر : الاشارة إلى الإيجاز / ١١٠ .

(4) اختلفت آراء العلماء حول الفراغ فمن قائل : هو بمعنى العقوبة ، وإحكام الجزاء . (البيهقي) ، وقال الفراء : هو من الله وعيد ؛ لأن الله – تعالى لا يشغله شيء عن شيء . والفراغ عند الزمخشري : استعارة تمثيلية ، مستعار من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك ، يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك ، والمراد التوفر على النكاية فيه ، والانتقام منه .
انظر : الكشاف ٤٧/٤ .

(5) الرحمن : ٢٩ .

(6) انظر : تفسير النسفي ٢١١/٤ .

(7) القلم : ٤٢ .

(8) انظر : النسفي ٢١٥/٤ .

السلام فيأتي توجيهه أدق من الرازي لاستشهاده بأكثر من دليل ، يقول « الآية مجاز عن مبالغته – تعالى – في محاسبة أعدائه ، وإهانتهم وخزيهم ، وعقوبتهم ، ويؤكد كلامه بقول الرسول ﷺ في الحديث القدسي : « فيكشف عن ساقه »[1] .

وأصله أن من جدَّ في عمل من الأعمال : حرب أو غيرها ، فإنه يشمِّر إزاره عن ساقه ، كي لا يعوقه عند جده ، وسرعة حركته فيما يجد فيه ، ولا ساق للرب سبحانه كما لا ساق للحرب في قول الشاعر :

كشَفَتْ لَهُمْ عن ساقِها *** وبَدَا من الشرِّ الصُّرَاح

عبَّر بذلك عن شدة وجدها ، وكما أنه لا نا جذان للشر في قول الشاعر :

قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذَيهْ لهم *** طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

وكما أنه لا أظفار للمنية في قول أبي ذؤيب الهذلي :

وإذا المنيةُ أنشَبَتْ أظفارها *** ألفيت كلَّ تميمة لا تنفعُ

وكما لا جناح للذل في قوله تعالى : ﴿ **واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذّلِ من الرَّحمة** ﴾[2] ، وليس للذل جناح حتى يخفض[3] ، وهذه الأدلة التي تترى علينا من النص نفسه هي التي تبرر التوجيه الفني الصحيح .

وقد يكون المقصود من الكشف عن ساقه : دخول الآخرة أو كشف الأمر عنها أو هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال ، وذُكرت أقوال غير سديدة في الساق منها قولهم : هي النفس لقول عليٍّ كرم الله وجهه : لأقاتلنهم ولو تلفت ساقي ، يريد نفسه ، ومما هو أعجب قولهم : إن الساق نور عظيم يخرون له سجداً ، وهذا تأويل بعيد وخروج عن اللفظ بغير دليل .

وجه الله :

أثبت القرآن الوجه صفة لله في أكثر من موضع من مواضع القرآن[4] ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾[5] ، وقد اختلف المفسرون في تأويل

---

(١) الحديث في صحيح مسلم : باب رؤية الله ٢٧/٣ .
(٢) الإسراء : ٢٤ .
(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز / ص
(٤) انظر : الأسماء والصفات للبيهقي /٤٣٨ وما بعدها .
(٥) كقوله : (إنما نطعمكم لوجه الله) ، وقوله : (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) ، و (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) ، وغيرها .
(٥) الرحمن : ٢٧ .

الوجه الذي جاء مضافًا إلى الله في موضع القرآن ، غير أنهم أجمعوا على أن وجه الله إنما هو الله عز وجل ، وهذا هو الحق ، بدليل قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (١) أي ذاته ، ذلك من إطلاق اسم الجزء على الكل (٢) .

والتعبير عنه بالوجه مجاز ، والمراد بالوجه هو ذات الله تعالي ، وأن الحقيقة غير مرادة ، تنزيها لله تعالى عن صفة التجسيم ، والوجه هو أظهر الأشياء في المشاهدة وأجلها قدرًا ، والوجه بمعنى الذات مشهور في اللغة ، فالعرب تذكر الوجه ، وتريد نفس الشيء كقولهم : وجه الطريق ، وجه الرأي ، وجه الصواب . أما قوله : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ فمعناه : ذو العظمة والسلطان وهو صفة الوجه (٣) .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (٤) ، فالمراد به الجهة التي وجهنا بها في القبلة ، وقيل المراد به الجاه ، أي : فثم جلال الله وعظمته ، مجاز من إطلاق الجزء على الكل ، وأما حمله على العضو المخصوص ، كما هو مذهب المجسمة فمردود (٥) .

يد الله ويمينه :

أثبتت آيات كثيرة من القرآن اليد لله – تعالى – تارة يذكرها من غير بيان العدد ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، وتارة بإثبات اليدين لله ، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ، وتارة بإثبات الأيدي ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ .

واختلف العلماء في تفسير ﴿ يَدُ اللَّهِ ﴾ فقالت المجسمة إنه عضو جسماني كما في حق كل أحد ، وهذا قول باطل ؛ لأن الله تعالى – ليس بجسم ، وأما جمهور الموحّدين فلهم في لفظ « اليد » قولان : رأي السلف ، وهم الذين فوضوا فيها معرفتها إلى الله . والمتكلمون فقالوا : اليد تذكر في اللغة على وجوه :

الأول : الجارحة : وهو معلوم .

الثاني : النعمة : تقول لفلان عندي يد أشكره عليها .

الثالث : القوة : كقوله « أولِي الأيدِي والأبصَارِ » أي: ذوي القوة والعقول .

الرابع : القدرة : ذكر العلوي أن اليد بمعنى القدرة كقولهم : يد فلان على غيره قاهرة ، ووجه المجاز من جهة أن اليد محلٌ للقدرة ، أو من جهة أن اليد آلة في الفعل ، والفعل لا يمكن حصوله إلا بواسطة القدرة ، فلأجل هذا تجوزوا في تسمية اليد بالقدرة (٦)

---

(١) القصص : ٨٨ . (٢) انظر : البرهان ٢٦٣/٢ .
(٣) انظر : تفسير النسفي ٢٠٩/٤ . (٤) البقرة : ١١٥ .
(٥) انظر : الإشارات والتنبيهات /٢٣١ ، والبرهان ٢٦٤/٢ .
(٦) انظر : الطراز : ٧٠/١ .

والعرب تقول : هذا ما عملت يداك وإنما تذكر اليد من حيث أنها أقوى آلات الأفعال.

الخامس : الملك : هذه الصنعة في يد فلان أي ملكه .

السادس : شدة العناية والاختصاص : قال تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ، والمراد تخصيص آدم بهذا التشريف . أما اليد في حق الله فيمتنع أن تكون بمعنى الجارحة ، وأما سائر المعاني فكلها حاصلة [١] .

وعليه فقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[٢] معناه : تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما [٣] ، كقوله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [٤] .

واليد في الآية إما أن تكون بمعنى واحد ، وإما أن تكون بمعنيين ، فإن كانت بمعنى واحد، ففيه وجهان : الأول : يد الله : بمعنى نعمة الله عليهم ، وثانيهما : يد الله : أي نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم ، وأما إن كانت بمعنيين فهي في حق الله تعالى : بمعنى الحفظ ، وفي حق المتبايعين بمعنى الجارحة ، والمراد أنه أقوى منهم وأقدر ، وفي ذلك زجرٌ لهم عن نكث البيعة .

واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين ، إذا مد كل واحد منهما يده إلى صاحبه في البيع والشراء ، وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا العقد من غير إتمام البيع ، فيضع يده على يديهما ، ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد ، ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر ، فوضْع الأيدي – إذن – فوق الأيدي صار سببا للحفظ على البيعة ، يد الله تحفظهم على البيعة، كما يحفظ ذلك المتوسط أيدي المتبايعَين .

ومعنى ذلك أنه لابد للمبايع من يد يبايع بها ، والله سبحانه يتعالى عن ذلك ، فيتوهم له شيء يشبه اليد ، وهو القدرة ، ويطلق عليها لفظ اليد تجوزا ، كما ذكر العلوي ، أو هي استعارة متضمنة معنى المشاكلة كما ذكره الرازي [٥] .

وأما قوله تعالى :﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ..... ﴾ [٦] ، ومعنى قوله : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

---

(١) انظر : تفسير الرازي ٤٢/١٢ .
(٢) الفتح : ١٠ .
(٣) انظر : تفسير النسفي ١٥٨/٢ .
(٤) سورة النساء : ٨٠ .
(٥) انظر : تفسير الرازي ٨٧ ، ٢٧/٢٨ ، والطراز للعلوي ٧٠/١ .
(٦) المائدة : ٦٤ .

أي مقبوضة عن العطاء ، لأن غل اليد وبسطها مجاز مشهور عن البخل والجود ، ومنه قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ (١) ، والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال لا سيما لدفع المال وإنفاقه ، فأطلقوا اسم السبب على المسبب ، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والبنان، والكف والأنامل ، فقيل للجواد فيّاض الكف مبسوط اليد ، ويقال للبخيل : كزُّ الأصابع مقبوض الكف ، جعد الأنامل (٢) .

ويتبلور المجاز بصورة أكثر إقناعًا على يد السمين فيقول : وغل اليد وبسطها هنا استعارة للبخل والجود ، وإن كان ليس ثم يد ولا جارحة ، وكلام العرب مليٌ من ذلك ،
قالت العرب : فلان ينفق بكلتا يديه ،

وقال الشاعر : يَدَاكَ يداً مَجْدٍ فكفٌّ مفيْدةٌ *** وُكفٌ إذا ما ضُنَّ بالمال تُنْفقُ
وقـال آخـر : تعوّد بسْط الكفِّ حتى لو أنه *** دعـاه لقبضٍ لـم تُطِعـه أناملُه

وقد استعارت العرب ذلك حيث لايد البتة ، ومنه قول لبيد :
إذا أصْبَحَتْ بيد الشمال زمامُها .

وقال آخر : جاء الحِمى بسطُ اليدين بوابلٍ *** شكرت يداه تلاعه ووهـاده

وقالوا : بَسَطَ اليأس كفيه في صدري ، فجعل لليأس الذي هو من المعاني كفين مجازًا ، وصدق السمين في قوله : ومن لم ينظر في علم البيان يتحير في تأويل أمثال هذه الآية (٣) .

ولما جعل القوم ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ كناية عن البخل ، فأجيبوا على وفق كلامهم ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، والمراد منه أيضا البخل لتصح المطابقة (٤) ، أو هو دعاء عليهم بالبخل ، فكما أن ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ عبارة عن عدم المُكْنة من البذل والإعطاء ، وعدم المكنة من الإعطاء تارة يكون لأجل البخل ، وتارة يكون لأجل الفقر ، وتارة يكون لأجل العجز ، فكذك قوله ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ دعاء عليهم بعدم القدرة والمكنة سواء حصل ذلك بسبب العجز أو الفقر أو البخل ، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال ، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله ، وقد يكون المقصود من ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أن تغل في جهنم ، فهي كأنها غلت (٥) .

ويتابع البيانيون توجيههم للآية ، فها هو ابن أبي الإصبع يخالف المفسرين ، ويرى في قوله ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ جملة معترضة بين الكلام والجواب مخرج الالتفات

---

(١) الإسراء آية : ٢٩ .
(٢) انظر : تفسير النسفي : ١/٢٩١ .
(٣) انظر : الدر المصون : جـ / ص
(٤) انظر : تفسير الرازي ١٢/٤١ .
(٥) انظر : تفسير النسفي : ١/٢٩١ .

ثم عاد إلى الجواب معترضا بين الدعوى والرد بلفظ التعطف في قوله ﴿ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ ﴾ ، وحصل الرد بعد الدعاء عليهم المشعر بكفرهم من قوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (١) .

وإذا كان بعض البلاغيين يرى أن قوله ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ كناية عن سعة جوده وكرمه جدا (٢) ، فإن ابن أبي الإصبع يميل بها نحو الاستعارة ويرجّح ذلك ، بقوله : والآية هنا استعارة تخييلية ، فالمستعار البسط ، والمستعار منه يد المنفق ، والمستعار له يد الحق سبحانه وتعالى ، اللتان يراد بهما ههنا التصرف في الملك بالأرزاق ؛ وذلك ليتخيل السامع عند سماع ذلك أن ثم يدين مبسوطتين بالإنفاق ، ولا يدان في الحقيقة ، ولا بسط على ما يدل عليه الظاهر، وإنما جاء الكلام على ما جاء عليه الازدواج (٣) حيث قالت اليهود – لعنهم الله – ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ فقال سبحانه في الجواب ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ (٤) .

والسؤال هنا – لماذا ثُنّيت اليد في ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ، وهي مفردة في ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، ذلك ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء . وفيض العطاء والكرم . أي ليس الأمر على ما وصفتموه به من البخل ، بل هو جواد على سبيل الكمال فإن من أعطى بيديه أعطى على أكمل الوجوه (٥) .

والآية بذلك تمدح الله – تعالى – بالعلو والكمال ؛ لأن غل اليد عن الإنفاق لا يقع إلا من أحد مُنفقَيْن : منفق فوقه قاهر يأخذ على يديه ، ومنفق يخاف الفقر فيمسك عن الإنفاق والحق سبحانه – فوق كل قاهر ، وغناه لا يخاف معه الإملاق ، فيندمج في ضمن الرد عليهم ما يدل عليه فَحْوَى الرد من التمدح بالعلو على كل شيء بالغني الأكبر ، كما اندمج في ضمن الدعاء عليهم ، واستحقاقهم الذم على كفرهم ، فحصل من مجموع ذلك ضرب من البديع يقال له الافتنان(٦) .

وقد ذكر الزمخشري أن مثل هذا الذي جاء في الآية يسمى المجاز عن الكناية ، يعني أنه يصير مجازا فيما كان كناية فيه ، كل ذلك تفاديا لملاحظة المعنى المباشر والتوقف عنده خوفا

---

(١) انظر : بديع القران ص ٤ .

(٢) انظر : البرهان ٢/١٤٥ وتفسير الرازي ، والنسفي .

(٣) لقد أرادوا أنه سبحانه وتعالى عما يقولون – بخيل فكنوا عن ذلك بهذه الكناية ، ثم رد عليهم القران مقالتهم ، وشاكل كلامهم بما يناقضه وقال : بل يداه مبسوطتان .

(٤) انظر : بديع القران ص ٢٥ .

(٥) انظر : تفسير الرازي ١٢/٤٢ ، والنسفي ١/٢٩٢ .

(٦) الافتنان : هو جمع الكلام بين فنين متغايرين فصاعداً كهذا الكلام الذي جمع بين هجاء اليهود ومدح الحق نفسه الذي لزم من الرد عليهم . انظر : بديع القران ص ٢٥ .

على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه كما يقول عبد القاهر [١] .

ونكتفي بهذه الخطرات والملاحظات التي أفرغها علماء البيان عن المراد بيد الله في الآية ، لننتقل إلى كلامهم في مسألة القبضة واليمين ، ومرادهما في القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [٢] والكلام في الآية بجملته ومجموعه تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز [٣] .

﴿ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ أي يخلق فيها صفة الطي حتى تُرى كالكتاب المطوي بيمين الواحد منا ، وخص اليمين ليكون أعلى وأفخم ، لأنها أشرف اليدين ، وأقواهما والتي لا غناء للأخرى دونها ، فلا يهش إنسان بشيء إلا بدأ بيمينه فهيأها لنيله ، ومتى قُصد جعلُ الشيء في جهة العناية جعل في اليد اليمنى، ومتى قصد خلاف ذلك جُعل في اليسرى [٤].

واليمين كذلك من معناه القوة والبأس ، لقول الشاعر :

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ *** تلقَّاها عَرابةُ باليمين

يعني بقوة وبأس .

صلاة الله :

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [٥] ، والمقصود من الصلوات : صلوات يتلوا بعضها بعضاً ، والصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن الناس دعاء ، وتجوّز في الآية بـ « على » ، والغرض بذلك كثرة الصلاة والرحمة ؛ لأن ما علاك وجلّك فقد أحاط بك [٦] .

وصلاة الله تعالى – من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب ، الذي هو الدعاء عن السبب الذي هو الإجابة ، وقد جمع بينها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى

---

(١) انظر الكشاف ص ١٦٧ والتصوير البياني للدكتور محمد أبو موسى . الناشر : مكتبة وهبة سنة ١٩٧٧م .

(٢) الزمر : ٦٧ .

(٣) انظر : التبيان /٢٧٨ ، والبرهان ٢/٢٠٩ ، والنسفي ٤/٦٥ .

(٤) انظر : الإيضاح ٢/٤٣٩ ، والبرهان ٢/٤٤٠ ، وسمى هذا الباب بالتخييل فقال : « ولا تجد بابا في علم البيان أدق ولا أعون في تعاطي المشبهات منه .

(٥) البقرة : ١٥٧ .

(٦) الفوائد المشوق /١٦٩ .

النبيّ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [١] ، فيكون الضمير في « يصلون » الله والملائكة ، وهذا التوجيه من ناحية الجمع بين الحقيقة والمجاز ، أما من لا يرى الجمع بين الحقيقة والمجاز يقدّر أن الله يصلي على النبي، وملائكته يصلون على النبي ، فيكون يصلون على النبي حقيقة في حق الملائكة ، ويكون يصلي المقدرة مجاز في حق الله تعالى [٢] .

والمعنى المجمل للآية : هو الذي يترحم عليكم ، ويترأف حين يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر ، والتوفر على الصلاة والطاعة ، لما كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده ، استعير لمن ينعطف على غيره حنوًا عليه وترؤفًا كعائد المريض في انعطافه عليه ، والمرأة في حنوها على ولدها ، ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف ومنه قولهم : « صلى الله عليك » أي ترحم عليك ، وترأف ، والمراد بصلاة الملائكة قولهم : اللهم صلِّ على المؤمنين ، جُعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرأفة والرحمة [٣] .

ذات الله :

ولعله من نافلة القول أن نقول ونحن نختم مبحث أسماء الله وصفاته - إنه ليس كذات الله شيء ، وهذه هي الحقيقة التي دار عليها كلام القدماء أثناء توجيههم للنص القرآني لنفي المثلية عنه سبحانه ، وقد نفاها هو عن نفسه بقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [٤] ، ومراد الآية نفي المماثلة عن ذاته .

وقد أفاض علماء البيان في هذه الآية وجعلوها من الكناية عن النسبة ، وعوّلوا فيها على كلام الزمخشري ، فها هو النسفي يقول ومراد الآية : ليس كذاته شيء ، لأنهم يقولون : مثلك لا يبخل ، يريدون نفي البخل عن ذاته ، ويتابعه ابن الأثير قائلا : « والمراد نفي المثل على طريقة الكناية ، أي ليس شبه ذاته المستجمعة لصفات الكمال شيء ، لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ، وفي نفس الحلبة يدور الطيبي إذ يقول : « فاستعمل « مثل » فيمن لا مثل له كما استعمل فيمن له مثل ، وهذه خاصية الكناية [٥] .

فالأصل ليس مثله شيء بنصب « مثله » ، والجر مجاز ، فالله سبحانه لا مثل له حتى يكون لمثله مثل ، وإنما ذكر ذلك على طريق المجاز قصدًا للمبالغة [٦] .

---

(١) الأحزاب : ٥٦ .

(٢) انظر : مختصر تفسير الماوردي / ٨٦ ، والإشارة إلى الإيجاز ، والفوائد المشوق /٢٢٩ .

(٣) انظر : تفسير النسفي ٣/٣٠٦ . (٤) الشورى : ١١ .

(٥) انظر : تفسير النسفي ٤/١٠١ وتفسير ابن كثير ١/١٠٨ ، والتبيان / ٤٢ .

(٦) انظر : مفتاح العلوم / ٢٩٢ ، والمثل السائر لابن الأثير ٣/٦١ .

وقد ذكر الجرجاني أن الآية من باب إطلاق الملزوم على لازمه ؛ لأن مثل مثل الشيء مثل لذلك الشيء ؛ فإذا انتفى الأول انتفى الثاني أيضا ، لأن المغايرة بينهما تعارض الإضافة ، والذات واحدة ، وأثبت ذلك بكلام في غاية الغموض ، وكأننا أمام معادلة رياضية ، أو قضية منطقية عويصة [١] .

وقد جعل القزويني نفي شبه المثل طريقا لنفي المثل ، وبيّن أن الكاف في « كَمِثْلِهِ » ليست زائدة بقوله : قيل وهذا غاية لنفي التشبيه إذ لو كان له مثل لكان كمثله شيء وهو ذاته . فلما قال : « ليس كمثله » دل على أنه ليس له مثل ، ثم أورد الشبهة التي تحوم حول معنى نفي – شبه المثل – من إمكان أن النفي هنا موجه في ظاهر اللفظ إلى المولى سبحانه ، وهي تلك الشبهة التي دفعت النحاة إلى القول بزيادتها ، قال وأورد أنه يلزم منه نفيه تعالى ؛ لأنه مثل مثله ، ورد بمنع أنه تعالى مثل مثله لأن صدق ذلك موقوف على ثبوت مثله تعالى عن ذلك [٢] .

وقد شرح العلامة التفتازاني في مطوله طريقة الدلالة في هذا الإسلوب وذكر أنها نفي للشيء بنفي لازمه ، لأن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم ، كما يقال ، ليس لأخي زيد أخ فأخو زيد ، ملزوم والأخ لازمه ، لأنه لابد لأخي زيد من أخ هو زيد ، فنفيت هذا اللازم ، والمراد نفي ملزومه أي ليس لزيد أخ ، إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ هو زيد ، فكذلك نفيت أن يكون لمثل الله تعالى مثل ، والمراد نفي مثله تعالى ، إذا لو كان له مثل لكان هو مثل مثله إذا التقدير أنه موجود [٣] .

وفي خضم هذا الأخذ والرد ونفي المثلية عند الله – تعالى – حذلقات فلسفية ، وعبارات جدلية تكاد تكون مظلمة إذا ما قورنت بتوجيهات البيانيين لما سبق من آيات والتي ينفون من خلالها مشابهة ذات الله لذات المخلوق في صفاته أو أفعاله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ .

---

(١) قال : ألا ترى أن « جـ » إذا كان مثلا لـ « ب » و « ب » مثلا لـ « أ » ، كان « جـ » مثلا لـ « أ » ، فإذا أضفت « جـ » إلى « ب » كان مثل مثل « أ » ، وإذا أضيف إلى « أ » كان مثل « أ » ، والذات لا تتغير بتغاير المضاف إليه ، فإذا انتفى ذات « جـ » انتفى الإضافتان معا ، وكذا « ب » مثل الإضافة إلى ذات « أ » ومثل المثل بالإضافة إلى صفة « أ » هي المثلية ، وإذا انتفى ذاته انتفى الإضافتان معا ولا يبقى غير ذات « أ » . انظر : الإشارات والتنبيهات ص ٢٢٥ وأعتقد أن إثبات الذات الإلهية ونفي المماثلة عنها لا يحتاج لمثل هذه المعادلة الرياضية .

(٢) انظر : الإيضاح ٢/١٧٧ .

(٣) انظر : المطول / ٤٠٦ .

وبعد :

فلماذا ركز البيان القرآني على تصوير صفات الله وأفعاله تصويرًا مجازيًا ، وليس حقيقيًا ؟ حتى يقرِّب لحس الإنسان عظمة الخالق في كمال صفاته وجلالها وهذا يقوي من عقيدته ورباطه بربه،ذلك لأن سلوك الإنسان في الحياة يتشكل وفق ما يعتقده من مبادئ ، ولا يصدر في سلوكه عن مجرد الغريزة ، بل يتدخل العقل والإرادة والموازنة في تشكيل السلوك البشري الذي يرتبط بتفهم العقل للمبادئ العقيدية ، ثم بعد تشرُّب الوجدان لها يصدر الإنسان في سلوكه ترجمة لها ، ولا يجد في ذلك كبير عناء .

والواقع الذي نراه في دنيا الناس يؤكد صحة ما أشرنا إليه ، فالمؤمن الذي يعتقد بوجود إله له صفات الجلال والكمال ، وله الخلق والأمر ، وإليه المصير ، ينهج في سلوكه نهجًا يظهر في تعامله مع نفسه ، ومع الناس ، بل ومع الكون حوله وهذا هو ما رمى إليه القرآن الكريم .

ولا شك أن نهج المؤمن بإله واحد يختلف قطعا عن نهج الملحد الشاك ، الذي اضطربت مبادئ الاعتقاد عنده ، واختلطت مفاهيمه ، فيؤدي ذلك إلى خلل في السلوك .

المبحث الثاني

الكون الدال على وحدانية الله - عز وجل -

إن هذا الكون هو كتاب الله المنظور الذي يقرأ بكل لغة ، ويُدرك بكل وسيلة ، ويستطيع أن يطالعه الساذج والمتحضر ، كل حسب إدراكه واستعداده ، فيبصر فيه وحدانية الخالق . ذلك الكون الذي أبدعه خالقه ، ثم أقسم بسمائه وأرضه وليله ونهاره وأنجمه ورياحه ، وامتدت الأقسام التي شملت أجزاء الزمان والمكان ، وصورت آفاق الجَمال في الضوء والظلمة ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾(١) .

وآيات الله في الكون ظاهرة ومعروفة وشاء الله أن تكون هذه الآيات في كونه منذ بدء الخلق حتى قيام الساعة ، فهذا الكون بكل ما فيه من شموس وأقمار وسماء وأرض ، وجبال وبحار ، ونبات وحيوان ، وإنسان ، من آيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته .

ولقد أشار البيان القرآني إلى ذلك في القرآن في مواضع كثيرة ، وهذا المنهج البياني لاينقص شيئًا من ثمار المنهج العلمي في إدراك حقائق الكون ، ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق ببعض في صور مادية محسوسة ، تصل إلى القلب البشري بأسرع ما يكون وتؤثر فيه ، لأن الإنسان بفطرته يميل إلى الأشياء المحسوسة أكثر من المعاني المجردة ، وهذا المنهج يبني الإيمان على التأمل المادي والعقلي ، ويبني عليه كذلك - منافع الإنسان القريبة والبعيدة ، أما الفلسفة الإغريقية فهي تجريدية تبتعد بالفكر عن المادة ، وتعبر المحسوسات إلى قضايا وهمية ، ولم يأخذ العالم طريقه إلى الأمام إلا يوم أن خلفها وراءه ، وأعادته الفطرة السليمة إلى منطق القرآن العلمي والعملي »(٢) .

وقد لاحظنا في هذه المشاهد الكونية المعروضة كثرتها وتنوعها في الآيات المكية في ثنايا عرضها لحقائق العقيدة ، قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾(٣) .

ونلاحظ كذلك أن معظم الآيات الكونية تدور حول عناصر الطبيعة من السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والرياح والأمطار ، ويجعل القرآن هذه العناصر شاخصة حية أمام الإنسان ، لتثير عواطفه وذهنه فيرغب في توحيد الله ، بعد أن يراها تحمل في طياتها دلالات القدرة والإرادة والوحدانية .

---

(١) الإنشقاق [١٦ : ١٩] .

(٢) انظر : المحاور الخمسة للقرآن . للشيخ محمد الغزالي ، ص ١٣٤ . ط دار الوفاء سنة ١٩٨٩ .

(٣) فصلت [٥] .

١ - السماء والأرض :

يصور القرآن السماء والأرض عاقلتين ، يوجه إليهما الخطاب ، فتسرعان بالجواب في رضًا وارتياح ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[١] .

جعل القرآن للسموات والأرض قولاً وطاعة ، على سبيل التوسع الذي يرد على غير وجه الإضافة ، وهو نوع من أنواع المجاز ، فالسموات والأرض جماد ، والنطق إنما هو للإنسان ، ولا مشاركة ههنا بين المنقول ، والمنقول إليه ، وعليه قوله ﷺ لمّا نظر إلى أُحُد « هذا جبل يحبنا ونحبه » فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد[٢] . وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول ، ومساءلة الأحجار ، كقول أبي تمام :

أميدان لهوي من أتاح لك البلى فأصبحت ميدان الصبا والجنائب

فأبو تمام سائل ربوعًا عافية ، وأحجارًا دارسة ، ولا وجه ههنا إلا مساءلة الأهل ، كالذي في قوله ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[٣] أي أهل القرية ، وكل هذا توسع في العبارة[٤] ، إذ لا مشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب[٥] .

ويرى بعض البيانيين أن الآية تجري على ظاهرها ، فقالوا : إن الله تعالى أمرهما بالإتيان فأطاعاه ، ولم يستبعد الرازي هذا الرأي ؛ لأن الله تعالى أمر الجبال أن تنطق مع داود عليه السلام ، فقال : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ ، والله تعالى : تَجَلَّى للجبل قال : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ والله تعالى أنطق الأيدي والأرجل فقال : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وإذا كان كذلك ، فكيف يستبعد أن يخلق الله في ذات السماء والأرض حياة وعقلاً وفهمًا ، ثم يوجه الأمر والتكليف عليهما »[٦] .

وقد يكون معنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما : أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع، وهو من المجاز الذي يُسمى التمثيل ، ويجوز أن يكون تخييلاً ، ويُبنى الأمر على أن الله تعالى كلّم

---

(١) فصلت [١١] .

(٢) انظر : مفتاح العلوم : ٢٦٨ ، والمثل السائر : ٢ / ٨١ ، والفوائد المشوق : ٧٩ ، الاتقان : ١١٨/٢ .

(٣) يوسف [٨٢] .

(٤) التوسع في الكلام هو القسم الذي يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه ، وهو مجاز مشهور .

(٥) انظر : المثل السائر : ٢ / ٧٨ ، ٨٢ . (٦) انظر : تفسير الرازي : ٢٨ / ١٠٩ .

السماء والأرض ، وقال لهما : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه ، فقالتا : أتينا على الطوع لا على الكره ، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير ، من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب ، ونحوه قول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقني ؟ قال الوتد : اسأل من يدقني ، فلم يتركني الحجر الذي ورائي (١) .

وهذا هو أوجَهُ الآراء وأرجحها في نظرنا ، لأن الله لم يقل ولم يقولا ، وكيف يخاطب معدومًا ؟ وإنما هذا عبارة : لكوّناهما فكانتا ، قال الشاعر حكاية عن ناقته :

تقــول إذا درأتُ لهــا وضينى	أهــذا دينُــه أبــدًا ودينــي
أكُلَّ الدهــر حَـلٌّ وارتحــال ؟	أما يُبْقِي عليَّ ولا يقيني ؟ (٢)

وهي لم تقل شيئًا من هذا ، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال ، فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذي ذكر .

وكقول الآخر : شكا إليّ جملي طول السُّرى

والجمل لم يَشْكُ ، وإنما خبَّر عن كثرة أسفاره ، وإتعابه حمله ، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلمًا ، لاشتكى ما به وكقول عنترة في فرسه :

فازْورَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ	وَشَكَا إليَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ (٣)

لما كان الذي أصابه يُشتكى مثله ، ويُستعبر منه ، جعله مشتكيًا ، مُستَعْبِرًا ، وليس هناك شكوى ، ولا عبره ، فقول الله وكلامه إذن في الآية ، ليس قولاً ولا كلاً ما على الحقيقة إنما هو إيجاد للمعاني ، ولذلك صرفه العلماء إلى المجاز (٤) .

أما الأرض في البيان القرآني فتهتز وتربو وتحيا بالنبات بعد أن كانت ساكنة هامدة ، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥). قال الرازي «... والخشوع: التذلل والتصاغر ، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض قبل نزول المطر عليها ، ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ٢٨/ ١٠٩ ، ١١٠ ، والكشاف : ٤/١٨٩ ، والانتصاف من الكشاف : ٤/١٨٩ .

(٢) البيتان للمثقب العبدي . انظر : الصناعتين : ٨٦ ، والوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر ، ودرأت وضين البعير : إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشده به .

(٣) انظر : معلقته من شرح الزوزني ، ص ٢٧٧ .

(٤) انظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ١٠٦ ، وما بعدها . ط . دار التراث ١٩٧٣ . تحقيق السيد أحمد صقر .

(٥) فصلت [٣٩] .

عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَت ﴾ : أي تحركت بالنبات وانتفخت وتزخرفت به ، كأنها بمنزلة المختال في زيه ، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البالي في الأطمار [1] الرثة ، وقُرِيء : وربأت : أي ارتفعت لأن النبت إذا هم أن يظهر ارتفعت له الأرض [2] .

وعبر القرآن عن الأرض في موضع آخر قبل نزول المطر بأنها هامدة فقال تعالى ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ [3]، وهذا التنوع في التعبير يأتي بغرض التشخيص الذي يخلع الحياة العاقلة على الجمادات والظواهر الطبيعية بما في هذه الحياة من إحساس ونبض وانفعالات .

والمتأمل في السياق الذي ورد فيه اللفظان يرى فيه لونًا من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير [4] .

٢ – الليل والنهار :

ومن العناصر الكونية الشاخصة في القرآن الليل الذي يحمل أعظم الدلالات على قدرة الله ووحدانيته ، والليل في القرآن مخلوق حي، يسري في الكون، فيقسم به في قوله تعالى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [5] ، يقول البيضاوي : إذا يمضي ، كقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ [6] ، والليل لايسري ، وإنما يُسرى فيه ، فلما عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقة ، وقيل معنى يسري : يسري فيه ، كما يقال : ليل نائم أي يُنام فيه [7] .

وفي ذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ، ووفور النعمة [8] .

والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تبيّنان عظمة الخالق سبحانه ، وفائدتهما في الوجود هو معرفة الزمن وقياسه ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [9] .

---

(١) الطمر : هو الثوب الخرق ، والجمع أطمار . وانظر : مختار الصحاح والقاموس المحيط مادة : طمر .
(٢) انظر : تفسير الرازي : ٢٨ / ١٣١ ، والكشاف : ٤ / ٢٠١ ، والبحر المحيط : ٧ / ٤٩٩ .
(٣) الحج [٥] .
(٤) انظر : التصوير الفني في القرآن : ٦٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، والمعاني الثانية : ٤٩ .
(٥) الفجر [٤] . (٦) التكوير [٢] .
(٧) انظر : تفسير النسفي : ٤ / ٢٥٤ .
(٨) انظر : تفسير البيضاوي : ٢ / ٩٣ .
(٩) الإسراء [١٢] .

وإذا كان الليل في الآية السابقة يسري ويتحرك ليلاً ، فالنهار لايقل عنه حياة وحركة وشخوصاً ، فهو ههنا يبصر ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ : فكأن الليل ممحو إذا قيس إلى ضوء النهار ، وصار ذا ظلمة ، وأضاء النهار ، وكأنما النهار مبصر بالضوء الذي يكشف كل شيء فيه للإبصار ، ولذلك قال البيانيون إن «مبصرة» أفصح من قوله «مضيئة»[١] .

وسواء مُحي الليل أو أبصر النهار ، فذلك كله لهدف ، فالليل للراحة والسكون لقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ، أما النهار فللسعي والحركة ، والليل المحو ، والنهار المبصر يؤديان إلى اختلاف الليل والنهار ، حتى يعلم الناس عدد السنين والحساب والفصول والمعاملات ، فهناك ارتباط شديد بين دلالات الكلمات والغاية منها ، فكل شيء في الكون مخلوق لحكمة وغاية ، ولهذا قال : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ .

ويعبّر القرآن عن هذه الظاهرة - ظاهرة الليل والنهار - تعبيراً فريداً ، فها هو يصور النهار متلبساً بالليل ، ثم ينزع الله النهار من الليل ، وكأنما نور الله يُسلخ فيحل محله الظلام ، فهو تعبير مصور لإبداع الكون أدق تصوير ، قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾[٢] .

أجمع البيانيون على أن الآية استعارة[٣] المستعار منه كشط الجلد على نحو الشك والمستعار له كشف الضوء عن مكان الليل ، وموضع إلقاء ظله وهما حسيان ، والجامع بينهما ما يعقل من ترتب أمر على آخر أي حصول أمر عقيب أمر دائماً أو غالباً كترتب ظهور اللحم على كشط الجلد وترتب ظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل وهذا معنى عقلي وبيّن ذلك التفتازاني بقوله : « إن الظلمة هي الأصل ، والنور طارىء عليها يسترها بضوئه فإذا غربت الشمس فقد سُلخ النهار من الليل أي كشط وأزيل كما يكشف عن الشيء الشيء الطارىء عليه الساتر له،فجعل ظهور الظلمة بعد ذهاب ضوء النهار كظهور المسلوخ بعد سلخ إهابه عنه »[٤] .

وهذا توجيه في غاية الدقة والروعة من العلاّمة التفتازاني،لأنه جعل الليل هو الأساس الذي ينسلخ منه النهار فيعود الظلام ، حيث يعتبر العلم الحديث أن الكون غارق في ظلام

---

(١) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٦٩ ، والفوائد المشوق : ٨٠ ، والدر المصون : ٢٧٧/٦ .

(٢) يس [٢٧] .

(٣) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٦٦ ، ومفتاح العلوم : ٢٨٩ ، والطراز : ١ / ٢٤٤ ، والفوائد المشوق : ٧٩ ، وشرح التلخيص : ٥٦٨ ، والتلخيص : ٣١٣ .

(٤) المطول على التلخيص : ٣٦٩ .

دامس ، وإذا ما لاقت أشعة الشمس المظلة الأرضية من الهواء تشتتت أشعتها وانتشرت ، فالفضاء الكوني مظلم أصلاً ، وضوء النهار يأتي بسبب اعتراض الغلاف الجوي الأرض لأشعة الشمس ، وهذا ما عبّرت عنه الآية آنفًا بعودة الظلام عندما يُسلخ النهار من الليل ليسيطر على الكون[١] ، ويؤكد هذا الفهم قوله : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾[٢] ، واستوعب بعض البيانيين هذه المسألة استيعابًا يشبه إلى حد كبير فهم المحدثين ، فقال العلوي: «فلما كان النهار من شدة الاتصال بالليل كاتصال الجلد بالمسلوخ منه لاجرم حسُنت الاستعارة[٣] .

فالليل هو الذي يطلب النهار ويتأيد هذا باللغة حيث إنه إذا عمل الفعل بمفعولين ، فالأول منهما يكون فاعلاً في المعنى ، والثاني مفعولاً،وبالآية عمل فعل بمفعولين ، فالفاعل في المعنى يكون هو المقدّم حيث لايصبح تقديم ما هو مفعول بالمعنى على ما هو فاعل بالمعنى ، وإذا قال الله تعالى : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَار ﴾ دل على أن الليل هو الفاعل في النهار في المعنى ، وفي قوله تعالى : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾[٤] .

وقد وقع في عبارة السكاكي والخطيب أن المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل ، واعترض عليهما بأنه لو أريد ذلك لقيل : (فإذا هُم مُبْصِرونَ) ولم يقل : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ ، أي داخلون في الظلام ، لأن الواقع عقيب ظهور النهار من ظلمة الليل إنما هو الإبصار لا الإظلام[٥] .

وحمل عنهما صاحب المطول مؤونة الدفاع ، وحمل عبارتهما على القلب ، أي ظهور ظلمة الليل من النهار ، وبأن المراد بظهور النهار تميّزه عن ظلمة الليل ، وبأن الظهور هنا بمعنى الزوال ، وأضاف إلى ذلك قوله : إن السلخ قد يكون بمعنى النزع نحو سلخت الإهاب عن الشاة ، وقد يكون بمعنى الإخراج نحو سلخت الشاة من الإهاب ، والشاة مسلوخة ، فذهب السكاكي والخطيب إلى الثاني ، وغيرهما إلى الأول[٦] .

ولهذا قال الخطيب في الآية : « شبه تبرؤ الليل من النهار بانسلاخ الجلد عن الجسم المسلوخ، وذاك أنه لما كانت هوادي الصبح عند طلوعه ملتحمة بأعجاز الليل ، أجرى عليها اسم السلخ، وكان ذلك أولى من أنه لو قيل «يخرج» لأن السلخ أدل على الالتحام من الإخراج، وهذا

---

(١) انظر : وجوه من الإعجاز القرآني : ١٢٤ .   (٢) الأعراف [٥٤] .
(٣) انظر : الطراز : ١ / ٢٤٤ .
(٤) انظر : الرسول ﷺ : ص ٤٧ ، لسعيد حوى .
(٥) انظر : الإشارات والتنبيهات : ٢١٩ .   (٦) انظر : المطول : ٢٦١ .

تشبيه في غاية المناسبة »[١] . ونقل ابن الأثير والزركشي هذا القول بمعانيه وأكثر ألفاظه[٢] ، وإذا نظرنا إلى النهار ينسلخ من الليل لمسنا قدرة الله في إزالة أي أثر للضوء كما يُزال الجلد بسلخه عن الشاة .

٣ – الشمس والقمر :

وإذا رجعنا إلى آيات سورة « يس » مجدّداً سنجد أن الشمس والقمر يجريان لمستقر لهما ، وهما في حركة لاتنقطع ، يظهر هذا ليختفي ذاك ، ويختفي ذاك ليظهر هذا ، ليتأمل الناس مخلوقات الله فيصلوا إليه ، قال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٣] .

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ ، وقد يُظن أنها ثابتة في موضعها مستقرة في مكانها ، ولكن القرآن يؤكد على حركتها وأنها تجري ، تجري فعلاً بصورة حسية في الفضاء ، فالمجموعة الشمسية برمتها تجري لمستقر لها،بما فيها الأرض وقمرها ، وتجري بحساب مُقدّر دقيق ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[٢] ، تجري لمستقر لها تنتهي إليه لايعلم مداه إلا الله ، شبّه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره ، أو لحدٍّ لها من مسيرها كل يوم في مرائي عيوننا ، وهو المغرب أو لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا[٤] .

وفي قوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ تنكير للمستقر إشارة إلى عِظَم الهول الذي سيحدث عندما تصل الشمس نحو هذا المستقر يوم القيامة ، والعلم لايعرف إلا معدل الانطلاق نحو هذا المستقر .

ولكن هل يدري أحد كيف تلحق الشمس بالمستقر حين يستقر ؟ لا أحد يدري . وهل يدري العلم شيئاً خطيراً من أمور الغيب التي لايعلمها أحد إلا الله ؟

وبالمقارنة بين القرآن والعلم الحديث نجد أن العلم يتوافق مع القرآن ولايتعارض معه ، غير أن القرآن ينفرد بالإعجاز البياني،فالتعبير «يجري» مثلاً لايدل على الحركة الظاهرية التي نراها من شروق الشمس وغروبها ، بل هو يدل على حركة حقيقية عظيمة المعدل يلائمها تعبير الجري فجاء الفعل ليعبر عن حركة سريعة نحو الهدف «المستقر» ، والحركة السريعة هي ما قدره العلم متأخراً بحوالي ٤٣٢٠٠ ميل في الساعة ، فالجري إذن يتعدى مجرد الحركة الظاهرية التي يراها الإنسان العادي للشمس ، وذلك بمفهوم العلم الحديث ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

---

(١) انظر : الإيضاح ٢ / ١٣٢ .
(٢) الرحمن[٥] .
(٣) يس[٣٨ ، ٣٩]
(٤) انظر : تفسير النسفي : ٣ / ٨ .

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ والقمر آية من آيات الله المنظورة ، يراه الناس هلالاً ثم بدراً ثم يعود هلالاً مقوساً ذابلاً كالعُرجون القديم ، شبّه القمر في نهاية رحلته بالعرجون القديم ، وذلك في هيئة نحوله ورقته واستدارته لا في مقداره ، لأن في مقدار الهلال عظماً في الحقيقة ، والعرجون في مرأى النظر أعظم منه ، فالتشبيه بالعرجون هيئة لا مقداراً [١] .

ومن عَجَبٍ أن التشبيه بالعرجون ، وهو عذق النخل الذي يحمل البلح بعد أن أُكل ثمره ، فهو جاف لا ماء فيه ولا خضرة ولا حياة ، وهو تشبيه دقيق صادق من كافة نواحيه ، وهو تشبيه رائع أيضاً ، لأن العرجون القديم الجاف لايشارك القمر في الشكل فحسب ، وإنما هناك معان أخرى منها : أن العرجون القديم كأنه شيء تائه لايُلتفت إليه ، وكذلك القمر في هذه المرحلة تراه ضالاً في السماء ، لاتتعلق به الأبصار ، ولاتلتفت إليه ، ومنها - كذلك - أن كلاً منهما موضع العناية ومتعلق الأنظار .

ومما سبق يتضح لنا أن الكون بشمسه وأقماره وحدة متماسكة مترابطة بفعل الجاذبية ، ينطق بوحدانية الله الخالق . إنه ميزان الله الدقيق الذي أودعه في القانون الإلهي الأعظم لهذا الكون ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [٢] .

٤ - الرياح والمطر :

ويتردد مشهد الرياح في معرض دلائل الإيمان الكونية في البيان القرآني ، مشهدها وهي تثير السحب ، وتذهب بها إلى حيث يريد الله لها أن تذهب ، وهي تتبع في سيرها قواعد معينة تؤدي إلى توزيعها على الأرض بطريقة خاصة تعرف في العلم بالدورة العامة للرياح [٣] . وفي معظم الأحوال تكون الرياح بُشرى للمطر ، ويصور القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [٤] .

والله الذي أرسل : بلفظ الماضي لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله ، وما يفعل الله يكون بقوله : «كن» فلا يبقى في العدم لا زمان ولا جزء من الزمان ، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه ، وسرعة كونه كأنه كان ، وكأنه فرغ من كل شيء .

---

(١) انظر : المثل السائر : ٢ / ١٢٦ ، والتسهيل : ٣ / ١٦٢ ، والتبيان للطيبي : ١٩٥ .

(٢) الرحمن [٧] .

(٣) انظر : الطبيعيات والإعجاز العلمي القرآن ، د. عبد العليم خضر ، ص ٢٥٣ . ط الدار السعودية للنشر ١٩٨١ .

(٤) فاطر [٩] .

وفي قوله : ﴿ أَرْسَلَ ﴾ أسند الفعل إلى الغائب ، وقال ﴿ فَسُقْنَاهُ ﴾ بإسناد الفعل إلى المتكلم ، وكذلك ﴿ أحيينا ﴾ ؛ لأنه في الأول عرَّف نفسه بفعل من الأفعال ، وهو الإرسال ، ثم لما عُرِفَ قال : أنا الذي عرفتني سقتُ السحاب ، وأحييت الأرض ، ففي الأول كان تعريفًا بالفعل العجيب ، وفي الثاني كان تذكيراً بالنعمة (١).

ويرى صاحب المفتاح أن قوله : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ من المجاز ، جعل خضرة الأرض ونضرتها بما فيها من الأزهار والنبات حياة ، فالمجاز دخل في المثبت ، وأما الإثبات فعلى الحقيقة ؛ لأن فاعل ذلك هو الله تعالى »(٢) .

وأما قوله ﴿ فَتُثِيرُ ﴾ جعله مستقبلاً ، لأن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة حتى كأن السامع يشاهدها (٣) .

فالله – سبحانه – سخر الرياح حوامل بالسحاب ، لأنها تحمل السحاب في جوفها ، والرياح تنطلق وفق نواميس كونية ، وتحمل الماء وفقًا لهذه النواميس ، وتسقط الماء كذلك بحسبها ، ولكن من الذي يصرف هذا كله من الأساس ؟ لقد صرفه الله الخالق ، وهذا التصريف يدل على أن من وراء هذا الكون إلهًا مدبراً .

وبالرغم من أن هذه الرياح جسم لطيف لايمسك ولايرى ، فهي مع ذلك في غاية القوة بحيث تقتلع الأشجار ، وتخرب الديار ، وهذا أمر يدعو إلى التأمل والتدبر ، فها هي الريح يسخرها الله – تعالى – لإهلاك عاد ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ ﴾(٤) ، بريح صرصر عاتية : فالعتو ههنا مستعار ، وهي استعارة معقول لمحسوس ، وعاتية : أي بالغة منتهاها في القوة ؛ لأن حقيقة عاتية شديدة ، والعتو أبلغ ، لأنه شدة فيها تمرد (٥) .

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ٢٦ / ٧ .

(٢) انظر : مفتاح العلوم : ١٧١ ، وبديع القرآن : ١٧٧ .

(٣) انظر : المثل السائر : ٢ / ١٨١ .

(٤) الحاقة [٦ : ٨] .

(٥) انظر : البرهان للزركشي : ٣ / ٤٢٩ ، ومفتاح العلوم : ٣٦١ ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٩١ ، والتفسير الكبير للرازي : ٣٠ / ١٠٤ .

أما قوله : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ أي هلكى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية : أي كأنهم أصول نخل خاوية الأجواف لا شيء فيها ، والنخل يؤنث ويذكر ، قال تعالى في موضع آخر ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴾ ، وقرئ أعجاز نخل ، ثم يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التي قلعت من أصلها ، وهو إخبار عن عظيم خلقهم وأجسامهم ، ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع ، أي أن الريح قد قطعتهم حتى صاروا قطعًا كأصول النخل ، وأما وصف النخل بالخواء ، فيحتمل أن يكون وصفًا للقوم ، فإن الريح كانت تدخل أجوافهم ، فتصرعهم كالنخل الخاوية الجوف ، ويحتمل أن تكون الخالية بمعنى البالية ؛ لأنها إذا بليت خلت أجوافها فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية[١] .

ويتكرر عذاب القوم – عاد – بالريح في موضع آخر ، مما يدل على أن الريح صورة من صور العذاب ، لعنفها وقوتها وجبروتها ، فالريح طاقة قوية عرفها الإنسان القديم في تسيير المراكب في البحار ، وعرفها إنسان هذا العصر في توليد الكهرباء ، وضخ المياه ، وإدارة الطواحين على شاطيء البحر[٢] .

قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[٣] وصفها بالعقم ، لأنها لا بركة فيها من إنشاء المطر أو إلقاح الشجر ، وهي ريح الهلاك لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، أو لأنها لم تتضمن منفعة ، واختلف فيها على أنها الدبور أو الجنوب أو النكباء[٤] والأظهر أنها ريح الدبور ، لقوله ﷺ : « نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُورِ »[٥] .

وجعل الطيبي الآية استعارة ، ووجهها بقوله : «المستعار له الريح ، والمستعار منه المرأة ، والجامع المنع من ظهور النتيجة»[٦] . أي أن الريح الشديدة المهلكة التي لا خير فيها ، أهلكتهم وقطعت نسلهم ، فأصبحت تشبه المرأة التي انقطع نسلها ، فلم تنجب ، ولاتمر بشيء إلا هشمته وفتتته ، فاستعار عقم المرأة التي لاتلد ، للريح التي لاتسقط مطرًا ، ولاتلقح شجرًا ، ولاشك أن عدم التوالد والإنجاب في عقم المرأة أظهر وأكثر تأكيدًا منه في الريح التي لاتأتي بمطر[٧] .

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ١٦ / ١٠٥ .

(٢) انظر : الطبيعيات والإعجاز العلمي : ٢٥٩ ، بتصرف .

(٣) الذاريات [٤١ ، ٤٢] .

(٤) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ٤ / ٧٠ ، وتفسير البيضاوي : ٢ / ٤٣١ ، وتفسير النسفي : ٤ / ١٨٧ ، والكشاف : ٤ / ١٩ .

(٥) انظر : التبيان للطيبي : ٢٤٦ .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) انظر : القرآن والصورة البيانية . د. عبد القادر حسين : ١٤٥ ، ١٤٦ ، فن الاستعارة في الأدب الجاهلي . د. أحمد الصاوي . رسالة دكتوراه كلية الآداب – جامعة القاهرة – ص ٣٠ .

وفي هذا الكلام نظر ؛ لأن عقم المرأة ليس أظهر من أثر الريح ، فأثر الريح باد للعيان من جفاف الأرض ، ولكنه خاصية من خاصيات التعبير القرآني، وليست العلة فيه الظهور أو عدمه، وإنما هي قوة الصفة للعلاقة المباشرة بين العقم،والحرص على الولد عند الرجل العربي ، والإخصاب للأرض من المطر ؛ لأن استمرار الحياة في كليهما متوقف عليه ، فالعلاقة ههنا علاقة حيوية بيولوجية ، والتصور القديم للسماء على أنها ذكورة ، والأرض على أنها مؤنثة ، لما تعطيه السماء للأرض من ماء الحياة .

ولقد حام الطيبي حول هذا المعنى ، ولكنه لم يحسم القضية ، وانتصر لرأي القدماء في النهاية ، قال في التبيان : « .... وقيل فيه نظر – التوجيه السابق – لأن العقيم صفة للمرأة، لا اسم لها ، ولذلك جُعل صفة للريح لا اسمًا ، والحق أن المستعار منه ما في المرأة من الصفة التي تمنع الحمل ، والمستعار له ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء المطر ، وإلقاح الشجر ، ورُد بأن النظر مبني على المنع من انقلاب التبعية مكنية ، ودونه خرط القتاد »[١] .

أما قوله : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ أي كالرماد من الرمم ، وهو البلى والتفتت[٢] ، والرميم : في نظر ابن جزي – هو الفاني المنقطع ، والعموم هنا يُراد به الخصوص فيما أذن للريح أن تهلكه[٣] .

ويتحدث القرآن عن ظاهرة نزول الأمطار ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾[٤] .

فالقرآن يستدل بهذه الأشياء على قدرة الله وحكمته ، وهذا المطر النازل يصيب به الله من يشاء على وفق المصلحة ، ويصرف ضرره عمن يشاء بأن لايسقط عليه ، ويؤكد ذلك أن الله شبه هذا المطر بالجبال ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ أي من جبال السحاب العظام ، لأنها إذا عظمت أشبهت الجبال في عظمها أو جمودها ، كما يقال : فلان يملك جبالاً من مال ، وقال بعضهم : وُصفت بذلك توسُّعًا[٥] .

وفي هذه الآية عرْض محسوس لقدرة الله ، وإلفات إلى ظاهرة من الظواهر الجغرافية التي يشاهدها الناس في كل زمان ومكان ، ونشاهد في الآية صورًا ومشاهد للسحاب الذي يولد بخارًا رقيقًا ثم يدفعه الريح ، ثم يجتمع هذا السحاب بعضه إلى بعض ، فيتكاثف شيئًا

---

(١) انظر : التبيان : ٢٤٦ .
(٢) انظر : تفسير البيضاوي : ٢ / ٤٣١ .
(٣) انظر : التسهيل : ٤ / ٧٠ .
(٤) النور : ٤٣ .
(٥) انظر : تفسير الرازي : ٢٤ / ١٤ ، وتفسير البيضاوي : ٢ / ١٢٦ .

فشيئًا ، ثم يتدافع هذا السحاب ويدخل بعضه في بعض ، فإذا هو ركام أشبه بالآكام أو الجبال كما ذكر البيانيون .

وفي قوله : « فترى الودق (المطر) يخرج من خلاله » إشارة إلى مولد المطر من هذا السحاب ، قال : « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » إلى نزول البرد من جبال السحب المتراكمة في السماء ، والبرد : هو قطع الثلج . وقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾ : يبين أن هذا البرد الذي تحمله السحب بين يديها ، لاترمي به هكذا من غير حساب ، بل هو مملوك بيد القدرة القادرة ، فيقع حيث أراد الله أن يقع ، ويصرف عمن أراد الله سبحانه أن يصرفه عنه .

وفي قوله : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » لون جديد تكتمل به الصورة ، صورة هذا البرد المتساقط كالأحجار ، فهذا البرد يحمل معه الصواعق المهلكة ، والنار المحرقة »[١] .

ويرى المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة أن هذا التشبيه تشبيه السحاب الذي أزجاه الله تعالى بالجبال ، أن هذا لايبدو للسائر على سطح الأرض ، ولا للواقف على آكامها ومرتفعاتها، وما كان ذلك معلومًا عند العرب ، ولكن الذي يرتفع فوق السحاب في الطائرات التي تقطع أجواز الفضاء يرى السحاب جبالاً .

وإن هذا بلا شك نوع من العلم بالكون فوق ما فيه من دلالة على إعجاز القرآن ، إذ إن ذلك الوصف لايمكن أن يكون من محمد - الأمي - لأنه لم يرتفع حتى يكون فوق السحاب ، فلابد أن يكون الوصف بعلم الله تعالى ، والكلام كله من عنده سبحانه وتعالى - لا من عند محمد [٢] .

وهذه آية أخرى تستعرض دلائل قدرة الله أمام الناس في كل حين ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[٣] .

إن نزول الماء من السماء ، واخضرار الأرض مظهر يشعر الرائي بعظمة الله وقدرته .

ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي ههنا إلى المستقبل فقال : «فتصبح الأرض مخضرة» ، ولم يقل : «فأصبحت» عطفًا على «أنزل» ، وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان [٤] . فإنزال الماء مضى وجوده ، واخضرار الأرض باق ولم يمض ، وهذا كما تقول : « أنعم عليّ فلان ، فأروح ، وأغدو شاكرًا له » ، ولو قلت : فرحت وغدوت شاكرًا له ، لم يقع ذلك الموقع ، لأنه يدل على ماض قد كان وانقضى ، وهذا موضع حسن ينبغي أن يتأمل[٥] .

---

(١) انظر : التفسير القرآني للقرآن ١٣ / ١٢٩٩ ، والظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن : ٢٠ . د. عبد العليم خضر .

(٢) انظر : المعجزة الكبرى (القرآن) ص ٥٢٠ . ط . دار الفكر العربي . مصر ١٩٧٧ .

(٣) الحج [٦٣] .

(٤) انظر : تفسير الرازي : ٢٣ / ٦٢ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ١٨٥ .

وإذا شاء الله أن يكون المطر نافعًا ، جعله مباركًا ؛ لأنه في هذه الحالة يكون سببًا لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، كذلك الخروج ﴾ (١) .

وكما أن الماء النازل من السماء يحي موات الأرض بالنبات (٢) فإنه يحي موات القلوب بالفرحة ، يقول السكاكي : « فالإحياء أمر عقلي ، ثم وقع مستعار ؛ لإظهار النبات والأشجار والثمار وأنه أمر حسي (٣) ، وقد جاء هذا التصوير الحسي لأمر الإحياء ، إحياء الأرض الميتة، لينتهي بموكب الكون كله إلى الهدف الأخير ، وهو البعث الذي ينكره كثير من الناس في تلك البيئة ، فقال : « وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج » .

وذكر المؤنث « بلدة » على تأويل البلدة بالمكان والإثقال ، ويلاحظ أن القرآن ذكر في هذه الآية «ميتة» ، وفي آية أخرى قال «بلدة ميتًا» ، فقال : ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (٤) . فالذي أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ، والذي أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة ، كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة ، فالسياق البياني للآية – إذن – يبين قدرة الله على إعادة الخلق بعد الموت وبعثهم للحساب ، وتكرار هذا المعنى في القرآن يؤكد على أن القرآن كان يواجه في بيئته الأولى أفكارًا إلحادية ، كان من الضروري عليه أن يواجهها ويدحضها بالحجة والبيان ، وتقريب الصورة إلى أذهان السامعين من البيئة نفسها .

ويعبر القرآن عن المطر تعبيرًا مجازيًا ، فيسميه مرة بالماء ، وأخرى بالرزق ، قال تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا .. ﴾ (٥) تجوز بالماء عن المطر ، « وقيل كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله » (٦) .

وبعض العلماء جعل الماء في الآية كناية عن العلم ، والأودية كناية عن القلوب ، والزبد كناية عن الضلال، والواقع أن هذا التأويل لا يحتمله اللفظ من جهة حقيقته ومجازه، وهو مردود على قائله ولو ساغ تأويل القرآن على ما لايحتمله اللفظ مجازًا ، ولا حقيقة لساغ للباطنية ما يزعمونه من تأويلات ، كتأويل العصا بالحجة والثعبان بالبرهان ، وأنهار العسل بالعلم ، وغيره من التأويلات المستهجنة (٧) .

---

(١) ق [٩ : ١١] .

(٢) يقول البلاغيون أيضًا : ضحكت الأرض إذا أنبتت . انظر الصناعتين للعسكري : ٢٨٣ .

(٣) انظر : مفتاح العلوم : ٢٩١ .

(٤) الزخرف [١١] .

(٥) الرعد [١٧] .

(٦) انظر : تفسير النسفي : ٤ / ٥٤ .

(٧) انظر : المثل السائر : ٢ / ٦٢ ، وجواهر القرآن ودرره للغزالي .

والجائز في الآية حمل الماء على المطر النازل من السماء ، وحمل الأودية على مهابط الأرض ، وقد يكون قوله « سالت أودية » مجاز حذف ، لأن التقدير : سالت مياه الأودية ، إلا أنه حذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه (١) ، وحمل الزبد على الغثاء الرابي الذي تقذفه السيول ، والغرض من الآية في مجموعها هو ضرب المثل للحق والباطل ، يريد أن الحق مشابهة للسيل من جهة صفائه وركوده ، وكثرة الانتفاع به ، وأن الباطل يشبه الزبد في خفته وجفائه وطيرانه بهبوب الريح ، وقلة الجدوى فيه ، وهذا ما تقتضيه الآية من جهة ظاهرها ، وهو السابق إلى الأفهام (٢) .

أما التجوز عن المطر بالرزق فيظهر في قوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ (٣) ، أي مطرًا سببًا للرزق (٤) ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، فالرزق هو المطر ، لأنه سبب الأقوات ، وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم (٥) .

وعبر القرآن كذلك عن الماء بالأنعام ، فقال : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ (٦) ، الآية مجاز مرسل من تسمية السبب باسم المسبب ، لاسيما إذا نظر إلى أن كل ماء في الأرض فهو من السماء ، والأنعام لاتعيش إلا بالنبات ، والنبات لايقوم إلا بالماء ، وقد أنزل الماء ، فكأنه أنزلها ، وهذا معنى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ (٧) ، إلا أن مفهوم الآية يلفت نظر الإنسان إلى أن كل نعمة مرجعها إلى الخالق سبحانه .

٥ - البحار :

ثم يبين الله - تعالى - دلائل كمال قدرته ، ونفوذ إرادته ، وذلك في عدم استواء بحار الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ١٩ / ٣٦ .
(٢) انظر : الطراز للعلوي : ٤٠٦،٤٠٥،٤٠٤/١ . (٣) غافر [١٤] .
(٤) انظر : الإيضاح : ٢ / ٤٠١ ، وشرح التلخيص : ٥٥١ ، ومفتاح العلوم : ٢٦٦ .
(٥) انظر : الكشاف : ١٧/٤، والنسفي : ١٨٤/٤. (٦) الزمر [٦] .
(٧) انظر : الإيضاح : ٢ / ٤٠١ ، ومفتاح العلوم: ٢٦٦ .
(٨) فاطر [١٢] .

قال ابن جزي : قال الزمخشري : « إن المعنى أن الله ضرب للبحرين الملح والعذب مثلين للمؤمن والكافر » ، وهذا بعيد ، لأن قصد الآية التنبيه على قدرة الله ووحدانيته ، وإنعامه على عبادة[١] ، وذكر الزركشي أن التشبيه في الآية جاء مطويًا على سنن الاستعارة[٢] .

ثم ينتقل – سبحانه – إلى الفلك التي تجري في البحار كأنها لضخامتها كالجبال ، تجري بقدرته ، ولايحفظها في خضم البحر إلا هو، فقدرته هي التي يَسَّرت كل أسباب الانتقال والرفاهية ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾[٣] .

الجواري : السفن الجاريات ، والمنشآت : المرفوعات ، كالأعلام كالجبال ، جمع : علم ، وهو الجبل الطويل ، ومعنى الآية : وله السفن الجارية في البحر كالأعلام ، أي كأنها الجبال ، والجبال لاتجري إلا بقدرة الله ، فيكون ذلك أكثر بيانًا للقدرة[٤] . شبه السفن الجارية على ظهر البحر بالجبال في كبرها ، وفخامة أمرها على جهة المبالغة ، والمبالغة في التشبيه لايمكن حصولها إلا إذا كان المشبه به أدخل في المعنى الجامع بينهما[٥] .

وقال ابن الأثير : هذا تشبيه كبير بما هو أكبر منه ، لأن خلق السفن البحرية كبير ، وخلق الجبال أكبر منه[٦] . واتفق جمهور البلاغيين على أن هذا التشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها ، وقد اجتمعا في العظم ، إلا أن الجبال أعظم ، والفائدة إبانه القدرة على تسخير الأجسام العظام من الفلك الجارية في ألطف ما يكون من الماء وأعظمه ، وما في ذلك من انتفاع الخلق بحمل الأثقال ، وقطعها الأقطار البعيدة في المسافة القريبة ، وما يلازم ذلك من تسخير الرياح للإنسان وما في ذلك من المتاجر والمكاسب المنقولة ، فتضمن الكلام فنًا عظيمًا من الفخر ، وتعدادًا لنعم الله على العباد[٧] .

والملاحظ أن القرآن قد أثر كلمة «الأعلام» عند وصف السفن على كلمة «الجبال» ، ولعل سبب هذا الإيثار كما يقول الاستاذ الدكتور أحمد بدوي هو أن الكلمة مشتركة بين عدة معان، تتداعى هذه المعاني عند ذكر هذه الكلمة ولما كان من معاني العلم : الراية التي تستخدم للزينة

---

(١) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ٢ / ١٠٦ .

(٢) انظر : البرهان للزركشي : ٣ / ٤٢٣ . (٣) الرحمن [٢٤] .

(٤) انظر : تفسير الرازي : ٢٩ / ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) انظر : الطراز : ١ / ٣٠٤ ، والبحر المحيط : ٨ / ١٩٢ .

(٦) انظر : المثال السائر : ٢ / ٨٢٧ .

(٧) انظر : البرهان للزركشي : ٣ / ٤٢٢ ، بديع القرآن : ٥٩ ، وتحرير التحبير : ١٦٠ ، وجو هر الكنز : ٦١ ، وتفسير ابن كثير : ٤ / ٢٧١ ، وتفسير البيضاوي : ٧٠٦ ، وتفسير الخازن : ٧ / ٥ .

والتجميل كان ذكر «الأعلام» محضرًا إلى النفس هذا المعنى إلى جانب إحضارها صورة الجبال ، وكأن إثارة هذا الخاطر ملحوظًا عند ذكر السفن الجارية فوق البحر ، تزين سطحه ، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معًا ، وفي كلمة «الأعلام» وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء»[1] .

ويصف القرآن في موضع آخر الأمواج التي تجري فيها السفن بقوله : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ ، فآثر هنا كلمة «الجبال» عن الموج ، لأنها توحي بالضخامة والجلال معًا[2] .

ونراه في موضع آخر يُشبِّه الموج بالظلل وهي الجبال المتلاصقة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ، وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾[3] .

فقوله : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ : تشبيه ، شبه الموج في ارتفاعه ، وأسوداده واضطرابه ، بالظلل ، وهو السحاب ، وقيل : كالظلل ، كالجبال ، أطلق على الجبل ظلة ، والظلة، كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما[4] .

فأمام مثل هذا الخطر الجليل ، والموج الشديد الذي يغشاهم كالظلل ، والفلك كالريشة في مهب البحر الهائج ، تتعرى النفوس من كل قوة ، وتظهر على حقيقتها ، وعندئذ يدعو الإنسان ربه مخلصًا أن يترك كل من عداه ، وينسى جميع من سواه ، فإذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة ، وقد يعود إلى الشرك ، فالآية جاءت عبرة لكل مبصر وموحد بالله ، ولفت وبيان لقدرة الله ليئوب إلى كنفه الملحدون .

أما السؤال الذي يرد على ذهن الباحث هنا – ما سر هذا التنويع والتشبيه القرآني للموج الذي جاء على وصفين «الجبال» مرة «والظلل» مرة أخرى ؟

ويرى الاستاذ الدكتور – أحمد بدوي – عليه رحمة الله – « أن سر هذا التنويع ... أن الهدف في الآية الأولى يرمي إلى تصوير الموج عاليًا ضخمًا مما تستطيع كلمة الجبال أن

(١) انظر : من بلاغة القرآن : ٢٠١ .

(٢) وسنبين ذلك عند حديثنا عن قصة نوح عليه السلام . انظر : ص ٤٠١ من البحث .

(٣) لقمان [٣٢] .

(٤) انظر : البحر المحيط : ٧ / ١٩٣ ، وتفسير النسفي : ٣ / ٢٨٥ ، والكشاف : ٣ / ٢٣٧ .

توحي به إلى النفس ، أما الآية الثانية – والتي نحن بصددها – فتصف قوماً يذكرون الله عند الشدة ، وينسونه لدى الرخاء ، ويصف موقفاً من مواقفهم ، كانوا فيه خائفين مرتاعين ، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج ، ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً ، وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلل الرؤوس ، هنالك يملأ الخوف القلوب وتذهل الرهبة النفوس ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين ، فلما كان المقام مقام رهبة ، وخوف كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق في تصوير هذا المقام وأصدق [1] . وهذا هو الهدف الذي ترمي إليه الآية ، والذي يستخدم من أجله التصوير البياني ، هو تقريب المعنى إلى حس الإنسان وتأكيده في نفسه ، فيوحد الله من يوحد عن رغبة أو رهبة .

خَلْـقُ الإنســان :

ثم يوجه القرآن الإنسان إلى النظر في خاصية نفسه لبيان قدرة الخالق سبحانه ، قال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [2] : ومعروف أن الدفق : هو صب الماء ، يقال دفقت الماء : أي صببته ، وماء دافق : بمعنى ذي دفق ، وهو صب فيه دفع ، والدفع في الحقيقة لصاحبه ، والإسناد إلى الماء مجاز [3] . قال الرازي : «صاحب الماء لما كان دافقاً أطلق ذلك على الماء على سبيل المجاز» [4] . والمراد من الماء الدافق : الممتزج من المائين في الرحم – ماء الرجل وماء المرأة – بدليل قوله : ﴿ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ ، والأمشاج تعني الأخلاط ، وهو اندماج الحيوان المنوي بالبويضة ، وهذا الماء المذكور ، يخرج من بين الصلب والترائب ، وقد أثبت العلم أن السائل المنوي الذي تسبح فيه الحيوانات المنوية يتكون من صلب الرجل وظهره ، كما أن بويضات الأنثى تتكون من عظام صدرها ، وهكذا تتطابق الحقيقة العلمية والحقيقة القرآنية ولا غرابة فإن منشئ الحقيقة العلمية هو الله سبحانه وتعالى ، وهو خالقها فإذا تحدث عنها الرب سبحانه فهو أعلم بها .. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير [5] ؟

ويبين القرآن مدى عظمة الخالق من خلال موضع دقيق هي بنانه التي يسهل حركتها والقيام بأدق الأعمال ، قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن لَن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [6] أي نجعلها صفحة مستوية، لا شقوق فيها، كخف البعير، فيعدم الإتقان بالأعمال اللطة كالكتابة والخياطة ونحوها من الأعمال التي يستفاد فيها بالأصابع.

---

(١) من بلاغة القرآن : ٢٠١ . (٢) الطارق : [٥ : ٧] .
(٣) اظنر : تفسير البيضاوي : ٧٩٤ ، وتفسير النسفي : ٣٤٨/٤ .
(٤) انظر : تفسير الرازي : ٣٢ :
(٥) انظر : وجوه من الإعجاز القرآني ، مصطفى الدباغ : ص ٨٢ ، طب مكتبة المنار – الأردن ١٩٨٥ .
و«خلق الإنسان بين الطب والقرآن . د. محمد الباز : ص ١٢١ ، ط الدار السعودية للنشر : ١٩٨١ .
)٦) القيامة [٢ ، ٤] .

وقالوا : ذكرت البنان ، لأنه قد ذكرت اليدان ، فاختص منها ألطفها ، وهو مجاز من التعبير بالجزء وإرادة الكل[١] . والمقصود من قوله : نسوي بنانه : أي نجمع سلامياته ، ونضم بعضها إلى بعض ، كما كانت مع صغرها ولطافتها ، فكيف بكبار العظام ، أو على أن نسوي بنانه التي هي أطرافه ، فكيف بغيرها ، وإنما خص الأصابع دون سائر الأعضاء ، لدقة عظامها وتفرقها[٢] .

والآية تؤكد عملية جمع العظام بما هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه في موضعه كما كان ، وهي كناية عن إعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه ، وإكماله بحيث لاتضيع منه بنان ، ولاتختل عن مكانها ، بل تُسَوَّى تسوية ، لاينقص معه عضو ، ولا شكل هذا العضو مهما صغر ودق . وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هي صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية ، الذاهبة في التراب ، المتفرقة في الثرى ، لإعادة بعث الإنسان حيًا ، ولعلها لاتزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا ، والقرآن يَرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكدًا وقوعه[٣] .

وعدا عما ذكره البيانيون يمكننا أن نقول : إن في الآية من التركيب الدقيق المعجز ، والرقيق الأخاذ ما يدهش ويثير وهو اختلاف بصمات كل شخص عن الآخر ، فالثابت علميًا أنه من بين الملايين من الأفراد تأخذ بصمات بنان كل شخص طابعًا خاصًا ، وشكلاً مميزًا تختلف عما عداها على الإطلاق ، وهذا من المكتشفات العلمية التي لم يعرفها القدماء ، ولم تحدث إلا في العقود الأخيرة فقط ، مما يبين إعجاز القرآن وما فيه من كنوز لم تكتشف بعد[٤] .

ونكتفي بهذه النماذج القرآنية الدالة على أن للكون إلها يجب أن يعبد ويوحد دون سواه ، وهناك ظاهرة تستحق الذكر ، هي قدرة البيان في عرض الآيات القرآنية عرضًا منوعًا ومتجانسًا ، بطريقة تتلقاها النفس بأسرع ما يكون ، مما يؤكد تكامل الصورة البيانية في القرآن ، وقدرتها على إقناع المستمع بالإيمان بالله ، وليس يخفى أن الإيمان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالانفعال النفسي ، وأن هذا الانفعال لايكون بغير الصورة البيانية .

---

(١) انظر : البرهان : ٢ / ٢٦٧ .

(٢) انظر : تفسير النسفي : ٤ / ٣١٤ ، والتسهيل : ٤ / ١٦٤ ، وتفسير البيضاوي .

(٣) في ظلال القرآن : ٦ / ٣٧٦٩ .

(٤) لايمكن أن نحمل النص القرآني على أن مدلوله هو الذي كشفه العلم ، فالقرآن الكريم معجز سواء طابقته الكشوف العلمية أم لم تطابقه ، ولكننا نستأنس بالمكتشفات العلمية التي أبرزت إعجاز القرآن .

والملاحظ – كذلك – أن الكون قد تكرر ذكره في القرآن الكريم ، لأنه كما بينا اتخذ من خلق كل ما في الوجود دليلاً على من أنشأه ، فكان لابد وأن يكون الكون وما فيه من خلق عظيم يدل على منشئه وحده سبحانه وتعالى ، ولا نكاد نجد سورة من القرآن مكية كانت أو مدنية خلت من ذكر الكون وما يتصل به .

وإن ذلك فيما نحسب يوجه نظر الإنسان إلى أنه جزء صغير من هذا الكون ، ليربطه به ، وليتعرف أسراره وأحواله ، وليعرف أنه وهو الصغير قد سخر الله تعالى له هذا الكون الكبير .

والعجيب انه مع هذه الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله – تعالى – يوجد في كونه من يشرك به ويتصور الله تصوراً مغلوطاً ، وهذا ما سنبينه في المبحث التالي .

المبحث الثالث

التصور الفاسد للخالق عند المشركين والرد عليه

لاتكتمل صورة التوحيد في القرآن إلا ببيان التصورات الفاسدة للخالق عند المشركين ، وركز القرآن على المشركين لأن الشرك ربما كان أصل الكفر ، ولعل طبيعة الشرك ، تزيد عن طبيعة الكفر من جهة ، وتقل عنها من جهة أخرى ، تزيد عن الكفر ؛ لأن المشرك لايكتفي بالكفر بالله ، بل يشرك بالله غيره ، وفي ذهنه فكرة مشوهة مهزوزة عن الله - عز وجل - فهو إذن كافر وزيادة ، ويقل عن الكفر ، لأن في ضميره بعض الإيمان ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ .

والمجتمع المكي كان مجتمعًا مشركًا ، مليئًا بالأصنام والأوثان ، وكان مجتمعًا معاندًا ، وربما عانى منه الإسلام أكثر مما عانى من الكفار عمومًا ، حتى في طريقة الإقناع ، كانت مخاطبة الشرك واقتلاع جذور الشر من عقله أكثر صعوبة من أهل الكتاب ، وكان من الضروري - إذن - على القرآن أن يجادلهم ، ويحاججهم لشرح فكرته النقية - التوحيد الخالص - وإبطال تصورهم الفاسد عن الله ، عن طريق التصوير البياني الذي كان من أقوى الوسائل التي استخدمها القرآن لغزو نفوس الكافرين ، وركز على ضرب الأمثال لتقريب وتوضيح وبيان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك .

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ ﴾ (١) . هذا مثل ضربه الله تعالى للكافر الذي يعبد آلهة شتى ، وهو في غاية الحسن في تقبيح الشرك ، وتحسين التوحيد (٢) .

مثَّل الكافر ومعبوديه بعبد اشترك فيه شركاء ، بينهم تنازع واختلاف ، وكل واحد منهم يدَّعي أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ، ويتعاورونه في مهن شتى ، وهو متحير ، لايدري أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد في حاجاته ، وممن يطلب رزقه ، وممن يلتمس رفقه ، فهمه شعاع ، وقلبه أوزاع (٣) .

قال صاحب البحر - نقلاً عن الزمخشري - « وإنما جعله رجلاً ليكون أفطن لما شقي به أو سعد ، فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك » (٤) .

وهذا من أبلغ الأمثال ، فإن الخالص لمالك واحد ، يستحق من معونته ، وإحسانه والتفاته إليه ، وقيامه بمصالحه ، ما لايستحق صاحب الشركاء المتشاكسين ، هل يستويان مثلاً ؟

---

(١) الزمر [٢٩] . يتشاكسون : يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ، والشكس الضَّيِّق الخلق .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٢٦ / ٢٧٨ ، وتفسير الخازن : ٦ / ٧٤ ، والإشارة إلى الإيجاز : ١٨٩ .

(٣) انظر : تفسير النسفي : ٤ / ٥٦ . (٤) انظر : البحر المحيط : ٥ / ٤٢٥ .

إنهما لايستويان ، لايستوي هذا وهذا ، كذلك لايستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله ، والمؤمن المخلص الذي لايعبد إلا الله وحده لاشريك له ، فأين هذا من هذا ؟ ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال : الحمد لله : أي على إقامة الحجج عليهم (١) .

وأكثر القرآن من ضرب الأمثال تزهيداً في عبادة الأصنام : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لايَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً ، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِراً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ ، وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لايَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لايَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

والقرآن بهذا المثل أبطل مذهب عبدة الأصنام ، ويرفض أن يكون الجماد مساوياً لرب العالمين في المعبودية ، فالمثل الأول ضربه الله تعالى لنفسه وللأوثان ، فإن الله سبحانه – هو المالك لكل شيء ، ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً ، ليلاً ونهاراً ، يمينه ملأى لاتغيضها نفقة الليل والنهار ، والأوثان مملوكة عاجزة ، لاتقدر على شيء ، فكيف تجعلونها شركاء لي تعبدونها من دوني ، مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين (٣) .

وهذا القول أشبه بمراد الآية ، فإنه أظهر في بطلان الشرك ، وأوضح عند المخاطب ، وأعظم في إقامة الحجة ، وأقرب نسباً لقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لايَمْلِكُ لَهُم رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلايَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٤) .

وأما المثل الثاني : ضربه الله سبحانه لنفسه ، ولما يعبدون من دونه أيضاً فالصنم الذي يعبدونه من دونه بمنزلة رجل أبكم ، لايعقل ولاينطق ، بل هو أبكم القلب واللسان ، لايتكلم ، ولاينطق بخير ، ولايقدر على شيء بالكلية ، فلا مقال ولا أفعال ، وهو مع هذا كَلٌّ على مولاه ، أينما أرسله لايأتيه بخير ، ولايقضي له حاجة ، فكذلك الأصنام أموات جماد ، لاتضر ولاتنفع ، ولاتسمع ولاتنطق ولاتعقل ، وهي كَلٌّ على عابديها ، لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة ، فهل تستوي هذه الأصنام مع الله الحي القادر ، المتكلم الآمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ؟ كلا !!

---

(١) انظر : اعلام الموقعين : ١/٢٢٤ ، وما بعدها : والتفسير القيم : ٤٢٣، وتفسير ابن كثير : ٤/٥١ .

(٢) النحل[٧٥ ، ٧٦] .

(٣) الأمثال في القرآن : ٢٠٤ .

(٤) النحل[٧٣] .

فصريح العقل يشهد بأنه لاتجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال ، فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة ، والصورة البشرية ، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله – عز وجل – الخالق القادر على الرزق والإفضال ، وبين الأصنام التي لاتملك ، ولاتقدر على شيء البتة [١] .

ثم أقام القرآن الحجة على المشركين من نفوسهم وذاتيتهم ، حتى لايحتاجون فيه إلى غيرهم ، فهو مثل واقعي يعيشونه حيًا بينهم ، ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه ، ويحتج عليه بما هو في نفسه ، مقرر عندها ، معلوم لها، قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِن أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُم ، فَأَنتُم فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُم كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُم كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [٢] .

والمثل دليل قياسي احتج الله به على المشركين ، حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء ، ومعنى المثل : هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم ، فأنتم وهم في ذلك سواء ، تخافون منهم أن يقاسموكم أموالكم ، ويشاطروكم إياها ، ويستأثرون ببعضها عليكم ، كما يخاف الشريك شريكه ، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم ، فَلِمَ عدلتم لي من خلقي من هو مملوك لي ؟ فإن كان هذا الحكم باطلاً في خاطركم وعقولكم مع أنه جائز عليكم ، وممكن في حقكم إذ ليس عبيدكم ملكًا لكم حقيقة ، وإنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، وأنتم وهم عبادي فكيف ترضون لرب الأرباب ، ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده شركاء ؟

عجبًا لهم !! يجعلون لله الخالق الرازق مالك الملك شركاء من عبيده ومخلوقاته ، ويأنفون أن يشاركهم الشركاء في عبيدهم ، وإمائهم وأموالهم ، ومواليهم [٣] . إن المنطق والعقل يحتم عليهم لو كانوا يعقلون لوحدوا الله .

والأكثر عجبًا أن هؤلاء الشركاء الضعاف يرجى نصرهم ورزقهم ، ويتمسك بهم في الشدائد ، والقرآن يريد أن يحسم ضعف هؤلاء الشركاء ، والآلهة أو الأولياء من دون الله عامة فيقول : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [٤] .

---

(١) تفسير الرازي : ٢ / ٨٧ ، وتفسير البيضاوي : ٣٦١ ، وتفسير النسفي : ٢ / ٢٩٤ ، والبحر المحيط : ٥ / ٥١٨، والأمثال في القرآن : ٢١١ ، والتفسير القيم : ٢٢٨ ، وتفسير الخازن : ٤ / ١٨، وابن كثير : ٢ / ٥٧٥ ، وأدلة الأحكام : لوحة : ١٩ .

(٢) الروم [٢٨] .

(٣) انظر : التفسير القيم : ٤٠٥ وما بعدها ، والأمثال في القرآن ٤٠٣ ، وإعلام الموقعين : ١ / ١٩٠ وما بعدها ، وتفسير النسفي : ٤ / ٢٧١ ، والتسهيل في علوم التنزيل : ٤ / ١٣٢ .

(٤) العنكبوت : [٤١] .

شبه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتًا ضعيفًا لايقيها من المكاره ، وهو أضعف من أن يدفع عنها شيئًا ؛ لأنه أوهن البيوت ، فكان ما اعتمدت عليه العنبكوت في بيتها ليس بشيء ، فكذلك ما اعتمدت عليه الكفار من آلهتهم ليس بشيء ، لأنهم لاينفعون ولايضرون ، فهم ضعفاء ، والذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم[١] .

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ : الآية إشارة إلى أن كل بيت فيه فائدة الاستظلال ، وغير ذلك ، وبيت العنكبوت يضعف عن إفادة ذلك ؛ لأنه كما يقول الرازي «يخرب بأدنى شيء ولايبقى منه عين ولا أثر ، فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون»[٢] ، وخالفه ابن القيم في ذلك لأنه لم ينف عنهم علمهم بوهن العنكبوت ، وإنما نفى عنهم اتخاذهم أولياء من دونه ،يفيدوهم عزة وقوة ، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه ، ويوافق ابن كثير ابن القيم في هذا التوجيه الصائب[٣] .

وهذا يدل على أن من اتخذ من دون الله وليًا يتعزز به ، ويتكثر به ، ويستنصر به ، لم يحصل له به إلا ضد مقصوده ، وفي القرآن نظير ذلك الكثير من إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، تلقي عليها أشعة الضوء تغمرها فتصبح شديدة الأثر ، مما تزيد المعنى وضوحًا وتأثيرًا كما في المثل السابق .

وهذا المثل يبين أن هنالك قوة واحدة هي قوة الله وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى فهو كالعنكبوت الضعيفة ، تحتمي ببيت من خيوط واهية ، فهي وما تحتمي به سواء . وفي هذا المثل تصوير عجيب صادق لحقيقة القوي في هذا الوجود ، الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحيانًا ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع الموازين ، ولايعرفون إلى أين يتوجهون ، ماذا يأخذون وماذا يدعون !!

وتخدعهم القوى الظاهرة كقوة الحكم والسلطان ، وقوة المال ، وقوة العلم ، وينسون أن الالتجاء إلى هذه القوى كالتجاء العنكبوت إلى بيتها ... حشرة صغيرة رخوة واهنة ، لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن ، وليس هناك إلا حماية الله ، وإلا

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ٢٥ / ٦٩ ، وتفسير الخازن : ٣ / ٢٥٨ ، والتسهيل : ٣ / ١١٧ ، والإشارة إلى الإيجاز : ١٨١ ، وأدلة الأحكام : لوحة : ٢١ ، والبحر المحيط : ٧ / ١٥٢ .

(٢) تفسير الرازي : ٢٥ / ٦٩ .

(٣) انظر : الأمثال في القرآن : ١٩٠ ، وتفسير ابن كثير : ٣ / ٤١٣ .

حماه ، وإلا ركنه الركين ... قوة الله وحدها هي القوة ، وولاية الله وحدها هي الولاية ، وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل مهما علا واستطال »(١) .

وحين أراد القرآن أن يبين أن الله وحده يستجيب لمن يدعوه ، ويحقق له ما يرجوه ، وأن هذه الآلهة لن يستفيد منها عابدوها بشيء ؛ لأنها لاتملك لهم شيئًا ، ولاتنيلهم خيرًا مهما قرب ، رسم لهذا المعنى صورة عجيبة تشبههم في هذا الذي يبسط كفه إلى الماء يريد أن ينقله إلى فيه ، وهي صورة تلح على الوجدان ، وتجتذب إليها النفوس ، فلا تستطيع أن تتحول عنها إلا بمشقة كبيرة ، ولنستمع إلى قول الحق جل وعلا : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لايَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ ﴾(٢) .

معنى ذلك أن الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله لايستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه ، إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء ، والماء جماد لايشعر ببسط كفيه ، ولابعطشه وحاجته إليه ، ولايقدر أن يجيب دعاءه ، ويبلغ فاه ، فكذلك ما يدعونه من جماد ، لايحس بدعائهم ، ولايستطيع إجابتهم ، ولايقدر على نفعهم(٣) . هذا خلاصة كلام الرازي ، وقد دار المفسرون من بعده في فلكه مع اختلاف يسير في الصياغة اللفظية فقط(٤) .

قال صاحب البحر : « والعرب تضرب المثل في الساعي فيما لايدركه بالقابض على الماء ، وأنشد سيبويه :

فأصبحتُ فيما كان بيني وبينها ... من الوُدِّ مثلَ القَابِض الماءَ في اليَدِ

وقوله :

وإنّي وإيّاكُم وشوقًا إليكُم ... كَقَابِضِ ماء لَمْ تَسَعْهُ أناملُهُ

﴿ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ ﴾ : أي في حيرة أو في اضمحلال ؛ لأنه لايجدي شيئًا ، ولايفيد ، فقد ضل ذلك الدعاء عنهم كما ضل المدعوون »(٥) .

ويقين أن الذي يشرك بالله لا بقاء له في عالم الاستقرار ، والأمن والأمان ، ولذلك شبه القرآن حاله بحال الهاوي من السماء ، لأنه لايملك لنفسه حيلة ، حين يقع حيث تسقطه الريح ، وهو لايدري به أحد ، وهو هالك لا محالة ، وها هو القرآن يصوِّره بصورة مؤيسة للغاية ، قال

---

(١) في ظلال القرآن : ٥ / ١٢١ بتصرف . (٢) الرعد [١٤] .
(٣) انظر : تفسير الرازي : ١٩ / ٢٩ .
(٤) انظر : تفسير الخازن : ٤ / ١٢ ، وتفسير البيضاوي : ٣٢٨ .
(٥) انظر : البحر المحيط : ٥ / ٣٧٧ .

تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (١) .

قال ابن القيم الجوزية في هذا التشبيه أمران : أحدهما : أن تجعله تشبيهًا مركبًا (٢) ، فكأنه قيل : من أشرك بالله ، وعبد معه غيره ، فقد أهلك نفسه إهلاكًا ليس وراءه إهلاك ، بأن صوّر حاله بصورة حال من خرّ من السماء ، فاختطفته الطير ، فتفرق أجزاؤه في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ، وعلى هذا لاينظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابلته من المشبه به .

والثاني : أن يكون تشبيهًا مفرّقًا ، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به ، وعلى هذا يكون قد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي أشرك بالله بالساقط من السماء إلي أسفل سافلين ، وشبه الأهواء المردية التي توزع أفكاره بالطير المختطفة والشياطين التي توقعه في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة (٣) ، والملاحظ أن البيانيين يدور كلامهم في الآية حول هذا المعنى ، وجميعهم يدور حيث دار الرازي ، الذي يكثر دوره حول أفكار الزمخشري البيانية (٤) .

والواقع أن الآية صورة صادقة لحال المشرك الذي يهوي من أفق الإيمان السامق إلى منحط الضياع الساقط ، فيفقد صاحبه الأمن والأمان الذي يتمثل في قاعدة التوحيد الكبرى ، وهي كذلك – صورة غريبة ، ووجه غرابتها أننا نتصور إنسانًا يخر من السماء ، ولم يسقط على الأرض ، وإنما يضيع بين السماء والأرض : إما أن تتخفطه نسور الجو الجارحة فتمزقه إربًا ، وإما أن تذهب به الريح إلى مهاويها السحيقة .

يا للهول الهائل !! إن الريح لترمي به في مكان لايدري به أحد ، حتى لايتوهم أحد أن لمن يشرك بالله قوة أو سلطانًا مهما بلغ ، فها هو نراه بأعيننا ، ثم يغيب فجأة في المجهول ، ويهدر وجوده إهدارًا مطلقًا في ومضة من الزمان ، ذلك لأنه هوى من أفق الفطرة السامقة إلى منحط الضياع والضلال .

---

(١) الحج [٣١] .

(٢) بيانه أن العرب تاخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها عن بعض ، لم ياخذ هذا بحجزة هذا ، فشبهها بنظائرها ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء تضامت حتى صارت شيئًا واحدًا بأخرى ، انظر : الكشاف : ١ / ٦١ .

(٣) انظر : الأمثال في القران : ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٤) انظر : تفسير الرازي : ٢٣ / ٣٠ ، وتفسير البيضاوي : ٤٤٤ ، وتفسير النسفي : ٣ : ١٠١ .

والآية تصف الحالة النفسية والمعنوية لحال المشرك بالله ، وفي الصورة إشارتان إلى السقوط كلمة « خر » وكلمة « تهوي» و« السماء » التي خرّ منها : سماء الفطرة الهادية إلى معرفة الله . وهذا المعنى ليس بعيداً عن أفق الآية ، كما أنه ليس مبتور الصلة بما قاله البيانيون في معناها ، فابن المنير – رحمه الله – يفسر « السماء » التي خر منها « المشبه به » بأنها : الإيمان الذي عرفه [١] .

وقد وصف القرآن هذه الحالة النفسية – أعني مخالفة الفطرة الهاتفة بوجود الله ، وما يعقب هذه المخالفة من قلق وتمزق في صور كثيرة جداً من القرآن [٢] .

ولما بيّن تعالى – بطلان عبادة الكافرين ، وأنهم يعبدون من دون الله ما لا حجة لهم فيه ولا علم ، ذكر ما يدل على بطلان قولهم ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لايَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ، مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [٣] .

وبالرغم من أن المثل تَحَدٍّ من الله للبشرية كلها على أن يخلقوا ذبابة واحدة على ضعفها وحقارتها ، فإنه يتضمن تسفيه عقل من عبد الصنم الذي لايقدر على جلب نفع ولا دفع ضر [٤] ، فهم وأصنامهم لو اجتمعوا لم يقدروا على خلق ذبابة على ضعفها وصغرها ، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبوداً له [٥] . وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده ، وإعدام ما يضره ، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب ، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه ، فكيف ما هو أكبر منه ؟ ولكن لماذا اختار الأسلوب القرآني الذباب الصغير الحقير ، ولم يختر مثلاً الجمل أو الفيل؛لأن في العجز عن خلق الذباب في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل مثلاً ، دون أن يخل بالحقيقة في التعبير ، وهذا من بدائع البيان القرآني وأسلوبه العجيب .

ومما يدل على عجز آلهتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً ، أو استلبه ، فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه ، ولقد أثبت العلم الحديث أن الذباب إذا حط على طعام يتحول مباشرة إلى طاقة في جسم الذباب يعجز

---

(١) انظر : الانتصاف من الكشاف : حاشية الكشاف : ٣ / ١٥٥ .

(٢) منها قوله تعالى : « كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران » . الأنعام [٧١] .

(٣) الحج [٧٣ ، ٧٤] .

(٤) الإمام في بيان أدلة الأحكام : لوحة : ٢١ . (٥) انظر : تفسير الخازن : ٥ / ٢٧ .

المخلوق عن ردها منه،إذن فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله ؟ ثم سوى سبحانه بين العابد والمعبود في الضعف والعجز فقال : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ الطالب : العابد : والمطلوب : المعبود (١) .

والشيء المحير أن المشركين سووا بين من يخلق ذلك الخلق كله ، ومن لايخلق لا كبير ولا صغير ، وبإشراكهم بالله جعلوه من جنس المخلوقات العجزة ، شبيهًا بها ، وهذا ما لا يقول به عاقل ، ولهذا تناولهم القرآن بالتوبيخ في موضع آخر بقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لايَخْلُقُ ﴾ (٢) .

كلا !! والمراد منه أن من يخلق هذه الأشياء العظيمة ، ويعطي هذه المنافع الجليلة ، كيف يُسوى بينه ، وبين هذه الجمادات الخسيسة (٣) ، ولهذا قدم من يخلق على من « لايخلق » لشرفه كما ذكر الجرجاني (٤) .

قال ابن أبي الإصبع عن بلاغة هذا المثل : « ولم يُسمع مثل هذا التمثيل في بابه لأحد قبل نزول القرآن العزيز ، ولم يتناوله متناول من قبل » (٥) .

وفي اللحظة التي تفيض فيها مشاعر المتلقي بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة ، يندِّد القرآن بسوء تقدير المشركين لله ، ويبرز قوة الله الحق بأنه إله يستحق أن يعبد من دون هذه الآلهة العاجزة ، وفي ذلك من التقرير والتقريع في أشد المواقف خضوعًا لقوة الإله الحق ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ .

وهم – أي المشركين – في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرها فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات والحجج الباهرة – كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً من الأنعام ؛ لأنها تنقاد لمن يتعهدها ، وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها ، وتتجنب ما

---

(١) انظر : الأمثال في القرآن : ٢٤٩ ، وتفسير الخازن : ٥ / ٢٨ ، وتفسير ابن كثير : ٣ / ٢٣٥ ، غير أن ابن كثير فسر قوله : ضعف الطالب والمطلوب : الطالب : الصنم ، والمطلوب : الذباب ، وهو بعيد عن المعنى المراد .

(٢) النحل : [١٧] .

(٣) انظر : تفسير الرازي : ٢ / ١٢ ، والإيضاح : ٢ / ٢٦٢ ، والبرهان : ٣ / ٤٢٨ ، والتبيان : ٢٠١ ، ومفتاح العلوم : ٢٤٤ ، وتفسير البيضاوي : ٢٥٢ . واختلفوا في الآية منهم من جعلها من التشبيه المقلوب ، ومنهم من رفض وجوده في القرآن .

(٤) الإشارات : ١٩٢ .

(٥) انظر : تحرير التحبير : ٤٧٤ .

يضرها ، وهؤلاء لاينقادون لربهم ، ولايعرفون إحسانًا من إساءة [١] . قال تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [٢] .

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم لم يكتف بمناقشة المشركين في معارضتهم لوحدانية الله على الجانب الشعوري النفسي واستخدام البيان في ذلك ، ولكنه كثيرًا ما صرح في آياته بما هو دال على تاكيد وحدانية الله عز وجل ، وبطلان دعوة المشركين [٣] .

---

(١) من ذلك قوله تعالى : « أفي الله شك فاطر السموات والأرض » ، وقوله : « لو كان فيهما الهة إلا الله لفسدتا » وقوله : « قل هو الله أحد ... » .

(٢) الفرقان : [٤٤] .

(٣) انظر : الرازي : ٢٤ / ٨٦ ، وتفسير البيضاوي : ٤٨ ، وتفسير البيضاوي : ٢ / ٢٢٠ .

الفصل الثانى

الـحياة الدنيا وصور ها

* المؤمنــون
* الكافــرون
* المنافقـون
* اليهـــود
* المـــرأة

المبحث الأول

الحيـــاة الدنيـــا

يعتبر القرآن الكريم الدنيا موضعًا لامتحان الناس ، وأنها وسيلة للفوز بالسعادة في الحياة الأخرى ، وأن ما فيها من أرزاق ومشاغل ومتاع ولهو ولعب إذا ما قيس بالدار الآخرة.فالدينا محدودة عاجلة دانية ، أما الآخرة فهي العالية الخالدة ، الفائضة بالنعيم الذي لايزول ولاينقطع أبدًا ، ولهذا فإيثار الدنيا على الآخرة يعتبر حماقة ، وسوء تقدير ، ولايقدم عليه عاقل أو بصير .

ذلك لأن الحياة الدنيا مجرد زينة ، وكل ما فيها متاع قليل ، وحتى لايستغرق الناس فيها أعمارهم ، ويضيعون آخرتهم ؛ لينالوا منها بعض المتاع وهم لايشعرون ، صور لهم الحياة الدنيا قيمتها وزينتها ونهايتها ، ليتذكروا أنها وجدت للابتلاء لقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[1] .

ولايعني ذم القرآن الكريم للدنيا ، أو نهيه عن الاغترار بها أن غرضه من ذلك هو الفرار منها ، أو الانسحاب من ميدانها ورميها بعيدًا زهدًا فيها ؛ وإنما قصد القرآن الأساسي أن نعيش دنيانا لآخرتنا ، ونحياها مربوطة بمنهج الله ، فنظفر بدنيا سعيدة ، وآخرة أكثر سعادة ، فلا نزهد كلية في الدنيا لنربح الآخرة أو نقبل بكليتنا عليها فنخسر الآخرة ، ولكن نأخذ من هذه وتلك بلا إفراط ولاتفريط ، وهذه هي وسطية الإسلام التي نادى بها في القرآن الكريم[2] .

وقد استخدم القرآن الكريم التشبيه يصور به فناء الحياة الدنيا التي نراها مزدهرة أمامنا، مستمدًا عناصره من الطبيعة ، قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾[3] .

أي واضرب لهم مثل الحياة الدنيا، أو مثل متعة الحياة الدنيا، أو مثل زهرة الحياة الدنيا كمثل زرع [4]، ومراد الآية : تشبيه حال الدنيا في نضارتها وبهجتها ، وما يتعقبها من الهلاك

---

(١) الكهف [٧] .

(٢) كقوله تعالى : « ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب » البقرة [٢٠٠ : ٢٠٢] ، وقوله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد في الأرض إن الله لايحب المفسدين » القصص [٧٧] .

(٣) الكهف [٤٥] ، والهشيم : ما تفتت بعد اليبس من أوراق الشجر والزرع ، تذروه : تطيّره .

(٤) انظر : الإيضاح : ٢ : ٢٥٦ .

والفناء بحال النبات يكون أخضراً وارقاً ، بسبب اختلاط الماء به ، ثم يهيج فتطيّره الرياح كأن لم يكن ، ووجه الشبه مآلهما إلى الفناء[1] ، كقول الشاعر :

وما النـاسُ إلا كالديـارِ وأهلهـا   بها يوم حلوها وغدوها بلاقع [1]

لم يُرد تشبيه الناس بالديار ، وإنما أراد تشبيه حالهم مع الديار بحال الديار مع أهلها في سرعة الفناء والزوال بعد البهجة والنُّضرة [2] .

وذكر بعض البيانيين أن في الآية تشبيه مركب : شبه الدنيا بالماء ، ووجه الشبه أمران : أحدهما : أن الماء إذا أخذتَ منه فوق حاجتك تضررت ، وإذا أخذت قدر الحاجة انتفعت به وكذلك الدنيا . وثانيهما : أن الماء إذا أطبقت كفك عليه لتحفظه لم يحصل منه شيء ، فكذلك الدنيا .

ولم يرتض كثير منهم – أي البيانيين – هذا الرأي وقالوا : « ليس المراد تشبيه حالة الحياة الدنيا بالماء ولا بمفرد يتمحل لتقديره كما يظنه الجهلة المحرِّفون لكلام الله تعالى ، بل المراد تشبيه بهجة الدنيا في قلة البقاء والدوام بأنيق النبات الذي يصير بعد تلك البهجة والغضاضة والطراوة إلى ما ذكر [3] .

ووجه التشبيه في الآية هو التزهيد في الاعتماد على الحياة السريعة الزوال ، وترغيب الإنسان في ترك السعي لها ، فإن التحقير للشيء في سياق الوعظ والنصح يتضمن التزهيد فيه بعرف الاستعمال[4] . وليس معنى التزهيد في الحياة الدنيا هو رفض متاعها -كما سبق- أو صرف الناس عنه ، إنما المقصود هو الموازنة بين الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [5] .

واعتبر صاحب الطراز الآية السابقة من الاختصار العجيب ، والإيجاز البليغ في التشبيه ، يقول : « فانظر إلى ما اشتملت عليه هـذه الآية من أنواع التشبيهات أشياء بأشياء في معانٍ

---

(١) البيت قاله : لبيد بن ربيعة العامري أحد الشعراء المجيدين المعمرين أسلم وحسن إسلامه ، وله معلقة مشهورة . انظر : ديوانه : ١٦٩ . ط . بيروت وجمهرة أشعار العرب ٦٩ .

(٢) انظر : روضة الفصاحة : ٤٤١ .

(٣) انظر : الاشارات والتنبيهات : ١٨٦ ، وشرح التلخيص : ٤٩٧ ، وروضة الفصاحة : ٤٤٢ ، والإيضاح : ٢ : ٣٥٦ ، والبرهان ، والكشاف : ٢ : ٧٢٥ ، وبلاغة القران في اثار القاضي عبد الجبار : ٧٢٣ .

(٤) انظر : الإمام في بيان أدلة الاحكام لابن عبد السلام ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية . لوحة : ٢١ .

(٥) الأعراف [٣٢] .

وأوصاف بحيث لو فصلت لاحتاجت إلى شرح كبير ، مع اختصاصها بجزالة اللفظ ، وبراعة النظم ، وبلاغة المعاني ، والاختصار ، وحسن السياق »[١] .

ولعل السبب في ذلك أن القرآن الكريم يريد أن يصور للناس قصر هذه الحياة الدنيا التي تلهيهم عن الآخرة ، فيعرض المشهد قصيرًا خاطفًا ، ليلقي في النفس ظل الفناء والزوال ، فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولايسيل ، ولكنه يختلط به نبات الأرض ، والنبات لاينمو ولاينضج ، ولكن يصبح هشيمًا تذروه الرياح ، ويؤكد أحد الباحثين المحدثين ذلك بقوله : « وينتهي شريط الحياة كله في هذه الجمل الثلاث القصار ، وفي هذه المشاهد الثلاثة المتتابعة ، ألا ما أقصرها حياة !! »[٢] .

ويتفق التعقيب «بالفاء» في قوله ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ مع طريقة العرض التى تحقق السرعة المطلوبة ؛ لأن القرآن يريد أن يصور للناس قصر هذه الحياة الدنيا التي تلهيهم عن الآخرة .

ومثل هذا النص في المعنى والاتجاه نص آخر ، ولكنه يختلف في حلقة منه ، ليؤدي غرضًا آخر هو تحقير أمر الدنيا ، وإذا كان القرآن قد أوجز في التشبيه الأول ، فإنه يطنب هذه المرة ؛ ليستقر معناه في النفس ، ويحدث أثره في القلب ، وهذه ضرورة من ضرورات البيان القرآن ، قال تعالى موهنًا أمر الدنيا ومحقرًا لها : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾[٣] .

ومما يؤكد أمر الدنيا وحقارتها تصوير القرآن لها باللعب واللهو والزينة والتفاخر ، ولاشك أن هذه الأشياء أمور محقرة بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر الأحياء ، فهي إما عذاب شديد دائم ، أو رضوان من الله على سبيل الدوام[٤] ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ، ونعمة زائلة[٥] ، فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ ، والكفار هنا هم الزراع . شبه حال الدنيا ، وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات

---

(١) انظر : الطراز : ١ : ٢٧٦ .

(٢) انظر : التصوير الفني للقرآن : ١٢٩ ، وفي ظلال القرآن : ٤ / ٢٢٧ .

(٣) الحديد [٢٠] .

(٤) انظر : التفسير الكبير للرازي : ٢٩ : ٢٢٣ . بتصرف يسير .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير : ٤ : ٣١٢ .

أنبته الغيث فاستوى ، وقوي وأُعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله ، فيما يرزقهم من الغيث ، والنبات ، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر ، وصار حطامًا ، عقوبة لهم على جحودهم[١] .

وفي اختيار لفظ الكفار في الآية على الزراع تورية وإشارة خفية إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا ، ذلك لأنهم أحرص شيء عليها ، وأميل الناس إليها . وصورة المثال المبدع أن الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ثم تكتهل ثم تكون عجوزًا شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه.غضًا طريًا ، لين الأعطاف بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ، ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشيء اليسير ، وتصيبه النوائب في ماله وذريته ، ويموت ويضمحل أمره ، ويصير ماله لغيره ، فأمره مثل مطر أصاب أرضًا ، فنبت عن ذلك الغيث نبات معجب أنيق ، ثم هاج : أي يبس واصفر ، ثم تحطم ، ثم تفرق بالرياح واضمحل[٢] . ﴿ فَيَكُونُ حُطَامًا ﴾ وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة الحية بمشهد الحطام .

ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ، ورغب فيما فيها من الخير ، فالآخرة لها شأن آخر غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يلتفت إليه ، ويستعد له ، لهذا قال : ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أي ليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ : أي هي متاعٌ فانٍ ، غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها ، وتعجبه حتى يعتقد أن لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة[٣] .

ألم يصفها القرآن بلعب الصبيان ولهو الشباب وزينة النساء ؟ ! وعلى المؤمن أن يستعلي على غرورها الفاتن ، ومتاعها الزائل ، وليس الغرض من ذلك إهمال عمارة الحياة الدنيا ، ولكنه ينعى على الأحياء أن يرضوا بها ، أو يقفوا عندها ، ولايتطلعون منها إلى ما هو خير وأبقى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

فمن صرف حياته في غير طاعة الله فحياته مذمومة ، ومن صرف حياته في طاعة الله ، فحياته خير كلها ، وإلا فهي غارة لمن أقبل عليها ، وأعرض بها عن طلب الآخرة .

---

(١) انظر : تفسير النسفي : ٤ : ٢٢٧، نقلاً عن الكشاف للزمخشري : ٤ : ٦٥ ، وتفسير البحر المحيط : ٨ : ٢٢٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير : ٤ : ٣١٢ ، وتفسير البحر المحيط : ٨ : ٢٢٢ .

ويذكر أستاذنا الدكتور فتحي عامر أن المعاني الثواني في الآية كثيرة ومتعددة منها : «تحقير حال الدنيا ؛ لأن اللهو واللعب والزينة والتفاخر أمور ما أحقرها في حقيقة الأشياء وتعظيم حال الآخرة ، لأنها بين العذاب أو الثواب ، وهما أمران عظيمان ، وأن الحياة الدنيا حكمة وصواب ، ولم تخلق للعبث والمهاترة ، فوراء خلقها معان وأهداف وغايات ، وتلك المعاني تحتاج إلى فكر ونظر وتأمل في سر هذا الوجود [١] .

ويمكن أن نضيف إلى هذه المعاني الثوان معانيا أخر هي أن هذه الحياة الدنيا مثل دورة الزرع مصيرها إلى فناء وزوال ، فلا تجعلها تغرك عن الله ، ولاتبعدك عن منهجه ، فهي مثل دورة الزرع ستنتهي إلى لا شيء [٢] .

وفي ملاحظتنا أن الله تعالى يقدم اللعب على اللهو في أكثر آيات القرآن [٣] ، وقدّمَ اللهو على اللعب في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [٤] ، فما وجه التقديم والتأخير في هذه الآيات ، وما الحكمة من ذلك ؟

قُدِّمَ اللعب في الآيات السابقة ؛ لأنه يكون في زمان الصبا ، وأُخر اللهو ؛ لأنه يكون في زمان الشباب ، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب ، ولذلك جاء الترتيب كما ذكر في الآية السابقة ﴿ واعلمُوا أنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ .... ﴾ أي لعب كلعب الصبيان ، ولهو كلهو الشباب ، وزينة كزينة النساء ، وتفاخر كتفاخر الإخوان ، وتكاثر كتكاثر السلطان ، فهي حياة قصيرة تنقطع في أسرع وقت [٥] .

وأما تقديم اللهو على اللعب في قوله : ﴿ وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فالمراد بذكر اللهو – هنا – ذكر زمان الدنيا ، وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ أي الحياة الدائمة التي لا موت فيها ، والتي لا نهاية لأمدها ، فبدأ بذكر «اللهو» ليكون في مقابلة الحياة الآخرة في نهاية الآية ليتكامل التناسق ، ويأتلف التعبير في الآية الكريمة ، وهو مقصد من

---

(١) انظر : المعاني الثانية في نظم القرآن : ٣٠٧ .

(٢) انظر : معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي : ٢ / ٢٧٧ . ط . مكتبة تهامة : الرياض .

(٣) من ذلك قوله تعالى : «وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون» الأنعام : ٣٢ ، وقوله : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولايسئلكم أموالكم» محمد : ٣٦ ، والآية التي نحن بصدد الحديث عنها . الحديد [٢٠] .

(٤) العنكبوت [٦٤ .

(٥) انظر : تفسير النسفي : ٤ : ١٥٥ .

مقاصد البيان في القرآن ، ولفظ «الحيوان» مصدر كالحياة ، وهي مبالغة في معنى الحياة [١] .

ويتكرر ضرب المثل في الدنيا لمن يبغي في الأرض ، ويغتر بها ، ويشتد تمسكه بها ، ويعتقد أنها دائمة ، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة ، والتأهب لها ، ويقرّب لنا القرآن الصورة – أيضًا – بشيء حسي نراه كل يوم ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢] .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ : والمثل هنا يحتمل أن يراد به الصفة ، وأن يراد به القول السائر المشبه به حال الثاني للأول [٣] ويزعم بعض الباحثين أن المثل صورة من صور القصر بـ «إنما» [٤] ، غير أن الأندلسي – وهو فارس من فرسان النحو – يرى أن «إنما» هنا ليست للحصر لا وضعًا ولا استعمالاً ؛ لأنه – تعالى – ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا المثل [٥] ، وهذا ما يرجحه الباحث .

وقد جعل بعض البيانيين الآية من تشبيه المركب بالمركب ، وهذا في نظرهم من أسباب بُعد التشبيه وغرابته ، وكلما كان التركيب خياليًا كان أو عقليًا من أمور أكثر في أوصاف التشبيه ، كان حاله في البعد والغرابة أدخل وأقوى وأعجب [٦] . فشبه – سبحانه – حال الدنيا العجيبة الشأن في سرعة تقضيها ، وانقراض نعيمها بعد الإقبال ، واغترار الناس بها ، بحال ماء نزل من السماء ، وأنبت أنواع العشب وزين بزخرفه وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة ، حتى إذا طمع فيها أهلها ، وظنوا أنها مسلّمة من الجوائح ، أتاها بأس الله فجاة ، فكان كان لم تغن بالأمس ، تحقيرًا للدنيا ، وبيان سرعة فنائها ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن كل فان حقير وإن طال أمده ، وصغير وإن كبر قدره [٧] .

---

(١) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ٣ : ١١٩ ، وتفسير النسفي : ٢ : ٢٦٣ ، ومعترك الأقران : ٢ : ٢٤٤ ، وصفاء الكلمة في القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين :ص ٧٠ طبع : دار المريخ الرياض .

(٢) يونس [٢٤] . (٣) انظر : البحر المحيط : ٥ : ١٤٠ .

(٤) يقصر فيها موصوف هو الحياة الدنيا بعدة صفات عارضة طارئة ، لاتلبث أن تتلاشى وتزول فإذا الحياة يلفها العدم . ذكره أستاذنا الدكتور عامر في المعاني الثانية : ١٥٧ .

(٥) انظر : البحر المحيط : ٥ : ١٤٠ .

(٦) انظر : مفتاح العلوم : ٣٥٢ ، وجوهر الكنز : ٦١ ، والبحر المحيط : ٥ : ١٤٠ ، والدر المصون : ٦ : ١٧٧ ، والفوائد المشوق :   ، والطراز للعلوي : ١ : ٣٦٢ .

(٧) انظر : التبيان في علم المعاني والبديع والبيان : ٢٠٥ ، وتفسير البيضاوي : ٢٧٧ ، والبرهان للزركشي : ٢ : ٤٢١ .

وواضح أن التركيب في الآية جاء أكثر تفصيلاً مما سبق – وهذا ما زاد في حسنه ، وحال دون تركه ، قال الطيبي : « إن من أحوال التشبيه أن يكون التشبيه تفصيليًا ؛ لأن المجمل أسبق إلى النفس ، والشيء بعد الطلب أعزُّ من المنساق بلا تعب ، ومنه قول بشار :

كأن مُثَارَ النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُه [1]

وذلك أنه شبه الهيئة الحاصلة من هُوِي أجرام مشرقة مستطيلة ، متناسبة المقدار ، متفرقة في جوانب شيء مظلم ، بليل سقطت كواكبه [2] .

فالآية في نظمها – إذن – مشتملة على عشر جمل ، كلُّ واحدة منها على حظ من التشبيه ، ثم يكون التشبيه إيضاحًا حاصلاً من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، فإنك لو حذفت منها جملة واحدة اختل نظم التشبيه الذي قصد فيها [3] .

ويدرك ابن الأثير كما أدرك البيانيون قبله أن الآية تشبيه صورة بصورة ، وهو من أبدع ما جيء في بابه ، ووافقه في ذلك ابن القيم الجوزية ، غير أن الزركشي يرى أن الصورة التشبيهية في الآية هي إخراج ما لم تَجْرِبِهِ العادة إلى ما جرت به العادة ، والجامع البهجة والزينة ثم الهلاك وفيه العبرة [4] .

والملاحظ أن الزركشي أخذ هذا المعنى عن الرماني دون أن يدره في فكره ، أو يوجه عليه الآية ، ثم يمضي عنا ويتركنا في معمعة لا طائل وراءها ، ولذلك فالباحث يضم صوته مع أستاذه الدكتور رجاء عيد في قوله : « إنه لايكفي أن يقال في هذه الآية إنه إخراج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة ، وقد اجتمع المشبه والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك وفيه العبرة ، لأن مثل هذا الاختزال يطفيء كل الألوان التي تزخر بها الصورة التشبيهية في تعانقها وتداخلها مع التركيب اللغوي في الآية ، ويضيع شيء كثير من هذه الصورة الحركية في نزول المطر ، واختلاط نبات الأرض به ، وما ينتج من نماء الحياة فيه [5] .

ويبدو أن أستاذنا الدكتور عيد تأثر بكلام الرازي القائل : « والآية صورة حركية يتلو بعضها بعضًا من نزول المطر ، واختلاط نبات الأرض به ، ونماء الحياة فيه ، ثم يأخذ هذا النماء صورًا متعددة بعد أن خرج من الأرض فيربو فوقها ، ويصبح زينة في نفسه ، وزينة للأحياء فوق الأرض ، ثم سلبت فجاة من مالكها »[6] .

---

(١) البيت في ديوانه : ٢١٨ .
(٢) انظر : الدر المصون : ٦ : ١٧٧ ، ومفتاح العلوم : ٥٦٤ ، والإيضاح : ٢ : ٢٢٧ ، والطراز : ١ : ٢٩١ .
(٣) انظر : شرح التلخيص : ٥٢٨ ، والإيضاح : ٢ : ٢٧٨ .
(٤) انظر : البرهان للزركشي : ٣ : ٤٢١ .
(٥) انظر : في البلاغة العربية . أ.د. رجاء عيد : ١٢٨ .
(٦) انظر : التفسير الكبير للرازي : ١٧ / ٧٢ .

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ : جُعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون ، وتزينت بجميع الألوان الممكنة في الزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض ، ولا شك أنه متى صار البستان على هذا الوجه ، وبهذه الصفة ، فإنه يفرح به المالك ، ويعظم رجاؤه في الانتفاع به ، ويصير قلبه مستغرقًا فيه ، ثم تسلب منه فجأة [1] .

ذلك بسبب أمر الله الذي أتاها ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ هكذا « أتاها » أمر الله ، يدب ويمشي على الأرض ، ويكون هذا الإتيان ليلاً أو نهارًا ، ليوقظ الوجل في الإنسان أمام هذا الغيب المجهول . وأمر الله قد يكون صاعقة أو ريحًا باردة ، أيبست أوراقها ، أو أتلفت ثمارها ، وجعلتها «حصيدًا» [2] . (الناس والأنعام والزخرف والزينة) جميع ذلك يصبح حصيدًا ، وكأن الأرض لم تغن بالأمس .

« وكأن الأرض لم تغن بالأمس » : مبالغة في التلف والهلاك ، حتى كأنها لم توجد قبل ، ولم تقم بالأرض بهجة خضرة نضرة ، تسر أهلها [3] تجردت بعد أن كانت مزهوة بزينتها كالعروس ، وأخذ صاحبها يضرب أخماسًا في أسداس ، فقد كانت لامعة «بالأمس» ، منذ سويعات قليلة كانت بهجة ونورًا وجمالاً ، ثم ماذا ؟ «تصبح يد صاحبها صفراً منها ، وهكذا حال الدنيا والواثق بها » [4] .

ولما كانت هذه الحياة الدنيا عرضة لهذه الآفات ، والجنة سليمة منها ، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ ، وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [5] ، فسماها «دار السلام» لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا ، فعم بالدعوة إليها ، وخص بالهداية من شاء ، فذاك عدله ، وهذا فضله [6] .

وفي الآية زيادة على ما ذكره البيانيون دلالة تربوية اعتبرها أستاذنا الدكتور / فتحي عامر لونًا من التربية النفسية للنفس الإنسانية ، ورياضة نفسية تكسب صاحبها عادات طيبة ، ومهارة ممتازة ، وتبعده عن شبح الندم الذي يلازم حال القصور أو التقصير .... وتعلم الناس كيف يأخذون نصيبهم من الدينا ، وكيف يستغلون أعمارهم القصيرة ، وكيف يزنون بدقة كل

---

(١) المصدر نفسه ، والأمثال في القرآن لابن القيم : ١٨٥ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢ / ٤١٣ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٥ / ١٤١ .   (٤) انظر : الأمثال في القرآن : ١٨٥ .

(٥) يونس [٢٥] .

(٦) انظر : اعلام الموقعين : ١ / ١٨٢ ، والتفسير القيم : ٢٠٥ ، والأمثال في القرآن : ١٨٦ .

شيء من الطيبات لضمان ما في اليوم ، وما في الغد ، وما بعد الغد من المستقبل القريب والبعيد[١] .

وربما يحق للقارىء في ضوء هذه المشاهد الثلاثة التي تكررت حول معنى واحد ، ومزجت بين عناصر مشتركة – أن يتساءل ، لماذا لم يكتف البحث بنموذج واحد دال على المعنى المراد ، وكفانا مؤونة التكرار ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقول : بالرغم من تكرار الصور والمشاهد عن الحياة الدنيا ، فإنه في كل تكرار صورة تختلف اختلافًا يسيرًا عن الأخرى ، ففي المثل الأول من سورة الكهف ، جاءت الصورة خاطفة ومركزة وموجزة لبداية الحياة الدنيا ونهايتها ، وفي المثل الثاني من سورة الحديد ، فإنه يتحد مع المثل الأول في قصر الحياة الدنيا ، غير أنه أطال عرض شريط الحياة الدنيا كما يراها الكفار ، ليقول لهم إن هذا الذي تعجبون به ، وتستطيلون أمده إنما هو في حقيقته قصير زائل ، أما المثل الثالث من سورة يونس ، فقد أعطانا شيئًا من التفصيل لما يمكن أن يحدث بالنسبة لعمر الحياة على الأرض ، وهذا التفصيل جاء بعد إجمال مما زاد في حسن الصورة ؛ لأن المجمل أسبق إلى النفس ، والشيء بعد الطلب أعز على النفس من المنساق بلا تعب ، كما ذكر البيانيون .

ويبدو لمن ينعم النظر في هذه الأسباب بعض العذر في ذكر هذه الأمثال والنماذج برمتها ، بالرغم من أنها تبدو للناظر نظرة عجلى تكرار صورها ، ولعل ما يعزز رأينا ما ذكره الأستاذ سيد قطب في التصوير الفني من مجيء هذه الشواهد مرة قصيرة مجملة ، وأخرى طويلة مفصلة ، حيث يقول : «بعض هذه الصور يمر سريعًا خاطفًا ، وبعضها يطول ويطول ، وبعضها حافل بالحركة ، وكل أولئك يتم تحقيقًا لغرض خاص يتسق مع الغرض العام للقرآن ، وللقصر وسائل مختلفة ، وللطول وسائل شتى ، يؤدي كل منها الغرض ، ويناسب جو المشهد ... وإن يكن للتكرار غرض في صدر الدعوة ولكنه مع هذا يسير مع الجمال الفني بالتنويع الدقيق الملحوظ[٢] .

ولايقتصر التأييد من قبل المحدثين ، بل وللقدامى رأيهم الذي لايغض من شأن التكرار ، فهذا هو ابن عبد السلام – عليه رحمة الله – يرى أن التكرار يدل على الاعتناء والاهتمام بالمكرر ، وسره البلاغي : الاهتمام والإيضاح والبيان ، وتكرير الأمثال يدل على الاعتناء والإيضاح والبيان[٣] . والملاحظ أن جميع الآيات التي تناولها البيان القرآني للحياة الدنيا في حدود معرفتنا – هي من الأمثال القرآنية .

---

(١) انظر : المعاني الثانية في النظم القرآني : بتصرف يسير : ١٥٨ / ١٥٩ / ١٦١ .
(٢) انظر : التصوير الفني للقرآن الكريم : ١٢٩ ، ١٣٠ .
(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : ٢١٧ – ٢١٨ .

ومن الملاحظات التي ينبغي ألا تُغفل ، والتي لفتت نظرنا فيما ذكر من الأمثال القرآنية [1] للحياة الدنيا – هي مزج القرآن لعناصر ثلاث (الماء – الأرض – النبات) والسر في ذلك أن أصل الحياة جاء من الماء ، وعوامل استمرارها خلقها الله ، ووضعها في الأرض ، والأرض تأخذ زينتها وتعطي من استمرار مد السماء لها بالحياة ، أو مد الله لها بالحياة ، وهذه الصور من المشاهدات التي تقع كل يوم ، ويمر عليها الناس دون وعي أو انتباه . ولم يشر أحد من القدماء إلى هذا الملحظ سوى الرازي وابن كثير ، وكانت إشارتهما من طرف خفي ، وجاءت على استحياء [2] .

هذه هي الحياة الدنيا كما وصفها القرآن الكريم ، والتي سماها بالعاجلة [3] ، ولاشك أن القرآن فضل الآخرة على الدنيا فقال : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كما أن للاعتقاد بحياة أخرى أفضل من الحياة الدنيا أثر كبير على المؤمنين [4] .

بعد هذه الحياة الدنيا تقوم الساعة ، وتبدأ أحداث الآخرة ، والدار الآخرة في القرآن تشكل سلسلة متتابعة المراحل ، تبدأ منذ اللحظة الأولى التي يتحدد فيها يوم القيامة ، وتنتهي إلى مرحلة المصير الأبدي ، وهذه المراحل بتتابع أحداثها تشكل وصفًا كاملاً لما تكون عليه الدار الآخرة .

وهذا ما سنحاول إبرازه في الفصل الأخير من هذا الباب

---

(١) ويضاف إلى ما ذكرناه قوله : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرًا ، ثم يجعله حطامًا إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب » . الزمر [٢١] .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٧٥/١٧ ، وتفسير القرآن العظيم ٣٩١/٢.

(٣) قال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا » . الإسراء [١٩ ، ٢٠] .

(٤) لأن ذلك قد يدخل العزاء للنفوس المعذبة التي أصابتها مصائب الحياة ، كما أن هذا الاعتقاد يمد المؤمنين بقوة روحية تجعلهم لايبالون بما يصادفون من خيبة أمل أو فشل ذريع في بعض شئون الحياة .

المبحث الثاني

انماط وصور بشرية في الحياة الدنيا

جاء القرآن الكريم ليغير مجتمعًا تفشت فيه الرذيلة ، وكان لابد أن يكون له تأثيرات شتى على الناس ، فمنهم المؤمنون وهم الذين استجابوا له ، ومنهم الكافرون المكذبون ، وهم الذين أعرضوا عنه ، ومنهم المنافقون الذين ترددوا في إعلان هويتهم الإيمانية ، وكانوا مطية سهلة لليهود الذين مكروا لدعوة الإسلام . ولقد تناول القرآن هذه النماذج جميعًا في مختلف أوضاعها ومواقفها من الدين الجديد ، ولهذا فما تزال هذه النماذج التي تناولها القرآن خالدة حتى وقتنا الحاضر .

وهنا يجيء سؤال لابد منه . ماذا يريد القرآن من تصوير هذه النماذج البشرية؟إنه يريد أن يقدم خُلقًا معينًا له أثره في الدعوة إلى الإسلام ، قوم سادوا فاندفعوا به إلى الأمام ، وقوم كادوا وعّوقوا المسيرة من الوصول إلى غاياتها المحددة ، ولاشك أن هذه النماذج قد أثير حولها جدل كلامي ، فكان لابد إذن للقرآن أن يقول كلمته ، وأن يفضح مخاصمي الدعوة ، وينير السبيل أمام الموالين لها ، ولهذا اضطلع القرآن بتصوير هذه النفسيات ليعرّيها بغية الوصول إلى هدفين :

أولهمـــا : شد أزر الدعوة ، وتوضيح الطريق ، ومعرفة موقف المدعوين من الدعوة هل هم معها أم عليها ؟

وثانيهما : نشر الوعي بالأخلاق ؛ لأنه في كشف النفسيات المستقيمة والمنحرفة توجيه للمجتمع نحو الخلق الكريم الذي يهدف إليه الإسلام .

والعجيب أن هذه النماذج هي نماذج عصر نزول القرآن ، كما هي نماذج عصر الذرة والهبوط على سطح القمر ، ذلك لأنها دائمة التكرار والحدوث على مدى الأزمان . ولهذا رأينا أنه من الضروري تتبع بعضها بالتحليل البياني ، مصدرنا الأول في ذلك هو القرآن الكريم ، ومصادرنا الثانية هي أقوال البيانيين ، وما أثاروه حول الآيات التي تناولتهم ، هادفين من وراء ذلك توضيح أحد الجوانب البيانية التي استخدمها القرآن كسبيل لمواجهة المجتمعات المختلفة وموقفها من دعوة القرآن .

ولاندعي أن ما نقوم به في عرض النماذج البشرية ، يجيء على سبيل الحصر ، وإنما قصدنا إلى تقديم بعض الأمثلة الدالة التي تناولها البيانيون ، والتي نجد لها نظائر كثيرة من القرآن ، غير أن البيانيين لم يتناولوها ضمن مباحثهم .

[١]

المؤمنـــون

وأول النماذج البشرية التي تلقانا على صفحات القرآن الكريم هم المؤمنون ، أو نموذج الإيمان ، ويلحظ الباحث أن كلمة الإيمان ومشتقاتها ترددت في القرآن الكريم أكثر من ستمائة وستين مرة [١] ، لتؤدي الأهداف التي قصد إليها القرآن من إحداث مجتمع جديد ، أساسه الإيمان بالله ، والتصديق بما أتى به محمد ﷺ ؛ والقرآن يجعل الإيمان مفتاحاً لتكوين مجتمع عقيدي ، ولذلك فالمؤمن يتميز بكثير من الصفات المضيئة التي تميز صورته ، وتحدد علاقته بين الله والناس ، وخصص القرآن سورة كاملة سميت باسمهم [٢] .

وهاهي سورة البقرة أول ما نزل من القرآن في المدينة ، يتصدرها هذا النموذج المتمايز ، يقول تعالى : ﴿ الٓمٓ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِم وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٣] .

والآيات التي بين أيدينا تكاد تكون تعريفاً كاملاً للمؤمنين بالرغم من أنها قصدت تعريف المتقين ، فالتقوى ربما كانت درجة تفوق الإيمان ، لأنها تعني الإيمان بالغيب ، وما أُنزل على محمد ﷺ ، وعلى الرسل من قبله ، والإيمان بالآخرة ، ثم إقامة الصلاة ، وهذه كلها علاقات تربط المؤمن بربه ، ثم الإنفاق من الرزق ، وهو ما يربط العبد بأخيه الإنسان ، وتلتقي هذه الآيات مع نظيراتها من سورة « المؤمنون » .

والإيمان في القرآن لايقتصر على الإيمان بالله ، فالإيمان به يقتضي الإيمان بكل ما وجّه الإنسان إلى الإيمان به ، من الرسل والكتب المنزلة عليهم ، والإيمان باليوم الآخر ، وكل ما يتصل بالغيبيات [٤] ، وسنفرد للدار الآخرة وما يتصل بها من غيبيات مبحثاً مستقلاً في هذا الباب .

---

(١) انظر : المعجم المفهرس مادة أمن .

(٢) انظر سورة المؤمنون الآيات من [١ : ١١] والتي حدد فيها صورة المؤمن وأخلاقه التي تعتمد على الممارسة والسلوك العمليين . (٣) البقرة [١ : ٥] .

(٤) والإيمان بالغيبيات مظهر كبير للإيمان ، ذلك لأن الإنسان من السهل أن يؤمن بالمحسوس ، لأن أبسط وسائل المعرفة هي رؤية العين أو لمس الجسد ، أما الغيبيات ، ومنها مصير الإنسان يوم القيامة ، فمن الصعب أن يؤمن بها الإنسان إلا إذا كان مؤمناً حقاً ، ولذلك يؤكد القرآن في كثير من آياته على الإيمان باليوم الآخر .

ومن حق الآيات علينا أن نتناولها من الناحية البيانية على جهة التفصيل ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ : قال ابن المنير : لِمَ صحت الإشارة بـ « ذلك » إلى ما ليس ببعيد ؟

قال : لأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة ، وبعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواه [١] . وكلام ابن المنير يتفق إلى حد كبير مع كلام شيخه عز الدين بن عبد السلام القائل : «أشار بـ «ذلك» إلى البعيد من المكان والزمان حقيقة ، وشبه به البعد في الرتبة ، فتكون الإشارة بـ «ذلك» إلى القرآن لعلو مرتبته ، وشرف قدره ، واستدل على ذلك بقول النسوة في حق يوسف – عليه السلام – ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ ، فاشرن إليه إشارة القريب ؛ لأنه لم يعلُ عندهن في الرتبة ، كما علت رتبته عند زليخا ، وعظم لديها ، والتي أشارت إليه بـ «ذلك» ، إشارة البعد المفرط ، فقالت : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [٢] .

وبالرغم من الاتفاق في توجيه «ذلك» بين الشيخ وتلميذه ، إلا أن الرازي – وهو سابق عليهما – له توجيه آخر قال في تفسيره : «ذلك» : إشارة إلى تلك السورة التي نزلت قبل هذه السورة ، وقد يُسمى بعض القرآن قرآنًا ، لقوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [٣] . وفي نظرنا أن توجيه الرازي جاء بعيدًا عن المراد ، ويرجح لدينا التوجيه السابق لدقته وشموله .

ويكمل ابن عبد السلام توجيهه للآية فيقول : والكتاب بمعنى المكتوب ، وهو مصدر سمي به المفعول ، ووقت نزوله على الرسول ﷺ لم يكن مكتوبًا ، مع أنه قد أطلق عليه «مكتوب» حالة الإنزال ، فوصفه بذلك : إما باعتبار ما يؤول إليه ؛ لأنه كتب في المستقبل ، أو باعتبار ما كان عليه في اللوح المحفوظ ، وهذا هو الصحيح ، لأنه في الصحيح أن الصحابة لما دعوا إلى كتابته امتنعوا ، وكرهوا ذلك ، ولو فهموا عن الله أنه مكتوب باعتبار المستقبل لما امتنعوا ، فدل ذلك على أنهم فهموا أنه مكتوب باعتبار ما كان عليه [٤] .

أما قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، يقول السمين : (و«في» معناها الظرفية حقيقة أو مجازًا نحو : زيد في الدار ، «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ» ، ولها معان أخر) [٥] ، تجوز بالحرف

---

(١) انظر : الانتصاف من الكشاف بهامشه : ١ / ٢٨ .

(٢) يوسف : بعض آية [٣٢] ، وانظر : الإشارة إلى الإيجاز / ٦٤ .

(٣) الأعراف [٢٠٤] . وانظر : التفسير الكبير للرازي : ٢/١٢ .

(٤) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٦٦ .

(٥) منها المصاحبة كقوله تعالى : « ادخلوا في أمم » والتعليل كقوله ﷺ «إنّ امرأة دخلت النار في هرة» ، وموافقة «على» «لأصلبنكم في جذوع النخل» والباء لقوله : «يذرؤكم فيه» أي بسببه ، والمقايسة نحو : «فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة» . انظر : الدر المصون : ١ : ٨٧ ، ٨٨ .

«في» في جعل الكتاب ظرفًا لتعلق الريب لا لنفس الريب ، فإن الريب حال في المرتاب [١].

وقد أورد البيانيون في الآية سؤالين . الأول : كيف يقول : «لاريب فيه» وقد وقع الريب فيه من أهل الملل ؟ والثاني : أن الريب في المرتاب ؛ لأن الريب : الشك وهو في الشاك ، لا في المشكوك فيه ، ونفيه عن الكتاب يستلزم صحة وقوعه في الكتاب وليس كذلك ؟ وأجاب ابن عبد السلام عن السؤال الأول بقوله : «يجوز أن يكون عامًا مخصوصًا بأهل الكفر ، أو على حذف مضاف تقديره : لا سبب ريب فيه ، يعني من الركاكة والعي ، والتناقض والاختلاف ، أو يكون خبرًا بمعنى الأمر ، كقوله : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾[٢] أي : لاترفسوا ولا تفسقوا . وأجاب عن الثاني بقوله : إن معنى قولنا : ارتبت في كذا : شككت فيه واحترت فيه ، وأكثرت النظر فيه [٣] .

﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ : قال صاحب التبيان : «المتقي مهتد ، بل هو هدى للضالين ، الذين سيصيرون مهتدين ، كقوله ص : «من قتل قتيلاً فله سلبه» [٤] . وعلى هذا الكلام عند الطيبي «أن الآية هدى لمن يؤول إلى المتقين مجازًا ، ورد العز بن عبد السلام هذا القول ، واعتبر الآية حقيقة فقال : «لا بل هدى للذين اتقوا العذاب بإيمانهم ، فهو يهديهم في فروع الدين دون أصوله ، ويكون الكلام – على ذلك – حقيقة» [٥] .

والقرآن الكريم يؤكد على اكتمال صورة المؤمنين وتحديدها ، وتفصيل صفاتهم وأخلاقهم ، ذلك لأن الصورة الظاهرية للمؤمنين تعتمد على الممارسة والسلوك العمليين والإيمان لايتحقق إلا بالشمولية المطلقة ، ولايقبل من أحد أن يؤمن ببعض ما أنزل على الرسول ، ويكفر بالبعض الاخر ، كما لايقبل الإيمان بما أنزل على موسى أو ما أنزل على عيسى عليهما السلام ، ثم الكفر بما أنزل على محمد ﷺ الذي لم يأت إلا تصديقًا وتكميلاً لما أنزل على الرسل من قبله ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ، وجعل ابن أبي الإصبع الآيتين من باب صحة الأقسام [٦] . والجماعة التي تتصف بهذه الصفات جماعة عظيمة حقًا ، ومن ثم كان هذا التقرير .

---

(١) انظر : فوائد في شكل القرآن : ٦٧ . (٢) البقرة [١٩٧] .

(٣) انظر : فوائد في شكل القرآن : ٦٩ .

(٤) انظر : التبيان في علم المعاني والبديع والبيان ٢٢٣ .

(٥) انظر : فوائد في مشكل القرآن : ٧٠ . (٦) انظر : بديع القرآن : ٧٠ .

﴿ أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِم ﴾ ، وهذه الآية أيضًا – من مجاز التشبيه ، شبه التمكن من الهدى ، والأخلاق العظيمة الشريفة ، والثبوت عليها وتمسكهم بها بمن علا على دابة ، يصرِّفها كيف يشاء[١] . وكلمة «على» توحي هنا – بأن المهدي كأنه مرتفع متطلع ، ونظيره : فلان على الحق أو على الباطل ، وقد صرحوا بذلك في قولهم : جعل الغواية مركبًا ، وامتطى الجهل ، واقتعد غارب الهوى[٢] .

ولم يقتصر القرآن الكريم على الوصف الظاهري للمؤمنين ، ولكنه يصور الإيمان مجسدًا في نفوسهم ؛ ليضع الصورة الواضحة عن نفسياتهم أمام الذين لم يؤمنوا ليقتنعوا بضرورة الإيمان ، وأمام المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ، وليصل هذا الهدف إلى مختلف النفسيات والعقليات ، استخدم القرآن فنون الأداء التعبيري والبياني .

وهذا نموذج من النفسية المؤمنة ، نلمس فيها جانبها العاطفي ، فكلما ذكر اسم الله أمامهم وجلت قلوبهم ، وأحست بقشعريرة استعظامًا له وفزعًا إليه ، وكلما قرىء عليهم القرآن ازدادوا إيمانًا ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٣] . إنه نموذج للنفسية الصافية غير المعقدة ، نفسية المؤمن التي تعتمد في إيمانها على التعلق بربها والتوكل عليه ، وهذا الإيمان يتجدد بين حين وآخر .

قال الرازي : « وزيادة الإيمان الذي هو التصديق – يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله – معناه أنهم كلما سمعوا آية جديدة ، أتوا بإقرار جديد ، فكان ذلك زيادة في الإيمان والتصديق »[٤] . فالزيادة إنما وقعت في مراتب الإيمان ، وفي شعائره ، فصح القول بوقوع الزيادة في الإيمان مجازًا في الإثبات ، ونسبت الزيادة التي هي فعل الله إلى الآيات لكونها سببًا فيها[٥] .

وفي القرآن صورة أخرى رائعة للمؤمنين تمزج بين سلوكهم وخلقهم وطبعهم ، في غير ما حاجة إلى بيان ؛ لأنها تقدم الصورة بأسلوب شيق بليغ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا

---

(١) انظر : الفوائد المشوق : ٦٩ .

(٢) تفسير الرازي : ٢٣/٢ ، وتفسير النسفي : ١٤/١ .

(٣) الأنفال [٢] . (٤) تفسير الرازي : ١٥ : ١١٨ .

(٥) انظر تفصيل ذلك في : الإيضاح : ١ : ١٠٤ ، وشرح التلخيص للبابرتي : ١٨٥ ، وبديع القرآن : ١٧٦ ، والمطول للسعد : ٦٢ ، وتفسير الرازي : ٩ / ١٠٠ .

يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (١) .

وتوقف البيانيون ، فذكروا أن قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ مجازًا ، من إطلاق اسم الخشية على المخشي ، فتكون معنى الآية : هم من عقوبة ربهم خائفون (٢) .

وهذه صورة أخرى تميز النموذج المؤمن ، الذي يدفعه الخوف من الله ، وإيمانه النامي على الدوام . إلى التفكر والتدبر في كون الله : أرضه وسمائه ، ليله ونهاره ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) .

وهؤلاء الذين دفعهم الإيمان إلى التفكر في بديع صنع الله أصحاب عقول نيِّرة ، وحواس يقظة ، وألسنة ذاكرة ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ ، فهم يذكرون الله ذكرًا دائبًا على أي حال كانوا من قيام وقعود واضطجاع ، كناية عن الذكر في أغلب أحوالهم . وفي الآية مجاز أيضًا – تجوز بالحرف «في» بأن جعل الجرم محلاً لتعلق المعنى فقال : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... ﴾ جعل الأجرام محلاً لتعلق الفكر ، لا لنفس الفكر فإن الفكر قائم بالتفكر (٤) .

والقوم الذين ينتابهم الخوف الدائم من عقاب الله ، بالرغم من صلتهم الدائمة به ، لابد أن يزيدهم إيمانًا على إيمان ، ويجعله ثابتًا ودائمًا في قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .

﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ : أي قضى أن قلوبهم بهذا الوصف ، وذلك لأن الإيمان لا يمكن كتبه ، فلابد من حمله على الإيجاد والتكوين ، فالآية إذن – كما يقول ابن

---

(١) المؤمنون [٥٧ : ٦٣] .

(٢) انظر : الفوائد المشوق : ٢٣ ، والإشارة إلى الإيجاز .

(٣) آل عمران [١٩٠ ، ١٩١] .

(٤) انظر : الفوائد المشوق : ٦٨ ، والكشاف ٢ / ٤٨٨ .

(٥) المجادلة بعض آية [٢٢] .

القيم – مجاز ، تجوّز بالكتابة عن الثبوت والدوام ، لأن الكتابة مستمرة باقية في العادة (١) .

ولعل أحقيتهم في ثبوت الإيمان في قلوبهم هو حساسيتهم المفرطة في الصلة بالله ، وقطع أواصر المودة بينهم وبين الكافرين ، حتى ولو كانوا أقرب الأقرباء ، ويتضح لنا ذلك بقراءة مطلع الآية السابقة : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... ﴾ وفي هذا مناصرة تامة لله ولدينه ، وإعلان البراءة ممن أعلنوا الحرب على منهج الله في الأرض .

ومما يؤكد شمولية الإيمان في القرآن ، أمره الصريح للمؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم وأفعالهم وأنفسهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى – عليه السلام – من قبل ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (٢) .

ومعنى قوله : ﴿ كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ ﴾ : أي انصروا دين الله ، واعتبر البيانيون الآية من التشبيه ، باعتبار أن المراد : كونوا كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : من أنصاري إلى الله (٣) ، ووصف ابن المنير هذا الكلام بأنه في غاية الحسن (٤) .

وقال الطيبي : « إيقاع التشبيه بين الشيئين ، فأوقع تشبيه كون المؤمنين أنصار الله ، وبين كون الحواريين أنصار الله ، وبين قول عيسى عليه السلام ، لكن التقدير : كونوا أنصار الله ، مثل كون الحواريين أنصاره وقت قول عيسى لهم ذلك ، وتابعه في هذا المعنى «السعد» في المطول ، وزاد عليه بقوله : «وقيل المراد بالحواريين في قوله : أوقع الشبه بين كون الحواريين هم المؤمنون ، لأنهم حواري محمد ﷺ إذ حواري الرجل صفيه وخُلصانه من قومه» (٥) .

وواضح من الآية أنها ترفع من شأن المؤمنين ، وهل هناك مكان أرفع من هذه المكانة ؟ مكان يكون فيه العبد نصيراً لله عز وجل ؟ إن هذه الصفة تحمل من التكريم والتقدير ما هو أكبر من نعيم الجنة الذي أعد للمؤمنين .

---

(١) انظر : الفوائد المشوق : ٣٦ ، وتفسير الرازي : ٢٩ : ٢٧٦ .

(٢) الصف [١٤] . والحواريون : هم تلاميذ المسيح – عليه السلام – ، وهم الذين انقطعوا للتلقي عنه ، ونشر تعاليمه وحفظوا وصاياه بعد رفعه .

(٣) انظر : تفسير الرازي : ٣٠ / ٣١٩ ، وتفسير البيضاوي : ٧٤٣ ، وتفسير النسفي : ٤ / ٢٥٢ ، والتسهيل : ٤ / ١١٨ ، والبحر المحيط : ٨ / ٢٦٤ ، والإيضاح : ٢ / ٢٥٦ ، والبرهان : ٣ / ٤٢٥ .

(٤) انظر : الانتصاف من الكشاف : ٤ .   (٥) انظر : التبيان للطيبي : والمطول : ٢٢٨ .

والذي ينبغي أن يعرفه المؤمنون أن نصر الله يؤدي بالتالي إلى نصر كتابه ، والتمسك به ، ولهذا جاء أمر القرآن بذلك صريحًا أيضًا ، قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَتَفَرَّقُوا ﴾[1] .

ومعنى الآية : تمسكوا بالقرآن ، أو بكتابه ، لقوله ﷺ : «القرآن حبل الله المتين ، لا تنقضي عجائبه ، ولايَخْلَقُ عن كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رُشد ، ومن اعتصم به هُدي إلى صراط مستقيم» . والحبل في الأصل هو السبب ، وكل ما وصلك إلى شيء فهو حبل ، وأصله في الأجرام واستعماله في المعاني من باب المجاز ، ويجوز أن يكون حينئذ من باب الاستعارة ، ويجوز أن يكون من باب التمثيل[2] .

ونود أن نوضح هنا - أن الإيمان بالله - تعالى - لايعدله عمل آخر مهما بلغ قدره ، ولهذا ركز القرآن دائمًا على الإيمان مقترنًا بالله ، وأنكر - سبحانه - على من ساوى بين الإيمان وغيره من الأعمال ، فقال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الأَخِرِ ﴾[3] .

يقول ابن أبي الإصبع : الآية من إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار ، وهذا إنكار على من جعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر ، وفي ذلك أوفى دلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لايُساوي به مخلوق ليس على صفته بالقياس ، ومن هذا قول الرسول ﷺ : « لَحُرْمَةُ رجل مؤمن عند الله أعظم مما طلعت عليه الشمس »[4] .

ويؤكد البيضاوي على هذا المعنى أيضًا فيقول : « إن المعنى في الآية : إنكار أن يُشَبَّه المشركون ، وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة ، ثم قرر ذلك بقوله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ، وبين عدم تساويهم بقوله : ﴿ وَاللَّهُ لايَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[5]

ولكن لماذا جعل القرآن الإيمان بالله أفضل من جميع أعمال الإنسان ؟ ذلك لأنه هو الثابت على غيره ، ولأن الإيمان أصل كل طاعة ، وأساس كل خير ، ولايثبت عمل صالح إلا به ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ المَشْئَمَةِ . عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾[6] .

---

(١) آل عمران : بعض آية [١٠٣] .

(٢) انظر : الدر المصون : ٣ : ٣٣٢ ، وتفسير النسفي : ١ / ١٧٣ ، نقلاً عن الكشاف : ١ / ٤٥٠ .

(٣) التوبة [١٩] .

(٤) انظر : تحرير التحبير : ١٦١ .

(٥) انظر : تفسير البيضاوي : ٢٥٠ .

(٦) البلد [١٧ : ٢٠] .

قال النسفي : معنى الآية : ثم داوَم على الإيمان ، وقيل « ثم » بمعنى الواو ، وقيل إنما جاء بـ «ثم» لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة ، لا في الزمان ، وفي ذلك إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام ، ولايصح أن يكون للترتيب في الزمان ، لأنه لايلزم أن يكون الإيمان بعد العتق والإطعام ، ولايقبل عمل إلا من مؤمن [١] .

ويؤكد ابن عبد السلام هذا المعنى بصورة أكثر دقة ، وأقوى حجة يقول : « إن الإيمان متراخ في الفضل عن فك الرقاب ، وإطعام السُّغبان [٢] مؤخر في اللفظ ، مقدم في الفضيلة والرتبة ، على تباعد وتراخ ، يدل على ذلك قوله ﷺ لما سُئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : جهاد في سبيله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : حَجّ مبرور [٣] .

وذكر العز أن هذا أيضاً تراخ في رتب الفضائل ، ويدل أن «ثم» ههنا لتراخي الرتب ، لا لتراخي الزمان ؛ لأن الإيمان شرط في اعتبار فك الرقاب ، وإطعام السُّغبان ، فلا يجوز أن يتقدم المشروط على شرطه ، ومنه قول الشاعر :

إن من ساد ثم ساد أبوه [٤] .

قال العز : جاء بـ « ثم » للتراخي بين السؤددين ، وتجوَّز بها عن التفاوت بين الزمانين ، إلى التفاوت بين الرتبتين ، فيكون من مجاز التشبيه . وسبب هذا التوجيه من شيخنا ابن عبد السلام هو أن «ثم» عنده تستعمل حقيقة في تراخي الزمان والمكان ، ثم يتجاوز بها في تراخي بعض الرتب عن بعض بالتباعد المعنوي ، تشبيهاً للتراخي المعنوي بالتراخي الزماني والمكاني [٥] .

ومما لاريب فيه أن حديث العز عن الآية جاء في غاية الوضوح والبيان ، والدقة والعمق ، فضلاً عن أسلوبه الدقيق ، وتوضيحه العميق للفكرة ، فإنه يأتي بالحجة والدليل لإثبات ما يذهب إليه [٦] .

---

(١) انظر : تفسير النسفي : ٤ : ٣٥٩ ، والتسهيل في علوم التنزيل : ٤ / ٢٠١ .

(٢) ساغب وسغبان وسغب بمعنى جوعان، وهي سغبى ، وجمعها : سغبان . انظر : القاموس المحيط : مادة : سغب .

(٣) رواه البخاري في كتاب « الإيمان » ١ / ٧٧ . وصحيح مسلم ٢ : ٢٢ . ط . بيروت .

(٤) البيت لأبي نواس وتكملته : ثم قد ساد بعد ذلك جده . انظر : خزانة الأدب للبغدادي ٤ / ٤١ . ط / بولاق

(٥) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٢٤ ، وفوائد في مشكل القرآن : ٢٥٦ .

(٦) انظر : رسالة الباحث : ٢٩١ .

غير أننا نلاحظ أن أغلب آيات القرآن تقدم الإيمان على العمل الصالح ، ولكن بعضها يقدم العمل الصالح على الإيمان به كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (١) ، وأحيانًا أخرى يقدم التوبة على الإيمان كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ (٢) . والتقديم والتأخير بين الإيمان والعمل الصالح في مثل هذه الآيات ، لايستهدف التنويع البياني بمقدار ما يستهدف تصوير نماذج مؤمنة يأتي العمل الصالح تكميلاً لإيمانهم ، أو يأتي الإيمان تكميلاً لعملهم الصالح ، وقد يكون هدف القرآن من تقديم الإيمان التأكيد على أن الإيمان النظري وحده لايكفي ، بل لابد من تكملة الصورة بالعمل الصالح ، وإذا قُدم العمل الصالح على الإيمان كان هذا أيضًا تأكيدًا على أن السلوك المستقيم وحده لايكفي ، بل لابد من الإيمان حتى يكتمل نموذج المؤمن ، ولهذا لم يجعل القرآن الإيمان مجرد عمل غيبي لا مظهر له في الواقع ، بل لابد من اقترانه بالعمل الصالح ، وليس أدل على ذلك من القول السابق : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، والتي تقرن الإيمان بالعمل الصالح ، وكقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ .

بعد هذه الجولة السريعة مع الإيمان والمؤمنين ، لا مناص لنا من تتبع بعض الآيات القرآنية التي تبين مصير المؤمنين ، والحقيقة أنه لاتكاد تخلو سورة من سور القرآن من آيات توضح هذا المصير ، ونكتفي بنموذجين في هذا السياق ، أما أحدهما فدعوة إلى السباق في ميدان السباق الحقيقي للغاية التي تستحق السباق ، قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣) .

شبه الله – تعالى – عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرض السبع ، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ، فذكر العرض تنبيهًا على أن طولها أضعاف ذلك (٤) . ولهذا قال صاحب «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وإذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول ، ويجوز أن يراد بالعرض البسطة كقوله تعالى : ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ (٥) . وهذا يدل على أن الجنة في

---

(١) طه [١١٢] ، والأنبياء [٩٤] . (٢) مريم [٥٩] .

(٣) الحديد [١١] .

(٤) انظر : تفسير الخازن : ٢٠ : ٧ ، وتفسير الرازي : ٢٩ : ٢٢٤ .

(٥) انظر : تفسير البيضاوي : ٧١٧ ، وفي الكشاف كلام قريب من ذلك مما يدل على تأثر البيضاوي به قال : « وذكر العرض دون الطول ، لأن كل ما له عرض وطول ، فإن عرضه أقل من طوله ، فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أن طوله أبسط » انظر : الكشاف : ٤ : ٦٥ .

سعة لايُدرك مداها عقل ، ولايحدها تعبير ، أو يعرف منتهاها تشبيه ، وكي يسبح المتلقى بخياله مَثَّل القرآن بما يعقلونه في نفوسهم وأفكارهم ، ولاشك أن أكثر ما يقع فيها هو عرض السموات والأرض على ما يعرفه الناس .

وقد ذكر بعض البيانيين أن الآية مجاز مرسل ذكرت أداته [١] ، ويرفض المرحوم سيد قطب في كتابه « في ظلال القرآن » حمل الآية على المجاز ، يقول : « . . . وربما كان بعضهم – يقصد بعض البلاغيين – في الزمن الخالي يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز ... أما اليوم ومراصد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التي ليس لها حدود ، فإن الحديث عن عرض الجنة يقع قطعًا موقع الحقيقة القريبة البسيطة المشهودة ، ولايحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقًا ، فإن ما بين الأرض والشمس مثلاً لايبلغ أن يكون شيئًا في أبعاد الكون ويقاس » [٢] .

وهذه الجنة الواسعة أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، فالإيمان بالله والرسول – إذن – ينجي صاحبه من العذاب الأليم ، وينال بسببه رضا الله والفوز بجنة عدن، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٣] .

والآية – كما ذكر البيانيون – خبر في معنى الأمر ، وهي من المجاز ، معناها : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم « ولذلك أجيب بالجزم ، في قوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارَ ﴾ ، وتدل عليه قراءة ابن مسعود : ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا ... ﴾ ، ولايصح أن يكون جوابًا للاستفهام في قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ؟ ﴾ – كما ذهب الفراء [٤] – لأن المغفرة وإدخال الجنان لايترتبان على مجرد الدلالة ، قاله الزركشي نقلاً عن ابن عبد السلام [٥] .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي : ٧١٧ ، والإيضاح : ٢ : ٢٨٨ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : ٦ : ٢٤٩٢ . (٣) الصف [١٠ : ١٣] .

(٤) قال الفراء : هو جواب الاستفهام على اللفظ ، وفيه بُعد ، ومخالفة للنوين كذلك . انظر : معاني القرآن ، والخصائص لابن جني ، والبرهان في علوم القرآن : ٢ / ٣٤٩ .

(٥) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٢٧ ، والبرهان للزركشي : ٢ : ٢٨٩ .

وإنما جيء بالآية على لفظ الخبر للإيذان بوجوب المسارعة إلى امتثاله وكأنه امتثل ، فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين ، ونظيره عند العرب ، قول الداعي : غفر الله لك ، ويغفر الله لك ، جعلت المغفرة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت [١] .

وهكذا يؤكد القرآن في الصورة السابقة أن إصلاح الفرد يستهدف إصلاح المجتمع الإيماني ، ولهذا اتجه القرآن إلى عزل مجتمع الكافرين عن مجتمع المؤمنين حتى لا يسرى الفساد في الكون وحتى لا يهدم الكفر ما بناه الإسلام .

---

(١) انظر : تفسير النسفي : ٤ : ٢٥٣ ، والإشارة إلى الإيجاز : ٢٧ ، والكشاف : ٤ / ١٠٠ .

[ب]

الكافـــــرون

نموذج بشري ثان اختاره القرآن الكريم من بين النماذج التي تحدث عنها ، والقرآن في حديثه عن الكافرين يحلل شخصياتهم ، ويصف نماذجهم من الكفر ، ويصور أعمالهم ، ويجادلهم في آلهتهم ، ويدلي بالأمثلة الواضحة على بطلانها ، ويدعو إلى قتالهم ، ويتحدث عن مصيرهم في الدنيا والآخرة .

ولقد اهتم القرآن الكريم بالكافرين اهتمامًا كبيرًا بحيث شغلوا حيّزًا كبيرًا من آياته ؛ لأنه لم يكن يواجه نوعًا واحدًا منهم ، وإنما كان يواجه نماذج كثيرة ومتنوعة ، منهم المنكر للرسالة ، ومنهم المسالم ، ومنهم المعاند ، ومنهم المعتدي الذي وقف خصيمًا للدعوة بلسانه وسنانه . وأثرت هذه الخصومة بين الكفر والإيمان البيان القرآني لما ذكرته الآيات من وسائل كثيرة للدفاع عن الإسلام في وجه كل الشبهات التي يثيرها الكافرون ، والقرآن إنما يهدف بذلك إلى تأكيد دعوة الإيمان ، ونصرها على دعوة الكفر وخذلانها .

ويبدأ القرآن الكريم بوصف الكافرين بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

والكفر : التغطية ، قال الشاعر : في ليلة كفرَ النجومَ غمامُها (٢) .

والزارع كافر لتغطية البذور في الأرض ، فالكافر يغطي نعم الله بجحوده ، والكفر : ستر الحق بالجحود . ومعنى الآية : إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه ، والآية بذلك لاتؤكد حقيقة انعزال الكافرين عن المجتمع فحسب ، ولكن يعزلهم حتى عن أنفسهم ، ويزرع في قلوبهم اليأس من أن يصبحوا مؤمنين ، والحكمة في الإنذار مع العلم بالإصرار إقامة الحجة ، وليكون الإرسال عامًا ، وليثاب الرسول ﷺ (٣) .

ذكر بعض المحدثين أن الآية تشبيه متساوي الطرفين ، وكان فيه براعة استهلال بسبب جعل المشبه من حيث تعيين وجه الشبه فيه في درجة المشبه به ، فمَن أدرك أحدهما أدرك الآخر ، وذلك لا يقيمه إلا من كان عليمًا بدقائق الطرفين ، فجمع بينهما جمعًا إلى التوحيد أقرب ، وليس ذلك إلا لله الخالق الخبير (٤) .

---

(١) البقرة [٦ ، ٧] .

(٢) البيت قاله لبيد العامري وشطره : يعلو الطريق متنها متواتر . انظر ديوانه : ٣٠٩ .

(٣) انظر : مختصر تفسير الماوردي : ١ / ٢٠ ، وتفسير النسفي : ١ / ١٥ ، وتفسير البيضاوي : ١٠ .

(٤) انظر : خصائص التشبيه في سورة البقرة للدكتور إبراهيم حسن داود ص ١٠٤ ، مطبعة الأمانة – مصر سنة ١٩٨٦م .

﴿ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ : اتفق البيانيون على مجازية الآية ، غير أنهم يختلفون في التوجيه ، قال بعضهم : إن إسناد الختم إلى الله – تعالى – مجاز ، والخاتم في الحقيقة الكافر والقرينة المانعة هي تعاليه عن فعل القبيح إلا أنه تعالى ، لما كان هو الذي أقدره ، ومكنه أسند إليه الختم ، كما يسند الفعل إلى السبب ، فيقال: بنى الأمير المدينة ، وذكر أخرون أن الآية تعليل لعدم إيمانهم ، وبيان ما يقتضيه عن إضلالهم ، أي طبع على قلوبهم فلا يعقلون الخير ، ولايخرج منها ما فيها من الكفر ، وحفظه ليجازيهم عنه ، ولايدخلها ما ليس فيها من الإيمان ، ومما يقوي هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ [1] .

ولما كان الختم والطبع على أوعية الأشياء مانعين من خروج ما في الظروف ، شبه ما يمنع من خروج الكفر والضلال من القلوب ، وما يمنع من فهم دلالة المسموعات والمبصرات بما يمنع من خروج المحفوظات والمخزونات . وأما الغشاوة : فهي الغطاء الشامل ، أراد بذلك تعاميهم عن الحق ، والغشاوة مجاز باتفاق [2] .

أما البيضاوي فيقول : « ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة ، وإنما المراد بها : أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرّنهم على استحباب الكفر والمعاصي ، واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم وإنهماكهم في التقليد ، وإعراضهم عن النظر الصحيح ، فتجعل قلوبهم بحيث لاينفذ فيها الحق وأسماعهم تعافى استماعه ، فتصير كأنها مستوثق منها بالختم ، أو يكون المراد بالختم : وسم قلوبهم بسمة تعرفها الملائكة فيبغضونهم وينفرون منهم ، وهذا التوجيه رجحه البيضاوي [3] . وزبدة القول أن الكافر سواء أنذر أو لم ينذر لايؤمن ، لأنه تجلت على قلبه وسمعه وبصره غشاوة ، وهو لايهتدي أبداً ، لأن نفسيته نفسية ضالة .

---

(١) النحل [١٠٨] . فالقران قد عبَّرَ عن هيئتهم بالطبع مرة كما في قوله : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم » وبالإغفال كما في قوله : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » ، وبالإقساء أخرى في قوله : « وجعلنا قلوبهم قاسية » ، وهذه كلها بسبب ما اقترفوه بدليل قوله : «بل يطبع الله عليها بكفرهم» ، وقوله : « ذلك بأنهم امنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم » .

(٢) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ١ : ٢٧ ، ومختصر تفسير الماوردي : ١ / ٢١ ، وتفسير النسفي : ١ / ١٦ . والإشارة إلي الإيجاز في بعض أنواع المجاز : ٧١ ، والتبيان للطيبي : ٢٨٧ ، ومفتاح العلوم ١ / ٢٣٦ .

(٣) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١٠ ، ١١ .

موقفهم من الداعي :

ويصور لنا القرآن حال الكافرين وقد استمعوا إلى دعوة الداعي ، فلم تثر فيهم تلك الدعوة رغبة في التفكير فيها لمعرفة ما قد تنطوي عليه من صدق ، وما يكون فيها من صواب ، وما أشبههم حينئذ بمن لم يسمع عن الدعوة قط ، أو بمن في أذنه صمم أو وقر ، قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَايَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَايَعْقِلُونَ ﴾.[1] .

فضرب الله لهم هذا المثل لما تركوا النظر والتدبر عند الدعاء إلى اتباع ما أنزل الله ، وهذا المثل يزيد المتلقي معرفة بأحوال السامعين ، ويحقرّ إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك ، فيكون كسرًا لقلبه ، وتضييقًا لصدره ، حيث صيره كالبهيمة ، فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد [2] .

واختلف البيانيون في هذه الآية اختلافًا كثيرًا ، واضطربوا اضطرابًا شديدًا وقد لخصت أقوالهم مهذبة ، والتي جاءت على أربعة أقوال :

* فمنهم من قال : إن المثل مضروب بتشبيه الكافر بالناعق .
* ومنهم من قال : هو مضروب بتشبيه الكافر بالمنعوق به .
* ومنهم من قال : هو مضروب بتشبيه داعي الكافر بالناعق .
* ومنهم من قال : هو مضروب بتشبيه الداعي والكافر بالناعق والمنعوق به .

فهذه أربعة أقوال : فعلى القول الأول : مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل الناعق بغنمه ، لاينتفع من نعيقه بشيء ، غير أنه في عناء ، وكذلك الكافر ليس له من دعائه الآلهة إلا العناء ، وشبه الأصنام في كونها لاتفهم بهذه البهائم المنعوق بها وفيه زجر عن دعاء الأصنام [3] .

وضَعُفَ هذا القول عند الرازي ، لأن قوله : « إلا دعاء ونداء » لايساعد عليه ، لأن الأصنام لاتسمع شيئًا [4] . وعلّق الأندلسي على هذا الرأي بقوله : « إن التشبيه وقع في مطلق

---

(١) البقرة [١٧١] .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٥ / ٧ ، والأمثال : ٢٥٠ ، واعلام الموقعين : ١ / ٢١٨ ، والتفسير القيم : ١٤١ .

(٣) انظر : الإمام في بيان أدلة الأحكام : لوحة : ٢١ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٥ / ٨ .

الدعاء ، لا في خصوصيات المدعو ، فشبه الكافر في دعائه الصنم بالناعق بالبهيمة ، لا في خصوصيات المنعوق به [١] ، وتابعه في ذلك السمين .

وقيل : التقدير : ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم وأصنامهم ، أن الناعق هنا ليس المراد به الناعق بالبهائم من الضأن أو غيرها ، وإنما المراد به الصائح في جوف الجبال ، فيجيبه منها صوت يقال له الصدا ، يجيبه ولاينفعه ، فالمعنى بما لايسمع من الناعق إلا دعاءه ونداءه [٢] ، وقيل : المراد بالذين كفروا : المتبوعون لا التابعون ، والمعنى : مثل الذين كفروا في دعائهم أتباعهم ، وكون أتباعهم لايحصل لهم منهم إلا الخيبة ، كمثل الناعق بالغنم ، وعلى هذه الأقوال كلها ، لايكون في الكلام حذف إلا من جهة التشبيه [٣] .

وأما على القول الثاني من الأقوال الأربعة المتقدمة ، فقد اختلف في تقديره أكثر المفسرين ، قال بعضهم : معناه : ومثل الذين كفروا في دعائهم إلى الله – تعالى – وعدم سماعهم إياه ، كمثل بهائم الذي ينعق ، فهو على حذف قيد في الأول ، وحذف مضاف في الثاني[٤] . وقيل التقدير : ومثل الذين كفروا في عدم فهمهم عن الله ، وعن رسوله كمثل المنعوق به من البهائم التي لاتفقه من الأمر والنهي غير الصوت ، فيراد بالذي ينعق الذي يُنعق به ، ويكون هذا من المقلوب .

وذكر صاحب البحر : أنه يجب أن ننزه القرآن الكريم عنه ؛ لأن الصحيح أن القلب لا يكون إلا في الشعر ، أو إن جاء في الكلام ، فلا يقع إلا في ضرورة أو ندرة فيكون من القلة بحيث لايقاس عليه [٥] وخالفه في ذلك ابن أبي الإصبع ، وأكد على أن في القلب – هنا – فائدة كبيرة ، يقول : « جرت العادة عند أهل اللسان أنهم يقلبون الكلام إذا أفاد قلبه فائدة لايفيدها وهو على وجهه ، والفائدة التي أفادها هذا القلب مجيء الكلام غير منفر عن الرسول ﷺ متضمنًا أدبًا معه ﷺ ، فإن الكلام لو جاء على وجهه : «ومثل الذين كفروا كمثل الضأن المنعوق بها ، ومثل الرسول الداعي لهم كمثل راعي الضأن الذي ينعق بما لايسمع ، وفي التصريح بتشبيه الرسول بالراعي الذي ينعق بالضأن غض من جلالته ، ومخالفة الأدب في مخاطبته ، وما جاء بمثل هذا في الكتاب العزيز إلا ليؤدبنا به ، ويعرِّفنا حقه ، ويعلمنا كيف نخاطبه ، فمن أجل ذلك قلب الكلام عن وجهه ؛ ليأتي الكلام غير منفر جاريًا على سنن الأدب مع الرسول ﷺ ، ولو جاء الكلام على وجهه لم يفد ذلك» [٦] .

---

(١) انظر : البحر المحيط : ١ / ٤٨١ ، والدر السمين : ٢ / ٢٢٩ .
(٢) نفسه ، والتفسير الكبير : ٥ / ٨ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) انظر : الدر المصون : ٢ : ٢٣٠ .
(٥) نفسه : ٢ : ٢٣١ ، والبحر المحيط : ١ / ٤٨٢ .
(٦) انظر : بديع القرآن : ١٣٦ ، ١٣٧ .

وأما على القول الثالث فتقدير الآية : ومثل داعي الذين كفروا إلى اتباع ما أنزل الله كمثل الناعق (الراعي) الذي يصيح بغنمه ، فلا تسمع إلا دعاءً ونداءً ، في كون الكافر لايفهم مما يخاطب به داعيه إلا دوي الصوت ، دون إلقاء ذهن ولا فكر ، كما أن البهيمة كذلك ، فيكون تشبيهاً لهم بالبهائم في عدم الفهم ولايخفى ما فيه من الزجر ، ووجه التشبيه أن البهيمة تسمع الصوت ، ولاتفهم المراد [1] . فالكلام – إذن – في الآية على حذف مضاف من الأول «ومثل الذين كفروا» أي : ومثل داعي الذين كفروا [2] .

أما على القول الرابع فتقدير الآية : مثلك يا محمد ومثل الذين كفروا ، كمثل الناعق والمنعوق به – نقلاً عن سيبويه [3] ، واختلف العلماء في فهم كلام سيبويه ، فقائل هو تفسير معنى ، وقيل : تفسير إعراب [4] . ومعنى الآية : أنه شبه داعي الكفار براعي الغنم في مخاطبته من لايفهم عنه ، وشبه الكفار بالغنم في كونهم لايسمعون مما دعوا إليه إلا أصواتاً لايعرفون ما وراءها ، وفي هذا الوجه حذف كثير كما ذكره السمين [5] .

وهذه الأقوال كلها إنما هي على القول بتشبيه مفرد بمفرد ، ومقابلة جزء من الكلام السابق بجزء من الكلام المشبَّه به ، أما إذا كان التشبيه من باب تشبيه جملة بجملة ، فلا ينظر في ذلك إلى مقابلة الألفاظ المفردة ، بل ينظر إلى المعنى ، قال الأندلسي : « فلما شبه قصة الكافرين في إعراضهم عن الداعي لهم إلى الحق بقصة الناعق ، قدَّم ذكر الناعق ، لينبني عليه ما يكون منه ، ومن المنعوق به »[6] .

ومما تقدم يمكننا القول : إن للعلماء من أهل البيان في هذه الآية طريقان :

أحدهما : إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار حذف .

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ١٢٠ ، والإمام في بيان أدلة الأحكام : لوحة : ٢١ ، والدر المصون والبحر المحيط ، والتفسير الكبير .

(٢) قال الزمخشري : ويجوز أن يراد بـ «ما لا يسمع» الأصم الأصلخ الأصم الذي لايسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والصوت لا غير من غير فهم للحروف . الكشاف : ١ / ٣٢٨ . وذكر السمين أن هذا من الزمخشري جنوح إلى جواز إطلاق «ما» على العقلاء أو لما تنزَّل هذا منزلة من لايسمع من البهائم أو وقع عليه «ما» .

(٣) انظر : الكتاب لسيبويه : ١ / ١٠٨ .

(٤) فيكون في الكلام حذفان : حذف من الأول وهو حذف « داعيهم » ، وقد أثبت نظيره في الثاني ، وحذف من الثاني ، وهو محذوف «المنعوق» ، وقد أثبت نظيره في الأول .

(٥) انظر : الدر المصون : ٢ / ٢٢١ .

(٦) انظر : البحر المحيط : ١ / ٤٨٣ .

والثاني : تصحيح المعنى بالإضمار على حذف مضاف من الأول عند (المشبه) أي : مثل داعي الذين كفروا ، أو من الثاني (عند المشبه به) . أي : كمثل بهائم الذي ينعق ، أو على حد إضمار من حذفين : حذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول[١] . وهذا نهاية القول في الآية الكريمة [٢] .

موقفهم من القرآن :

ثم شبههم في نفورهم عن القرآن الكريم ، واستماع الذكر ، بحُمُر رأت الأسد والرماة فجدّت في نفارها منه ، وهذا من بديع التمثيل[٣] ، قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [٤] .

إن القوم في جهلهم بما بعث الله رسوله ﷺ كالحمر ، فهي لاتعقل شيئًا ، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور ، وهذا غاية الذم لهؤلاء ، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم ، كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها . وفي تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبَله ، بل هم أسوأ حالاً من الحمر ، لأن الحمر فرت من سبب هلاكها ، وهو الأسد وهؤلاء فروا من التذكرة ، وهي سبب نجاتهم ، كفرار الحمر من سبب هلاكها [٥] .

وتحت "المستنفرة" معنى أبلغ من النافرة ، فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا ، وحضه على النفور ، فإن الاستنفار من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرد ، فإنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه[٦] .

وإنه ليكفي في تصوير إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير ، ولكن القرآن في دقته لايكتفي بذلك فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة ، وإسراعهم في إبعاد أنفسهم عنها إسراعًا ،

---

(١) انظر : الدر المصون : ٢ : ٢٣٣ .

(٢) انظر : تفسير البيضاوي : ٣٥، وتفسير النسفي : ١ / ٨٨، وتفسير الخازن : ١ / ١٣٩ ، والتسهيل في علوم التنزيل : ١ / ٦٨ ، والطراز للعلوي : ١ : ٢٩٠. ، والتبيان في علم المعاني ، والبديع والتبيان : ١٧١ ، والأمثال في القرآن : ٢٥٠. ، واعلام الموقعين : ٢١٨/١ ، والتفسير القيم : ٤١ .

(٣) انظر : الأمثال في القرآن : ٢١٢ ، وتفسير النسفي : ٣١٢/٤ .

(٤) المدثر [٥٠ ، ٥١] .

(٥) انظر : التفسير الكبير : ٣٠ / ٢١٢ ، والإمام في أدلة الأحكام : لوحة : ٢٢ .

(٦) يختلف المعنى حسب توجيه القراءة في كلمة «مستنفرة» ، فمن قرأها بفتح الفاء ، فالمعنى : أن القسورة استنفرها ، وحملها على النفور ببأسه وشدته ، والمستنفرة : أي شديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها من حملها له وحملها عليه ، انظر تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٤٧ ، والبحر المحيط : ٨ / ٣٨١ .

يمضون فيه على غير هدى ، فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب ، وتحثها عليه ، يزيد في هربها وفرارها أسد هصور ، يجري خلفها ، فهي تتفرق في كل مكان ، وتجري غير مهتدية في جريها .

وصورة الحمر التي تجدُّ في هربها ، لاتلوي على شيء تبغي الفرار من أسد يجري وراءها ، ينقل إلينا صورة الكافرين معرضين عن التذكرة سائرين على غير هدى ، وتبعث فينا هذه الصورة الهزء بهم والسخرية .

ولما رأى الله – سبحانه – من الكافرين إعراضهم عن القرآن الكريم ، حال بينهم وبين فهمه ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لايُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ (١) .

عبرَّ بالأكنة والوقر مبالغة وهي استعارة ، ومعنى الآية : إن الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه (٢) .

أعمال الكافرين :

مما لاشك فيه أن أعمال الكافرين ضائعة ، باطلة لاينتفع بشيء منها ، وسبب ذلك هو كفرهم ، ولولا كفرهم لانتفعوا بها ، ذلك لأن أساس العمل المرجو الثواب أن يكون مقرونًا بالإيمان ، فإن لم يكن كذلك ، ذهب عنه ثوابه ، ويصور القرآن أعمال الكافرين في أنها لا غناء فيها ، ولا ثمرة ترجى منها ، بالرماد الدقيق ، لاتبقي عليه الريح العاصفة شيئًا ، وهي صورة دقيقة تبين ذلك المعنى أتم بيان وأوفاه ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لايَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ . ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾ (٣) .

أجمع البيانيون على أن الآية مَثَلٌ ضربه الله لأعمال الكفار التي لم ينتفعوا بها ، ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال ، هو أن الريح العاصف تطيِّر الرماد وتفرِّق أجزاءه ، بحيث لايبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر ، فكذلك أعمال الكفار تبطل وتذهب بسبب كفرهم ، ويتعذر وصولهم إلى ثواب شيء منها ، بتعذر جمع الرماد الذي اشتدت به الرياح في يوم عاصف ، وهذا أبلغ في الزجر عن الكفر ، لأنه جعله محبطًا لجميع أعمالهم (٤) .

---

(١) الأنعام [٢٥] ، والأكنة : جمع كنان وهو الغطاء ، وأن يفقهوه : كراهة أن يفقهوه .

(٢) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ٢ / ٦ .   (٣) إبراهيم [٢٨] .

(٤) انظر : الخازن : ٤ / ٢٧ ، والتفسير الكبير : ١١ / ١٠٦ ، والأمثال في القرآن : ٢٢٦ ، وأدلة الأحكام : لوحة : ١٩ ، والبحر المحيط : ٥ : ٤١٥ .

واختلفوا في المراد من تلك الأعمال : منهم من قال إن المراد منها ما عملوه من أعمال البر والصلاح ، كالصدقة وصلة الأرحام ، وإطعام الجائع ؛ لأنها تصير باطلة بسبب كفرهم ، ومنهم من قال : إن المراد منها عبادتهم للأصنام التي ظنوا أنها تنفعهم ، فبطلت وحبطت ، ولم تنفعهم البتة ، ووجه خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم فيها لكي ينتفعوا بها ، فصارت وبالاً عليهم .

يقول الرازي : « إن وجه النظم في الآية أنه تعالى – لما بين أن أعمالهم تصير باطلة ضائعة ، بين أن ذلك البطلان «الإحباط» ، إنما جاء بسبب صدر منهم ، وهو كفرهم بالله ، وإعراضهم عن العبودية ، فإن الله لايبطل أعمال المخلصين ابتداء ، فكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك »[1] .

وفي تشبيه أعمال الكافرين بالرماد سر بديع ، وذلك للتشابه بين أعمالهم ، وبين الرماد في إحراق النار ، وإذهابها لأصل هذا وهذا ، فكانت الأعمال التي لغير الله على غير مراده طعمة لها ، وبها تسعر النار على أصحابها .... فهم وأعمالهم ، وما يعبدون من دون الله وقود النار[2] . ويضاف إلى ذلك أن مشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود لدى القوم ، ويجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدىً ، يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ في تحريك المشاعر ، ما لايبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددًا .

﴿ لايَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ : والمعنى – كما ذكره الأندلسي – لايقدرون من ثواب ما كسبوا من أعمالهم على شيء ، فهو حذف مضاف[3] ، وذلك إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون[4] والسؤال الذي يستفسر عنه ها هنا لماذا قال في البقرة « لا يقدرون على شئ مما كسبوا » وهنا قال : « لا يقدرون مما كسبوا على شئ » ؟ وهذا من التفنن في الفصاحة والتغاير في التقديم والتأخير والمعنى واحد[5] .

وختمت الآية بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ أي الغاية في البعد عن طريق الحق ، وهذا التعقيب يلتقي مع مطلع الآية ، فهو تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير في يوم

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ١٩ / ١٠٦ .

(٢) انظر : اعلام الموقعين : ١ / ٢٠٤ ، والتفسير القيم : ٢٢٦ ، الأمثال : ٢٢٦ .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٥ : ٤١٥ .

(٤) لقوله في الكهف : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا » آية [١٠٣ : ١٠٥] .

(٥) انظر : البحر المحيط : ٥ : ٤١٥ .

عاصف ، من أجل ذلك قال ابن عبد السلام في « الإشارة إلى الإيجاز » : « مثل الذين كفروا بوحدانية ربهم ، ضلال أعمالهم الصالحة كضلال رماد اشتدت بتذريته وتفريقه الريح ، بدليل قوله : ذلك هو الضلال البعيد »[١] .

ويقدم القرآن هذا المعنى نفسه مصورًا بصورة سريعة في قوله : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[٢] .

أي : وقصدنا إلى أعمالهم ، لأن حقيقته « عملنا » ، لكن « قدمنا » أبلغ ؛ لأن القدوم وهو مجيء المسافر بعد مدة،مستعار للأخذ في الجزاء بعد الإمهال ، وفي هذا التحذير من الاغترار بالإمهال[٣] .

ثم شبه القرآن حسبانهم – أي الكافرين – أنهم ينتفعون بأعمالهم ، بحسبان الظمآن السراب ماء ، وشبه فقدهم الانتفاع بها في القيمة بفقد الظمآن الماء لما أتى موضع الشراب ، وهو أبلغ من الذي قبله ؛ لأن في هذا المثل فقدان الثواب والخيبة بعد الحسبان والرجاء ، ولم يتعرض للرجاء في المثل السابق[٤] ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ . ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[٥] .

شبه القرآن أعمال الكافرين في فوات نفعها ، وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئًا كغيره من السراب ، ولكنه – كذلك – يخيب في العاقبة أمله ، ويلقي خلاف ما قدر ، ويجد زبانية الله يأخذونه ، ويعتلونه إلى جهنم ، فيسقونه الحميم والغساق ، ووجه الشبه هنا مركب عقلي كالمنظر المطمع مع المخبر المؤيس[١] .

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : ، وأنوار التنزيل في أسرار التأويل : ٣٢٨ .

(٢) الفرقان [٢٣] .

(٣) انظر : التفسير الكبير : ٢٤ : ٧٢ ، والطراز : ١ / ٢٤٥ ، والبرهان : ٣ / ٤٣٩ .

(٤) انظر : الإمام في بيان أدلة الأحكام : لوحة : ١٩ .

(٥) سورة النور : [٣٩ ، ٤٠] . والسراب : ما يشاهد في الأفق البعيد عند اشتداد الحر كأنه ماء يجري . بقيعة : القيعة بمعنى القاع ، وجمعها قيعان ، وهي الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

(٦) انظر : النسفي : ٣ ؛ ١٤٨ ، والإيضاح : ٢ / ٣٥٢ ، والرازي : ٩ / ٢٤ ، والخازن : ٥ / ٨٢ ، وتفسير البيضاوي : ٤٧٠ ، والإشارة إلى الإيجاز : ١٧٧ .

انظر إليه يجد في السراب . وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعًا فيغرهم مرآها ، ويمضون إلى السراب يظنونه ماءً ، فيسعون إليه يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لايلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد ، فلا يجدون شيئًا مما كانوا يؤملون . إن القرآن يجد في هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة تظن مجدية نافعة ، وما هي بشيء .

ولاشك أن هذا الواقع المرير ينعكس على نفسية أصحابه بالاضطراب والفزع ، عندما يجدون آمالهم في أعمالهم قد انهارت ، فتظلم الدنيا أمام أعينهم ، ويتزلزل كيانهم ، ويؤكد هذا الرأي ما ذهب إليه الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى بقوله : « والواقع أن هذه الصورة من التشبيه الضمني لاتركز البيان على الأعمال بقدر ما تركز على الموقف النفسي الناشيء عن ضياعها ، في وقت يكون صاحبها شديد الحاجة إليها [(١)] . وفي رأي الباحث – على قدر ما استوعبه من أقوال القدماء – أن هذا الفهم غفل عنه القدماء باستثناء الرازي والرماني [(٢)] .

ومن حق الباحث أن يستوضح هنا : ماذا لو قال القرآن : « يحسبه الرائي ماء » ولم يقل «يحسبه الظمآن ماء» ؟ ولو قال : يحسبه الرائي ماء لكان بليغًا ، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمآن أشد حرصًا عليه ، وأكثر تعلق قلب به . يقول ابن أبي الإصبع : « إن تشبيه أعمال الكافرين بالسراب من أحسن التشبيه وأبلغه ، فكيف وقد تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة الألفاظ ، وصحة الدلالة ، وصدق التمثيل [(٣)] .

ولهذا لانوافق صاحب « جوهر الكنز » قوله : أن ما في الآية تشبيه ما لايدرك بالحاسة وهو الأعمال إلى ما يدرك بالحاسة وهو السراب [(٤)] ، فهذا القول لايكفي أن يقال في مثل هذه الصورة التشبيهية ، لأن النسق اللغوي يضفي حياة على الصورة ، ويكسبها ظلالاً إيحائية لايستطيع التشبيه وحده أن يقوم بها ...... ولكن الآية في النهاية صورة حركية ونفسية يتآزر في إبرازها الإحساس بمعاناة سائر في صحراء قاتلة ، تتناوشه أحاسيس الظمأ ، ويحاول تهدئتها بقرب إدراكه الماء الذي ينكشف في نهاية الطريق عن وهم خادع .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ ﴾ : لفظ : « حتى » قد يثير أحاسيس عديدة لمرحلة مضنية وقد آن لصاحبها أن يروي غلته بعد أن أتى عليه طول الطريق ، ثم لفظ « إذا » التي تكون

---

(١) انظر : التصوير البياني ، د. محمد أبو موسى : ٦٧ .
(٢) انظر : التفسير الكبير : ٠٩/ ٢٤ ، والنكت في إعجاز القرآن : ٧٥ .
(٣) انظر : بديع القرآن : ٥٨ ، وتحرير التحبير : ١٦٠ .
(٤) انظر : جوهر الكنز : ٦٠ ، والطراز : ١ / ٣٠٦ .

للمفاجأة والتركيب اللغوي لقوله : «جاءه» تعطي إحساساً بالتلاحق النفسي بين الفعل «جاءه» ، وصاحبه بالطبع ، وبين «الهاء» التي يراد بها هذا الماء المتوهم ، أو الشراب المحقق ، وتكون «لم» النافية ، لنذير اليأس ، وفقدان الأمل ، لم يجده هنا تتصل «الهاء» بالفعل «يجده» كما اتصلت بالفعل «جاءه» من قبل ، وهناك أمل يتصل بالجوانح ، وهنا يأس عانق الذات ، تصنع أوله «الهاء» في الأول ، وتصنع آخره «الهاء» في الثاني ، ثم تنتصب كلمة شيئ لتكمل الصورة العدمية المطلقة ، ومن خلال كل ذلك تحتضن الكلمات الصورة التشبيهية ، فإذا أتيت إلى منتهاها ، رأيت هذه الصورة نامية ونضرة ، وليس بسبب اجتماع طرفيها كما قال القدماء ... فذلك ابتسار ، وقص لأطراف الكلمات التي ترف بها في آفاق متعددة ، وتأبى الصب في قالب فكري يختزل الصورة في دلالة منطقية مقننة »[١] .

وهذا الفهم لأسلوب النص القرآني أكثر إضاءة وإشراقاً من فهم كثير من علمائنا القدامى – أصحاب الفضل – فقد يكون للدراسات الأسلوبية الحديثة أثرها الكبير في فهم العبارة القرآنية بصورة أكثر شمولية مما كان عليه القدماء .

أما الآية الثانية من «النور» : فشبهت عقائدهم لكونها لاغية ، لا منفعة لها كالسراب ، ولكونها خالية عن نور الحق بظلمات متراكمة من لجج البحر والأمواج والسحاب ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ، فهو يتقلب في خمسة من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات ، وإلى النار . وذهب بعضهم إلى أن أجزاء هذا المثال قوبلت به أجزاء الممثل به : فالظلمات : أعمال الكافر ، والبحر اللجي : صدره ، والموج : جهله ، والسحاب : الغطاء الذي على قلبه ، وذهب بعضهم الآخر إلى أن التمثيل على الجملة من غير مقابلة ، وفي وصف هذه الظلمات بهذه الأوصاف مبالغة[٢] .

والآيتان معاً ضربت للكافرين مثلاً : مثلاً بالسراب ومثلاً بالظلمات المتراكمة ، وهذان المثلان ، أحدهما بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء ، والظلمات المضادة للنور ، والكفار في هذين المثلين حظهم من الماء السراب الذي يغرّر الناظر فيه ، ولا حقيقة له ، وحظهم كذلك الظلمات المتراكبة ، ذلك لأن الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون ، ولذلك ختم الله المثل بقوله ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ .

وبانضمام آية «إبراهيم» مع آيتي «النور» نلحظ أن القرآن مثل أعمال الكافرين في تلاشيها وبطلانها ، وخيبتها في الآخرة بأمرين أسرع ما يكون في الزوال: أحدهما : الرماد مع

---

(١) انظر : في البلاغة العربية : ١٣٧ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير : ٣ / ٩٧ ، والتفسير القيم : ٩٣ ، والتسهيل في علوم التنزيل : ٣ / ٦٩ .

شدة العصف ، والآخر : السراب مع شدة اليأس .

وكما مثل القرآن خيبتهم في الآخرة ، مثل خيبتهم في الدنيا ، وبخاصة في أموالهم الكثيرة التي أنفقوها في جمع العساكر ، وتحملوا المشاق ، ثم انقلب الأمر عليهم ، وأظهر الله الإسلام ، وقواه فلم يبق مع الكفار من ذلك الإنفاق إلا الخيبة والحسرة [١] ، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [٢] .

قال ابن المنير : « أصل الكلام : مَثَل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم ، فأصابته ريح فيها صر فأهلكته ، ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جليلة ، وهو تقديم ما هو أهم ، لأن الريح التي هي مثل العذاب ، ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث ، فقدمت عناية بذكرها ، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه [٣] .

مثل سبحانه – ما ينفقون بالريح الباردة ، وإهلاكها ما أصابت من حرث مَنْ ظلم نفسه ، وفي الكلام حذف تقديره : مثل ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للحرث ، وإنما احتيج لهذا ؛ لأن ما ينفقون ليس تشبيهاً بالريح ، إنما هو تشبيه بالزرع الذي أهلكته ، والمراد من ضرب هذا المثل هو تشبيه ما ينفقون بشيء يذهب بالكلية ، ولايبقى منه أثر ألبتة ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لأن الكفر مانع من الانتفاع كما مر – ولا يعتبر عدم قبول نفقاتهم ظلماً من الله تعالى ، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث أتوا بها مقرونة بالوجوه المانعة من كونها مقبولة عند الله [٤] .

وفي هذه الصورة البيانية التي تأخذ بالألباب – زجر عن الكفر المحبط ، ولايتوقف تصوير القرآن عند هذا الحد ، ولكنه يجادل الكفار ويحاججهم فيما يعبدون ، حتى يوحدوه فتتصلح أعمالهم وتقبل .

---

(١) انظر : التفسير الكبير : ٨ / ١٩٤ .　　(٢) آل عمران : [١١٧] .

(٣) انظر : الانتصاف من الكشاف : ١ / ٤٥٨ .

(٤) انظر : التفسير الكبير : ٨ / ١٩٦ ، وبديع القرآن : ٦١ ، وتفسير البيضاوي : ٨٦ ، وتفسير الخازن : ١ / ٤٠٨ ، والتسهيل في علوم التنزيل : ١ / ١١٦ ، والبحر المحيط : ٣ / ٣٥٩ ، والدر المصون : ٢ / ١٢٧ .

عقاب الكافرين :

وبالرغم من وجود العقاب في الآخرة فلا يترك الله – سبحانه – الكافرين بلا عقاب حتى تقوم الساعة ، بل إن السماء تتدخل إذا استشرى الظلم ، وعم الفساد ، وكان الكفر عقيدة الناس ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ، فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلا أَنْ قَالُوا : إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (١) .

قال الرازي في الآية محذوف : والتقدير : كم من أهل قرية ، ويدل عليه وجوه : أحدها : قوله : «فجاءها بأسنا» ، والبأس : الإهلاك ، ولايليق إلا بالأهل . وثانيها : قوله : «أو هم قائلون» فعاد الضمير إلى أهل القرية (٢) . وتأسى السكاكي بالرازي الذي علق على الآية قائلاً : أهلكناها ، في موضع : أردنا إهلاكها ، بقرينة فجاءها بأسنا ، ومما يؤكد أن القرية التي أراد الله إهلاكها كافرة قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أردنا إهلاكها ، إذ معنى الآية – كما ذكر السكاكي – كل قرية أردنا إهلاكها لم يؤمن أحد منهم ، أفهؤلاء يؤمنون ؟ وما أدل على نظم الكلام على الوعيد !! أما ترى الإنكار في « أفهم يؤمنون » ، ولايقع في المحز إلا بتقدير : « ونحن على أن نهلكهم » .

وعاقبهم الله – تعالى – بالريح أيضاً فقال : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (٣) . جعل البيانيون الآية من استعارة المحسوس للمحسوس للمشاركة في أمر معقول (بوجه عقلي) ، وأجمعوا قولهم في الآية على أن المستعار منه : المرأة التي لاتلد ولداً ، والمستعار له الريح ، لأنها لاتصلح شيئاً ، ولاينمو بها نبات ، والجامع المنع من ظهور النتيجة والأثر ، فالطرفان حسيان ، والجامع عقلي (٤) .

ورد هذا القول صاحب الإيضاح ، لكونه صفة لا اسماً ، وزعم أنه مستعار مما هو في المرأة من الصفة المانعة من الحمل، والمستعار له ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء

---

(١) الأعراف [٤ ، ٥] .

(٢) انظر : تفسير الرازي : ١٤ / ٢٠ ، ومفتاح العلوم : ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٣) الذاريات [٤١ ، ٤٢] .

(٤) انظر : تفسير الرازي : / ٢٦٦ ، ومفتاح العلوم : ٢٨٩ ، وبديع القرآن : ٢١١ ، والفوائد المشوق : ٢٩ ، والطراز : ١ / ٢٤٤ .

مطر ، وإلقاح شجر ، والجامع لها ما ذكرناه[١] . واعتمد الطيبي على كلام القزويني وأضاف قوله : « بأن النظر مبني على المنع من انقلاب التبعية مكنية ، ودونه خرط القتاد »[٢] ، وإن كانت عبارته غامضة وخالية من التوضيح المراد .

وذكر الجرجاني – صاحب الإشارات ، أن في كلام القزويني نظر : « لجواز أن يكون العقم موضوعًا للقدر المشترك بين الصفتين ، وإطلاق القدر المشترك على جزئيتين : حقيقة ومجازًا ، فضلاً عن كونه مستعارًا ، وفائدته أصالة الحقيقة ، وعدم الدلالة على المجاز[٣] .

وعقب الزركشي – كذلك – على القزويني بقوله : « وهو مندفع بالعناية ؛ لأن المراد من قوله : « المستعار منه ، المرأة التي عبر عنها بالعقيم ، ذكرها السكاكي بلفظ ما صدق عليه[٤] . وتعقيب الزركشي قد زاد المسألة غموضًا أيضًا ، ولقد آثرت أن أذكر هذه التعقيبات ، لتكون نموذجًا من نماذج القدماء وفلسفتهم ، وجريهم خلف المعاني العقلية ، وكما هو معروف فإن البيان ذوق أكثر منه عقل[٥] .

وبنفس وسيلة العقاب السابقة : « الريح » يعاقب الله الكافرين ، ويعذبهم في يوم نحس مستمر، اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[٦] . شُبهوا بالأعجاز ، لأن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيّبه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فيسقط على الأرض فتنثلغ رأسه به ، ولأنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتًا ، وهم جثث طوال كأنهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من قعورها ساقطة على الأرض[٧].

ونظير هذه الآية قوله في سورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[٨] . فهاهم في منظر معروضين تتملاه العيون ، صرعى : مصروعين

---

(١) انظر : الإيضاح : ١ / ٢٤٤ . (٢) التبيان : ٢٤٦ .
(٣) الإشارات والتنبيهات : ٢٢٠ . (٤) البرهان : ٣ : ٤٤١ .
(٥) سبق تناول الآية بإسهاب في الفصل الأول . ص
(٦) القمر [٢٠ ، ٢١] .
(٧) انظر : تفسير الرازي : ٢٩ / ٤٧ ، وتفسير البيضاوي : ٧٠٢ ، وتفسير النسفي : ٤ / ٢٠٣ ، والبحر المحيط : ٨ / ١٧٨ ، والتسهيل : ٤ / ٨١ .
(٨) الحاقة : [٦ ، ٧] .

متناثرين ، كأنهم أعجاز نخل متآكلة ، فارغة ساقطة على الأرض ، هامدة ... « فهل ترى لهم من باقية ؟ » لا !! فليس لهم من باقية [١] .

ثم يصور القرآن تمزيق أبدان الكافرين في صورة حسية للتمزيق البدني : إما بفعل الصيحة كما في قوله تعالى : ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [٢] ، وإما بفعل الأحجار التي رمتهم بها الطير ، في قوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ [٣] . فقوله : « فكانوا كهشيم المحتظر » أي كيبيس الشجر إذا بلي وتحطم وتفتت ، بمعنى بادوا عن آخرهم ، ولم تبق منهم باقية [٤] .

ويمكن أن تؤدي العبارة معنى فنائهم وتحطيمهم لو قال : « فكانوا كالهشيم » ، ولكنه أراد أن يؤدي معنى آخر بهذا القيد : وهو الازدراء ، وأنهم لا كرامة لهم ، ولا آدمية ، وإنما هم كهذا الهشيم الموطوء ، بالدواب ، تبول عليه وتروثه ، وفيه من الإهانة والضياع والحرمان ما فيه .

« ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم في الجحيم ، أي كانوا كالحطب اليابس الذي للوقيد ، وهو محقق قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أو ماتوا فكانوا كالحطب الذي لايكون إلا للإحراق ، لأن الهشيم لايصلح للبناء [٥] .

أما قوله : « فجعلهم كعصف مأكول » : فمعناه : كزرع وتبن أكلته الدواب ، ثم راثته فيبس ، وتفرقت أجزاؤه ، شبه تقطيع أوصالهم ، وتفرقها بتفرق أجزاء الروث ، وذلك كناية عن مصيرهم إلى العذرة ، فإن الورق إذا أكل انتهى حاله إلى ذلك [٦] .

فالتعبير كما يقول الرازي – نقلاً عن الزمخشري – [٧] جاء على طريقة قوله : « كانا يأكلان الطعام » ؛ لأن رهافة حس القرآن تومىء إلى مثل هذه المعاني بالكنايات والإشارات

---

(١) انظر : تفسيرالرازي : ٣٠ / ١٠٥ ، وتفسير الخازن : ٧ / ١٤٣ .

(٢) القمر : [٣١] . (٣) الفيل : [٥] .

(٤) انظر : تفسير البيضاوي : ٧٣ ، والنسفي : ٤ / ٢٠٤ ، والخازن : ٦ / ٢٧٦ ، والبحر المحيط : ٨ / ١٧٩ ، وابن كثير : ٤ / ٢٦٥ .

(٥) انظر : تفسير الرازي : ٢٩ / ٥٦ .

(٦) انظر : الطراز : ١ / ٢٩٦ ، وتفسير الخازن : ٧ / ٢٩٦ ، والبحر المحيط : ٨ / ٥١٢ ، وابن كثير : ٤ / ٥٥٣ ، وتفسير النسفي : ٤ / ٢٧٧ ، والبرهان : ٢ / ٣٠٥ .

(٧) انظر : تفسير الرازي : ٣٢ / ١٠١ ، ١٠٢ ، والكشاف : ٤ / ٢٨٦ .

اللطيفة . وهذا التشبيه – إذن – يفيد هلاكهم ، وأنهم صاروا إلى حال أخرى في أجسادهم ، بخلاف الصورة الأولى صورة الهشيم ، فإنهم تهشموا وبقيت أوصاف أجسادهم كما هي وإن كانت محطمة تطؤها الدواب ، أما هؤلاء فقد كانوا أكثر احتقاراً ممن سبقوا ، ومعنى الاحتقار والإهانة في التشبيه بيّن واضح ، وفي ملاحظتنا أن هذا النوع من التشبيه كثير جداً في القرآن .

ثم يشبه القرآن الكافرين في استئصالهم فيقول : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [١] فالحصيد هو الزرع المحصود ، أي جعلناهم مثل الحصيد ، شُبهوا في هلاكهم بالزرع المحصود ، كما تقول : جعلناهم رماداً ، أي مثل الرماد ، ومعنى خامدين : أي موتى ، وهو تشبيه بخمود النار فأصل الخمود للنار ، والآية استعارة .

ومن حق الاستعارة – كما يقول العلوي – أن يكون المستعار له مطوي الذكر ، وكلما ازداد خفاء ، ازدادت الاستعارة حُسناً ، فإن أدخلت على الاستعارة حرف التشبيه فقد وضعت تاجها ، وسلبتها ديباجتها [٢] ، وهذه خاصية من خاصيات الاستعارة القرآنية .

ولم يقتصر مصير الكافرين الدنيوي على الكافرين من الأمم السابقة فقط ، ولكنه شمل – كذلك – الكافرين من أمة محمد ﷺ – قال تعالي : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ [٣] . قال ابن كثير : « هذا مثَل أريد به أهل مكة – وهو ما عليه أكثر المفسرين – فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لايخاف ، يأتيها رزقها هنيئاً من كل مكان ، مع أنهم في واد جدب غير ذي زرع ، ثم إذا رسول منهم يعرفونه ، صادقاً أميناً ، يبعثه الله لهم وللعالمين ، فإذا هم يكذبونه ، ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف [٤] .

وقال آخرون : جعل الله الآية مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم ، فأبطرتهم النعمة فكفروا ، فأنزل الله بهم النقمة ، فالآية – إذن – تهديد بالعذاب العاجل يتضمن الزجر عن الكفر بأنعم الله ، وعن تكذيب رسله [٥] .

---

(١) الأنبياء[١٥] .

(٢) انظر : ١ / ٢١٢ ، والتفسير الكبير : ٢٢ / ١٤٦ ، والتسهيل : ٣ / ٢٣ ، ومفتاح العلوم : ٣٨٩ .

(٣) النحل[١١٢] .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٨٩ .

(٥) انظر : تفسير الخازن : ٤ / ١٢٠ ، وتفسير البيضاوي : ٣٦٧ ، والإمام في أدلة الأحكام : لوحة : ٢١ .

« فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » : أصل الذوق بالفم ، ثم يستعار فيوضع موضع التصرف وهو الاختبار فتقول : ناظِرْ فلانًا ، وذُق ما عنده ، قال الشاعر :

ومن يَذُقْ الدُّنْيَا فإنِّي طَعِمْتُهَا   وسِـيقَ إلينـا عَذْبُهَـا وعذَابها

ولباسُ الجوع والخوف : هو ما ظهر عليهم من الضمور ، وشحوب اللون ، ونهكة البدن ، وتغيُّر الحال ، وكسوف البال ، وإن يحمل لفظ «اللباس» على المماسة فمعناه : فأذاقها الله مساس الجوع والخوف [١] .

ويتضح هنا أن القرآن يجسِّم الجوع والخوف ، فيجعله لباسًا ، ويجعل الكفار يذوقون هذا اللباس ذوقًا ؛ لأن الذوق أعمق أثرًا في الحس من مجرد مساس اللباس للجلد ، ويتضاعف مس الجوع والخوف أمام الكافرين لعلهم يشفقون من تلك العاقبة فيثوبون إلى رشدهم ، فيحتمون بحمى الإيمان ، ولعل هذا هو سر هذا التصوير والتجسيد للمعنى ، ولذلك قال : «بما كانوا يصنعون» ، أي بسبب تكذيبهم للنبي ﷺ ، وإخراجهم له من مكة ، وهمهم بقتله .

والسؤال الذي من حقه أن يُطرح بشأن الآية هو : لم قال – تعالى – ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ، ولم يقل : « فأذاقها الله طعم الجوع والخوف » ، ليلائم قوله : فأذاقها ؟ ولم قال : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ ، وبين اللباس والطعام تنافر – ولم يقل : «فكساها» ؟ .

قالوا : فأذاقها الله طعم الجوع والخوف ، لأن الطعم وإن لاءم الإذاقة فهو مفوِّت لما يفيده لفظ «اللباس» من بيان أن الجوع والخوف عم أثرهما جميع البدن عموم الملابس [٢] . فحصل من لفظ «اللباس»المبالغة في العموم والاشتمال ، فلأجل هذا كان الأولى ذكر اللباس ليحصل المعنيان جميعًا . وقال تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا ﴾ ولم يقل : « فَكَسَاهَا » ؛ لأن الذوق أبلغ في الإحساس ، وأدخل في الإيلام من قوله : «فكساها» [٣] .

وذكر البيانيون أن الآية اشتملت على أربع استعارات ، وهي من المجازات البليغة والاستعارات الرشيقة [٤] ، وهذه الاستعارات كلها متلائمة ، وفيها من التناسب ما لاخفاء فيها،

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ٢٠ / ١٢٧ : ٢٩ .

(٢) انظر : الإيضاح : ٢ / ١٤١ ، وشرح التلخيص للبابرتي : ٥٧٥ .

(٣) انظر : الطراز : ١ / ٢٢٦ ، وصفاء الكلمة القرآنية : ١٩٢ .

(٤) الأولى : استعارة القرية للأهل على طريقة المكنية ، والثانية : استعارة الذوق للباس (على طريقة التحقيق أو التخييل) ، والثالثة : استعارة اللباس للجوع والخوف ، والرابعة : استعارة اللباس للخوف . انظر : الطراز : ١ / ٢٢٦ .

وذم ابن سنان هذا النوع من الاستعارة المبنية على استعارة أخرى ، ورفض ابن الأثير هذا القول ، وقال : « إن ذلك شذ عنه ، لأن الأصل – في نظره – إنما هو التناسب ، فإذا كانت الاستعارة الأولى مناسبة ، ثم بنى عليها استعارة ثانية ، وكانت أيضًا مناسبة فالجميع متناسب ، وهذا أمر برهاني لايتصور إنكاره [١] .

وأفاض البيانيون في أقسام هذه الاستعارات ، والذي يلوح من كلام القوم في هذه الآية أن في لباس الجوع استعارتين إحداهما : تصريحية ، والأخرى مكنية [٢] ومنهم من قال إنها تجريدية [٣] أو مجردة [٤] ؛ لأنه نظر فيها إلى المستعار وهو اللباس ، فجردها بلفظ الإذاقة ، ولو أراد ترشيحها لقال :«فكساها» [٥] ، وحملها بعضهم على التخييل ، وهو بعيد في نظر الطيبي [٦] ؛ لأن الله تعالى – لما ابتلاهم لكفرهم باتصال هاتين البليتين ، ولما استعار «اللباس» ههنا مبالغة في الاشتمال عليهم ، أخذ الوهم في تصوير ما للمستعار منه من التغطية والستر، والاسترسال رعاية لمزيد البيان في ذلك [٧] .

وحملها بعضهم على التحقيقية [٨] ، وذكر بعضهم أنه يحتمل أن تكون عقلية [٩] ، ويقويه ظاهر كلام الزمخشري ، بأن يستعار اللباس لما يغشى الإنسان ، والتبس به من بعض الحوادث ، ثم أطلق اللباس ، وأريد به ذلك .

---

(١) انظر : المثل السائر : ٢ / ١١٣ ، وهذا برهانه قال : « ألا ترى أن المنطقي يقول في المقدمة والنتيجة: ' إنسان حيوان ، وكل حيوان نام ، فكل إنسان نام ، وكذلك يقول المهندس : إذا كان خط (أ ب) مثل ا (ب جـ) وخط (ب جـ) مثل خط (جـ د) فخط (أ ب) مثل خط (جـ د) ، وهكذا » .

(٢) التصريحية هي أنه شبه ما غشي الإنسان عند الجوع والخوف من بعض الحوادث باللباس لاشتماله على الملابس . استعير له اللباس ، وأما المكنية فهي أنه شبه ما يدرك من أثر الضر والألم ، بما يدرك من طعم المر البشع ، حتى أوقع عليه الإذاقة .

(٣) والتجريد أن تنظر إلى جانب المستعار له ثم تأتي بما يناسبه ويلائمه . انظر : البرهان : ٣ / ٤٣٨ .

(٤) انظر : بديع القرآن : ١٩ .

(٥) انظر : روضة الفصاحة : ١٠٤ وإنما لم يقل ذلك ، لأن التجريد أبلغ من الترشيح ، لأن الإدراك في الإذاقة بالذوق ، وهو يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس ، فكان في الإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف الكسوة .

(٦) انظر : التبيان : ٢٣٤ .   (٧) انظر : الطراز : ١ / ٢٣٧ .

(٨) وهو أن يستعار لما يلبسه الإنسان عند جوعه من انتقاع اللون ورثاثة الهيئة ، وعلو الصفرة ، وركة الحال وحصول القلق . انظر : مفتاح العلوم : ٣٧٨ .

(٩) بأن يستعار اللباس لما يغشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث ، ثم أطلق اللباس وأريد به ذلك . انظر : الإيضاح : ٢ / ٤٠٩ ، والتبيان : ٢٢٤ .

والملاحظ على البيانيين في تناولهم لهذه الآية كثرة النقل عن الزمخشري ، وحق لهم ذلك ، فها هو ابن المنير يعلق على كلام الزمخشري في الآية بقوله : « وهذا الفصل من كلامه – يقصد الزمخشري – يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر ، لا بالحبر »[١] .

مصيرهم في الآخرة :

ويتناول البيان القرآني الكافرين فيصور ما يجدونه يوم القيامة من ذلة وخزي ، ويرسم وجوههم وقد علتها الكآبة ، فيقول : ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾[٢] . لما كانت ظلمة الليل نهاية في السواد ، شبه سواد وجوههم بقطع من الليل حال اشتداد الظلمة ، وهذه مبالغة في سواد الوجوه ، وهذا السواد الذي يصيب الوجوه ليس لونًا ولا صبغة ، وإنما هو قطعة من الليل المظلم غُشيت بها وجوهُهم ، فصارت ملفعة بأغشية من الليل البهيم[٣] . وقد جاء مصرحًا بهذا السواد في موضع آخر : ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ، وفي ذلك دلالة على ذلهم وخزيهم .

ولايتوقف العذاب عند مجرد سواد الوجوه ، ولكنهم فوق ذلك يطردون من رحمة الله – تعالى – ولاينظر إليهم ، وتتلقاهم الملائكة بضرب وجوههم وأدبارهم ، قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾[٤] والمقصود بأدبارهم : أستاهم ، ولكن الله يكني[٥] ، وأمثال هؤلاء لايُنظر إليهم ولايُعتد بهم يوم القيامة .

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٦] .

ثبت أن هذه الكلمات عند البيانيين كناية عن شدة الغضب . وأما المراد من قوله : « ولاينظر إليهم » : إنه مجاز عن الاستهانة بهم ، والسخط عليهم ، تقول : فلان لاينظر إلى فلان ، تريد نفي اعتداده به ، وإحسانه إليه ، وأصله كناية ؛ لأن من اعتد بإنسان التفت إليه ، أعاره نظر عينيه ، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان[٧] .

قال ابن عبد السلام : «تجوَّز بترك الكلام عن الغضب ، لأن الهجران وترك الكلام يلازمان الغضب غالبًا ، وتجوز بنفي النظر عن الإذلال والاحتقار ، لأن الاحتقار بالشيء يلازمه في

---

(١) انظر : الانتصاف من الكشاف : ٢ / ٤٢١ .   (٢) يونس [٢٧] .

(٣) انظر : تفسير الرازي : ١٧ / ٨٠ ، وتفسير الخازن : ٣ / ١٨٧ ، والبحر المحيط : ٥ / ١٤٧ ، وتفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٥ .

(٤) محمد [٢٧] .   (٥) انظر : البرهان : ٣ / ١٤٤ .

(٦) آل عمران [٧٧] .

(٧) انظر : البرهان : ٢ / ٣١٠ ، وهو نفس كلام الرازي . انظر : التفسير الكبير : ٨ / ١٠٦ .

الغالب الإعراض عنه»[١] .

ويقال لهم يوم القيامة :﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[٢] يقول صاحب الدر المصون – فذوقوا من باب الاستعارة ، جعل العذاب شيئًا يُدرك بحاسة الأكل والذوق ، تصويرًا له بصورة ما يذاق »[٣] والإذاقة استعارة فاشية في القرآن ، منها قوله : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ، وقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[٤] ، خوطب بذلك أبو جهل على سبيل الاستهزاء ، والمراد : إنك أنت بالضد منه – وقال الشاعر :

أذقناهم كئوس الموت صرفًا　　　وذاقوا من أسنتنا كئوسًا[٥]

الذوق الحقيقي هو إدراك طعوم المطعومات،ثم يتجوز به عن إدراك ألم المؤلمات ، وضرر المضرات ، وخزي المخزيات ، فهو مجاز تشبيهي[٦] .

وتكثر آيات القرآن من الحديث عن جزاء الكافرين ، ويستخدم في ذلك الأسلوب المباشر الذي لايخلو من بلاغة العبارة كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾[٧] .

وأتى بـ «على» تنبيهًا على أن اللعنة قد استعلت عليهم وشملتهم ، كما في قوله : ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[٨] .

ومن صور العقاب النفسي الذي يراد منه التأثير في نفوس الكافرين الإنذار بالعقاب في معظم سور القرآن كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٩] ، وأليم هنا – بمعنى : مؤلم ، ويجوز أن يكون فعيل هنا – للمبالغة ، مُحَوَّلاً من"فعِل"بكسر العين ، وعلى هذا يكون نسبة الألم إلى العذاب مجازًا لأن الألم حل بمن وقع به العذاب ، لا بالعذاب ، فهو نظير قولك : شعر شاعر[١٠] .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١١] ؛ والعذاب مثل النكال ، بناء ومعنى ، لأنك تقول : أعذبَ عن

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز : ١١١ .
(٢) الأنفال[٣٥] .
(٣) انظر : الدر المصون : ٣ / ٢٤٦ .
(٤) الدخان[٤٩] .
(٥) انظر : البرهان : ٢ / ٣١٤ .
(٦) الإشارة إلى الإيجاز : ١٠١
(٧) البقرة : [١٦١ ، ١٦٢] .
(٨) انظر : الدر المصون : ١ / ٥٠٦ .
(٩) الشورى [٤٢ ، ٢١] وسور أخرى .
(١٠) الدر المصون : ١ / ١٣٠ .
(١١) الجاثية [١٠]

الشيء إذا أمسك عنه ، والفرق بين العظيم والكبير : أن العظيم يقابل الحقير ، والكبير يقابل الصغير ، فكان العظيم فوق الكبير ، كما أن الحقير دون الصغير [١] .

وبشّرهم القرآن بعذاب على سبيل التهكم فقال : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٢] والآية من الاستعارة التهكمية بدل فأنذرهم ؛ لأن البشارة إنما تستعمل في الشر لا في الخير ، والمراد هنا : العذاب والويل [٣] .

استعيرت البشارة التي هي الإخبار بما يظهر سرور المخبر به للإنذار الذي هو ضدها بإدخاله في جنسها على سبيل التهكم ،وهذا النوع من الاستعارة يعرف بالتهكمية أو التمليحية أو العنادية [٤] .

وهناك مشاهد أخرى تتحدث عن مصير الكافرين يوم القيامة ، وتصف طعامهم وشرابهم، وما أعد لهم من عذاب سنتناولها بالتفصيل في الفصل الخاص بالدار الآخرة ، وكلها مشاهد رائعة ، لإيراد منها التنويع الأسلوبي أو البياني ، بمقدار ما يراد منها التأثير النفسي والدفاع عن دعوة الإسلام بين قوم صمموا على الكفر ، ومحاربة النبي ﷺ وصحبه . ثم تقرير الحقائق التي سيواجهها المؤمنون ، والكافرون على السواء ، ثم كان البيان وسيلة من وسائل هذا الإقناع للمعارضين .

هذا هو المصير الذي يلقاه الكافرون ، وهو نهاية الصورة الواضحة عن هذا النموذج البشري الذي عنى القرآن بتصويره ؛ لأنه جزء من المجتمع الذي قامت فيه الدعوة القرآنية ، ولأنه أحد نماذج ثلاثة واجهت دعوة الإسلام ، منهم المؤمن ، ومنهم المعارض ، ومنهم المتردد ، وهذا ما سنبينه في البحث التالي .

---

(١) انظر : تفسير النسفي : ١ / ١٧ . (٢) آل عمران [٢١] .

(٣) الطراز : ١ / ٢٤٨ ، والبرهان : ٢ ٢٨٣ .

(٤)

[ج]

صور المنافقين في البيان القرآني

ثم ننتقل مع القرآن الكريم إلى الصورة الثالثة من صور وأنماط البشر التي تعرَّض لها القرآن ، وهي صورة مخالفة لصورة المؤمن الحقيقي والكافر الصريح المعاند ، الذي أراح المؤمنين بصراحته وظهور عداوته ؛ لأنهم يأخذون منه حذرهم ، ويواجهونه بحيث لايجنح إليهم مَنْ في قلبه إيمان ، وهذه العداوة المسبقة تجعل كل ما يصدر عنهم مرفوضاً - إنها صورة المنافقين وهم محور الشر ، ومدخل المصائب ، لأنهم يظهرون المودة ويخفون العداوة ، ولذلك فقد أكثر القرآن من ذكر أوصافهم ، وهتك أسرارهم ، لخطورتهم على قضية الدين والمجتمع من الكافرين ، لأنهم يعلنون الإيمان باللسان وقلوبهم ممتلئة بالكفر .

وقد تناول القرآن المنافقين في كثير من الآيات والسور بمختلف أوضاعهم النفسية والخلقية والاجتماعية والمصيرية ، وأكد القرآن على أن النفاق مرض نفسي ، وأن المنافقين مرضى في قلوبهم ، ففضحهم وكشف مواقفهم ، وتعدى الكشف الخارجي إلى الغوص في أعماق نفوسهم ، وها هي آيات من سورة البقرة المدنية تقدم لنا صورة رائعة عنهم ، وتحللهم تحليلاً نفسيًا وواقعيًا ، وتبرز التناقض الظاهر بين القول والعمل .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ، فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، ألا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لايَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ألا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لايَعْلَمُونَ ، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١) .

فالخداع صفة من صفات المنافق ، فهو دائم الحديث عن نفسه ، ولايترك عمله يتحدث عنه ، والقرآن يفضح هذه الصورة المظهرية ، ويجازيهم من جنس عملهم فقال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، وجاء في موضع آخر ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (٢) ، وللعلماء في هذه الآية مذهبان : أحدهما : إنها من مجاز

---

(١) البقرة [٨ : ١٦] .

(٢) النساء [١٤٢] .

الحذف « حذف المضاف » كقوله : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ ، تقديره : إن المنافقين يخادعون رسول الله ، والله خادعهم ، فيكون خداعهم رسول الله حقيقياً [١] ، أي يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ أي مجازيهم بالعقاب على خداعهم ، سمي الجزاء باسم الذنب، وذلك أنه تعالى يعطيهم نوراً كما يعطي المؤمنين ، فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورهم ، وبقوا في الظلمة [٢] ، ودليله قوله ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ... ﴾ [٣] .

ويرى ابن القيم أن خدع الله إياهم من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب ، ويجوز أن يكون من مجاز التشبيه ، معناه أنه عاملهم معاملة المخادع بما أخفاه عنهم من إرادة إضرارهم وإهلاكهم [٤] ، وقيل معناه : يخادعون الله في زعمهم ؛ لأنهم يظنون أن الله ممن يصح خداعه [٥] .

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي شك ونفاق ، لأن الشك تردد بين الأمرين ، والمنافق يتردد [٦]، ويحتمل أن يكون مرض القلب حقيقة ، وهو الألم الذي يجدونه من الخوف وغيره ، ويحتمل أن يكون مجازاً بمعنى الشك أو الحسد [٧] ، ولهذا قال:﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ أي ضعفاً عن الانتصار وعجزاً عن الاقتدار [٨].

وهم يفسدون في الأرض ، ولكنهم لايريدون أن يعترفوا بما يقومون به من فساد ، بل يزعمون أنهم مصلحون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ على سبيل التأكد والحصر ، ورد عليهم القرآن رداً قاطعاً بنفس صيغ التأكيد : ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَيَشْعُرُونَ ﴾ ونفى كل نوع من الشك أو التردد في أنهم مفسدون ، رغم أنهم لايشعرون بذلك .

وفي الآيات – أيضاً – ما يكشف عن حقيقة المنافقين ، فهم يزعمون أن الإيمان من شيم

---

(١) انظر : الفوائد المشوق : ٣٧ .

(٢) انظر : تفسيرالرازي : ١ / ٨٣ ، ومختصر تفسير الماوردي ١ / ٢٤٠ ، وتفسير ابن كثير : ١ / ٥٠ .

(٣) البقرة [١٧].

(٤) انظر : الفوائد المشوق : ٣٧ .

(٥) انظر : التسهيل في علوم التنزيل ١ / ٢٧ ، وتفسير النسفي : ١ / ١٩ .

(٦) وفي الحديث : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين » والمريض متردد بين الحياة والموت ، ولأن المرض ضد الصحة ، والفساد يقابل الصحة ، فصار المرض اسماً لكل فساد ، والشك والنفاق فساد في القلب : ١ / ١٩ ، النسفي .

(٧) انظر : التسهيل : ١ / ٢٧ .

(٨) انظر : تفسير النسفي : ١ / ١٩ .

السفهاء ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ والكاف في «كما» يحتمل أن تكون للتشبيه أو التعليل [١] ، ويدحض القرآن حجتهم بنفس الصيغة فيقول : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وجاء بالألف واللام في «السفهاء» ليفيد حصر السفه والفساد فيهم ، وأكده بإنّ وبألا ، التي تقتضي الاستئناف وتنبيه المخاطب [٢] .

قال الإمام النسفي – رحمه الله – : « وإنما ذكر هنا « لايعلمون » ،وفيما تقدم «لايشعرون» ، لأنه قد ذكر السفه وهو جهل ، فكان ذكر العلم معه أحسن،طباقًا له ، ولأن الإيمان يحتاج فيه إلي نظر واستدلال ، حتى يكتسب الناظر المعرفة ، أما الفساد في الأرض فأمر مبني على العادات فهو كالمحسوس» [٢] .

وفي الآيتين معًا ما يؤكد حقيقةً من حقائق المنافقين أنهم محجوبون عن عالم الحقيقة، حتى حقيقة أنفسهم ، لدرجة أنهم لايشعرون ولايعلمون ، وهي غيبة الإحساس وغيبة العلم .

وصورة أخرى من صور التناقض غير الجديرة بإنسان سوي ذكرها عنهم القرآن بقوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، إنه موقف الشخص الذي يلعب بالوجهين ، ثم يفضح نفسه ، ويرد عليهم القرآن بقوله : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، قال الطيبي فيها ثلاثة أقوال :

الأول : تسمية للعقوبة باسم الذنب ، كقوله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ .

الثاني : قيل « يملي لهم » بدليل قوله : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ .

الثالث : قيل : يفعل بهم في الآخرة ما يظهر لهم أنه استهزاء بهم [٣] ، كما جاء في سورة الحديد ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ، هذا لأن الاستهزاء لايجوز على الله تعالى من حيث الحقيقة ، لأنه من باب العبث ، وتعالى الله عن ذلك ، وقد بينا ذلك فيما سبق [٤] .

واستئناف قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ من غير عطف في غاية الجزالة والفخامة ، وفيه أن الله تعالى ، هو الذي يستهزيء بهم الاستهزاء الأبلغ ، الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ، لما ينزل بهم من النكال والذل والهوان ، ولما كانت نكايات الله وبلاياه تنزل عليهم ساعة فساعة قيل : الله يستهزيء بهم ، ولم يقل : الله مستهزيء بهم ، ليكون طبقًا لقوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [٥] .

---

(١) انظر : النسفي : ٣٨/١ .
(٢) المصدر نفسه ، ونفس الصفحة .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) انظر : الفصل الأول : ص ٢٢٥ .
(٥) انظر : تفسير النسفي : ١ / ٢٢ .

ثم تتسع صورة المنافقين في بيان القرآن ، بعد أن حصرتهم في الآيات السابقات ، فيقول تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١) ، ومراد قوله : «اشتروا الضلالة بالهدى» أي استبدلوها ، واختاروها عليه ، لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل ، وذكر بعضهم أن قوله : «اشتروا» مستعار لـ «استحبوا» ، والحكم هنا للفعل المستعار منه (٢) ، غير أن أبي الإصبع ذكر أن «الشراء» ههنا هو المراعى ، وهو الذي رشح لفظي الربح والتجارة للاستعارة ، لما بين الشراء والربح والتجارة من الملاءمة (٣) .

والترشيح أبلغ لاشتماله على تحقيق المبالغة (٤) ، ومبناه على تناسي التشبيه، وإدعاء أن المستعار له هو نفس المستعار منه ، وكان الاستعارة غير موجودة أصلاً ، ولهذا جعل السمين وصاحب التسهيل الآية من المجاز البديع (٥) .

وذكر ابن عبد السلام في «اشتروا» معنى لطيفًا ، هو أن الثمن في البياعات يكون من باب الوسائل ، والثمن من باب المقاصد المهمات التي تتعلق الأغراض بها ، وقد جعل «الهدى» هو الثمن لدخول الباء عليه ، وهي لاتدخل إلاعلى الثمن ، فكأنه يقول : جعلوا المقصود الأهم الذي هوالهدى وسيلة لأخذ الضلالة ، بخلاف ما لو قال : «استبدلوا» ؛ لأن الاستبدال يشعر بالأعلى من الأدنى من المتقابلين (٦) .

فإن قيل كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى ؟ قال الرازي : جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم ، فإذا تركوه ومالوا إلى الضلالة فقد استبدلوها به ، والضلالة : الجور والخروج عن القصد ، وفَقْد الاهتداء ، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين ، ذلك لأنهم قوم آمنوا ثم كفروا (٧) ، ووافقه في هذا الرأي النسفي وصاحب التسهيل (٨) .

أما البيان في قوله : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فهو في إسناد الربح إلى التجارة ، والمعنى فما ربحوا في تجارتهم ، وإسناد الربح إلى التجارة من الإسناد

---

(١) البقرة [١٦] . (٢) انظر : فوائد في مشكل القرآن : ٧٨ .

(٣) انظر : بديع القرآن : ١٩ .

(٤) والاستعارة على ضربين : مرشحة ومجردة ، المرشحة هي التي يُراعى فيها جانب المستعار منه (أي المشبه به) ، وسميت مرشحة لترشيحها وتقويتها بذكر الملائم كما في الآية ، والمجردة هي التي يُراعى فيها جانب المستعار له (أي المشبه) ، وسميت مجردة لتجريدها عن بعض المبالغة .
انظر : جواهر البلاغة للسيد الهاشمي : ٣٢١ .

(٥) انظر : التلخيص : ٣١٨ ، والمطول : ٣٧٨ ، والتسهيل في علوم التنزيل : ١ / ٣٨ ، والدر المصون : ٢ / ٧٢ .

(٦) انظر : فوائد مشكل القرآن : ٧٨ . (٧) انظر : تفسير الرازي : ٢ / ٧٢ .

(٨) انظر : النسفي : ١ / ٢٢ ، والتسهيل : ١ / ٣٨ .

المجازي ، إذ التجارة لاتربح (١) ، فضلاً عن أنه لم يكن هناك ثَمَّ مبايعة على الحقيقة ، غير أن هذا مما يقوّي أمر المجاز .

ولما وقع شراء الضلالة بالهدى مجازًا ، أتبعه ذكر الربح والتجارة ترشيحًا له وتمثيلاً لخسارتهم ، وتصويرًا لحقيقته (٢) ، ونظير ذلك قول الشاعر :

ولما رأيت النسر عزَّ ابن دايةٍ وعشش في وكريه جاش له صدري

لما شبه الشيب بالنسر ، والشعر الفاحم بالغراب ، وهو عبارة عن الشباب مجازًا ، رشحه بقوله : وعشش في وكريه (٣) ، وهذا ما يسمى بالمجاز العقلي ، أو الحكمي (٤) وهو كثير الوقوع في القرآن .

فإسناد الفعل في الآية إلى غير ما هي له عند العقل إذ مكانه الأصلي إسناد الربح إلى أصحاب التجارة ، وقد أنكر صاحب المفتاح وجود المجاز العقلي في القرآن ، ذاهبًا إلى أن هذا النوع من الكلام استعارة بالكناية ، ولم يُسلم له ذلك (٥) .

وكما نفى عنهم الربح في قوله : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ ، نفى عنهم – كذلك – الاهتداء ، فقال : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ، لأن التاجر قد لايربح مع أنه على هدى في تجارته ، وذلك أبلغ في ذمهم ، فلا هم ربحوا ، ولا هم سلموا في رأس مالهم (٦) .

ولاتقف بلاغة القرآن الكريم في تصوير النفاق والمنافق عند حكاية الواقع ولكنها تتعدى ذلك فتضرب المثل لتوضيح الصورة أمام القارىء ، أو على حد قول البيانيين : « زيادة في الكشف وتتميمًا للبيان ، وإظهارًا للأمر ، فإنه أوقع في القلب ، وأقمع للخصم الألد ، لأنه يريك المتخيل محققًا والمعقول محسوسًا ، ويبرز خفيات المعاني ويرفع الأستار عن الحقائق (٧) .

وبعد أن وصف القرآن حقيقتهم ، وصف حالهم ، وما هم فيه من حيرة واضطراب وتخبط فيقول : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَايُبْصِرُونَ ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَايَرْجِعُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) ومنه قوله تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها » ، وقوله : « تؤتي أكلها كل حين » ، وقوله : « حتى إذا أقلت سحابًا ثقالاً » ، فهذه الأفعال في جميع هذه المواضع مسندة إلى غير الفاعل ؛ لأن الأرض لاتخرج الأثقال ، والنخلة لاتؤتي الأكل .

(٢) انظر : تفسير الرازي : ٢ / ٧٢ . (٣) انظر : الدر المصون : ١ / ١٥٤ .

(٤) هو الكلام المراد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل .

(٥) انظر : شرح التلخيص للبابرتي : ١٩٠ . (٦) انظر : مختصر تفسير الماوردي : ١ / ٢٤ .

(٧) انظر : الطراز للعلوي : ١ / ٢٧٨ ، وتفسير النسفي : ١ / ٢٣ .

(٨) البقرة [١٧ ، ١٨] .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي .... ﴾ أي حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً [١] ، والآية من أصدق التشبيه وأحسنه ، وأقربه وأغربه [٢] ، وهي في نظر النسفي تشبيه بليغ لا استعارة ؛ لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون ، والاستعارة إنما تطلق حيث يُطوى ذكر المستعار له [٣] .

ومعنى الآية في نظر البيانيين - إذن - أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة بمفازة ، فاستضاء بها ، وانتفع وأبصر ما حوله ، فاتقى ما يخاف وأمن.فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي مظلماً خائفاً ، وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الإيمان استنار بها واعتز بعزها ، وأمن على نفسه وماله وولده ، فإذا مات عاد إلى الخوف وبقي في العذاب والنقمة [٤] ، وهذا حال من أبصر ثم عمي ، وعرف ثم أنكر ودخل في الإسلام ، ثم فارقه بقلبه ، فهو لايرجع إليه، ولهذا قال : ﴿ لايَرْجِعُونَ ﴾ [٥] .

ووجه تشبيه المنافقين بالذين شُبهوا بهم في الآية ، هو رفع الطمع إلى شيء مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة ، مع تعقيب الحرمان والخيبة ، لانقلاب الأسباب [٦] والآية من التشبيه التمثيلي ، لأن التشبيه متى كان وجهه غير حقيقي (توهمي) ، وكان منتزعاً من عدة أمور (جمة) خُص باسم التمثيل [٧] .

وما الحكمة - إذن - من ضرب المثل للمنافقين بالنار ؟ وما وجه تشبيه المنافقين بصاحب النار التي أضاءت ثم أظلمت ؟ يكاد يجمع البيانيون على أن الحكمة من ضرب المثل للمنافقين بالنار هي من جهات ثلاث :

الأولى : أن المستضيء بالنار مستضيء بنور غيره ، فإذا ذهب ذلك بقي هو في ظلمته ، فكأنهم لما أقروا بالإيمان من غير اعتقاد قلوبهم كان إيمانهم كالمستعار .

الثانية : أن النار تحتاج في دوامها إلى مادة الحطب لتدوم ، فكذلك الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم .

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ١١٥ ، وفوائد في مشكل القران : ٨ ، وتفسير النسفي : ١ / ٢٣ ، وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن أو فيها غرابة .

(٢) انظر : بديع القران : ٦١ .

(٣) انظر : النسفي : ١ / ٢٤ .

(٤) انظر : المثل السائر : ١ / ١٢٧ .

(٥) انظر : الأمثال لابن القيم : ١٧٥ ، وتفسير ابن كثير : ١ / ٥٣ .

(٦) انظر : الإشارات والتنبيهات : ١٩٣ ، والإيضاح في علوم البلاغة : ٢ / ٢٧٣ .

(٧) انظر : مفتاح العلوم : ٣٤٧ .

الثالثة : أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد فيها ضياء ، فشبه حالهم بذلك[(١)] .

أما وجه تشبيه المنافقين بصاحب النار التي أضاءت ثم أظلمت فأجاب عنه صاحب التسهيل من وجوه ثلاثة أيضًا :

الأول : أن منفعتهم في الدنيا بدعوى الإيمان شبيه بالنور ، وعذابهم في الآخرة شبيه بالظلمة بعده .

الثاني : أن استخفاء كفرهم كالنور وفضيحتهم كالظلمة .

الثالث : أن ذلك فيمن آمن منهم ثم كفر ، فإيمانه نور ، وكفره بعده ظلمة ، ويرجِّح هذا القول قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾[(٢)] .

وقد لفتت الصياغة في الآية إلى أشياء معينة منها قوله : ﴿ اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ، وما في السين والتاء من الطلب الملح والكد المجتهد ، ولم يقل القرآن فلما أوقد فكأنه لايملك النار التي توقد وإنما يستجديها،أو لعله يبحث عنها في غمرة الظلام ، والذي يسعى إلى النار بهذا الجهد الجهيد يحس بوحشة الظلام كما لايحس بها أحد من الذين تغمرهم الظلمة ، ووراء ذلك قوة الدافع من الخوف والهول من الظلمة التي تخفق من حوله بأشباحها وأسرارها وأهوالها ، فهو قلق جدًا وحريص على أن يتبين وأن يتعرف على ما حوله ، وقال ﴿ نارًا ﴾ هكذا بالتنكير المشير إلى أنه في هذا الوقت إنما يرجو ضوءًا خافتًا ، ونارًا قليلة تنير إنارة ما تُدفيء صقيع نفسه التي احتوتها الظلمة ، واحتواها دفء القرار والإيمان .

وهذه النار التي استوقدها لم تـضء نفسه ، وإنما أضاءت ما حوله وهو تعبير قرآني رائع لم ينس المنافق المضروب له المثل .

وكلمة (لما) في قوله : ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ فيها معنى المفاجأة والسرعة كأنه ذهب بالنور فور وجوده ، فالأمل ما إن بزغ وشعّ إلا وقد ابتلعته ظلمة اليأس وذهب بددًا .

وللقدماء تساؤلات عجيبة في الآية تَنُمُّ عن فهم دقيق للنص القرآني وربطه بالنظم وهي أقرب ما تكون إلى الأسلوبية الحديثة ، نوردها هنا - لتتم الفائدة ، ونوجز في عرضها خشية الإطالة ، من هذه الأسئلة قولهم : كيف مُثِّلت الجماعة بالواحد في قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ؟ وأجاب البيانيون على التساؤل من وجوه :

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ١/٧٧ .

(٢) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ١/٣٨ .

أحدها : أنه يجوز في اللغة وضع «الذي» موضع «الذين» ، كقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ ، وكقول الشاعر :

وإنَّ الـذي حَانَتْ بَفَلْـجٍ دِماؤُهُـم ... همُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ [١]

الثاني : أن يكون المراد جنس المستوقدين ، وأريد الجمع أو الفوج الذي استوقد نارًا .

الثالث : وهو الأقوى – أن المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد ، حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد ، وإنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد ، ومثله قوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ ... ﴾ [٢] .

الرابع : قد يكون المعنى مثل كل واحد منهم كقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي يخرج كل واحد منكم [٣] .

وتطل علينا تساؤلات أخرى من أسئلتهم الدقيقة التي تزيد المعنى وضوحًا منها : لم قال : " ذهب الله بنورهم"ولم يقل"بنارهم"؟ ولم قال :"بنورهم"ولم يقل"بضوئهم"؟ وغير ذلك من الأسئلة ، وسأحاول قدر الاستطاعة في الإجابة عنها التقاط زبدة قولهم وما اتفقوا عليه .

قال تعالى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ولم يقل : « بنارهم » ليطابق أول الآية ، فإن النار فيها إشراق وإحراق ، فذهب بما فيها من الإشراق وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية ، وفيه أيضًا سر بديع وهو انقطاع تلك المعية الخاصة التي مع المؤمن ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ ، فذهاب الله بذلك النور هو انقطاع المعية التي خَص بها أولياءه ، فقطعها بينه وبين المنافق [٤] .

والملاحظ أن المطابق أن يقول : ذهب الله بضيائهم كقوله ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ ولكنه عَدلَ عن الضياء إلى النور ، لأن الضياء أعم من النور لقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [٥] ، فلو بقي الضياء لم يلزم منه نفي النور ، إذ لايلزم من نفي الخاص نفي العام [٦] ، فضلاً عن أن الضوء فيه دلالة على الزيادة ، فلو قيل ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ، وإنما المراد أنه استأصل هذا النور ، ولم يبق منه شيء ألا ترى كيف ذكر عقبه قوله ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لايُبْصِرُونَ ﴾ ، فذكر الظلمة التي هي ، عدم النور وانطماسه بالكلية ، وجمعها ونكرها ، ووصفها بأنها ظلمة خالصة لا يتراءى فيها شبحان ، وناهيك عما وراء ذلك من فقد التمييز بين الخير والشر والضلالة والهدى.

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي : ١٩٥ .
(٢) انظر : تفسير النسفي : ١ / ٢٣ .
(٣) انظر : تفسير الرازي : ١ / ٧٦ .
(٤) انظر : الأمثال لابن القيم : ٧٦ .
(٥) يونس [٥] .
(٦) انظر : فوائد في مشكل القرآن : ٨١ .

وعدّى الفعل بالباء دون الهمزة في قوله : « ذهب بنورهم » لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك ، وما أخذه الله وأمسكه فلا مرسل له [١] ، ووجه إسناد الذهاب إلى الله يحتمل أن يكون تعالى قد أسند إلى نفسه ذهابًا يليق به كما أسند إلى نفسه المجيء والإتيان ، وقد يكون الإسناد إلى الله ، لأن الكل بفعله ، أو لأن الإطفاء حصل بسبب خفي أو أمر سماوي كريح أو مطر للمبالغة [٢] ، وفيه معنى آخر أنهم بلغوا من السوء وفساد النفس مبلغًا أغضب الله عليهم ، فهم محاصرون في ظلمتهم هذه بالقدرة الآخذة بخناقهم نظرًا لسوء نفوسهم فهم يعانون ظلمة الوجود من حولهم ، وظلمة قلوبهم التي استحقت أن يذهب الله بنورها .

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لايَرْجِعُونَ ﴾ أي هم صم بكم عمي ، ويؤول معناها إلى عدم قبولهم الحق لما سدوا مسامعهم عن الإصغاء إليه وهم سمعاء الآذان ، وأبوا أن ينطقوا به وهم فصحاء الألسن ، وتلمحوا أنوار الهداية وهم بصراء الأعين ، جعلوا كأنما إيفت مشاعرهم ، وانتفت قواهم كقوله الشاعر :

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ ... وإنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عندهُــم أُذُنُ

وقول الآخر :

أَصَمُّ عَنِ الشيءِ الذي لا أُرِيدُه ... وأسمعُ خلقِ الله حين أريدُ [٣]

واختلف علماء البيان في الحكم على الآية من جهة البيان ، فمنهم من سماها تشبيهًا بليغًا لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون ، والاستعارة إنما تطلق حيث ذكر المستعار له [٤] وبعضهم اعتبرها تمثيلاً لا استعارة أيضًا [٥] . وذكر صاحب البحر أن الإخبار عن المنافقين بالصم والبكم والعمي ليس المراد منه فقد الحواس بل هو من باب المجاز ذلك لعدم قبولهم الحق ، والعرب إذا سمعت ما لاتحب ، أو رأت ما لايعجب طرحوا ذلك كأنهم ما سمعوه ، ولا رأوه ، قال تعالى : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ وهذا منتهى الزراية عمن يعطل تفكيره ، ويغلق منافذ المعرفة والهداية [٦] .

أما قوله : ﴿ فَهُمْ لايَرْجِعُونَ ﴾ أي لايعودون إلى الهدى بعد أن باعوه وضيّعوه ، أو عن الضلالة التي اشتروها ، أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقواجامدين في مكانهم لايبرحون، ولايدرون أيتقدمون أم يتأخرون [٧] .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي : ١٤ ، والنسفي : ١ / ٢٣ .
(٢) انظر : الدر المصون : ١/ ١٦٢ ، والبيضاوي : ١٤ .
(٣) انظر : الأمثال لابن القيم : ٩٦٠ ، وتفسير البيضاوي : ١٥ .
(٤) انظر : تفسير النسفي : ١ / ٢٤ . (٥) انظر : تفسير البيضاوي : ١٥ .
(٦) انظر : البحر المحيط : ١ / ٨٢ .
(٧) انظر : تفسير النسفي ١ / ٢٤ ، والأمثال لابن القيم : ٩٦ .

وزيادة في الإيضاح يمضي السياق بضرب الأمثال لهذه الطائفة ، ويكشف عن طبيعتها وتقلباتها وتأرجحها ليزيد هذه الطبيعة جلاء وإيضاحاً ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾[١] ، وهذا مَثَلٌ آخر ضربه الله للمنافقين ، ووجه التمثيل أن الله شبههم في نفاقهم وحيرتهم في الدين ، وفي خوفهم على أنفسهم بمن أصابه مطر فيه ظلمات ورعد وبرق ، فضل عن الطريق ، وخاف الهلاك على نفسه ، وجاء هذا التشبيه على الجملة ليكمل معنى التشبيه المراد ، الذي هو الإخبار عنهم بحالهم في الإسلام ، وترددهم فيه ، فإذا مالوا إليه بالظاهر بما يظهرون منه ، أشبهت حالهم حال من يضيء له البرق فيمشي فيه ، فإذا أغمض إيماضه وقعوا في تلك الظلمات التي في الصيب فلا يهتدون سبيلاً فيقيمون[٢] .

وذكر بعض البيانيين أن التشبيه في الآية على التفصيل ، شبّه دين الإسلام بالصيّب ، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض والنبات والحيوان بالمطر[٣] ، أو شبه القرآن بالصيب ، والصيب إذا نزل كان رحمة للزارع وبلية على المسافر ، فكذلك القرآن كان نزوله رحمة للمؤمنين وبلاء على الكافرين ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ، أو شبه المطر بظاهر إيمانهم وظلمته بضلالهم ، وبرقه بنور الإيمان ، وصواعقه بهلاك النفاق »[٤] .

ويفصل ابنُ جزي التشبيه في الآية بصورة أدق وأوفى فيقول : « المطر مثل للقرآن أو الإسلام ، والظلمات مثل لما فيه من التكاليف الشاقة على المنافقين كالصلاة والصوم والجهاد والانقياد لمحمد ﷺ ، والرعد مثل لما فيه من الوعيد وما خوفوا به ، والزجر لهم ، والبرق مثل لما فيه من البراهين الواضحة والهدى والبيان والوعد بذكر الجنة[٥] ، والمنافقون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم إليه،لأن الإيمان به عندهم كفر والكفر موت[٦] ، فيجعلون أصابعهم في آذانهم ، والمذكور وإن كان هو الإصبع لكن المراد بذلك رؤوس الأصابع ، وهي مجاز مرسل علاقته الكلية[٧] . ونلمح بين يدي هذه الآية – أولئك الكافرين وقد امتلأت قلوبهم رعباً وارتجفت أوصالهم فرقاً ، فلا يلوون على شيء من صوت الصواعق سوى إغلاق آذانهم وملئها بما يصد عنها ما تسمع . وبديهي أن لفظ «الأنامل»

---

(١) البقرة [١٩] . (٢) انظر : بديع القرآن : ٦٢ .

(٣) انظر : التفسير القيم : ١٢٧ ، وتفسير النسفي : ١ / ٢٥ .

(٤) انظر : أدلة الأحكام : ٧ ، ومختصر تفسير الماوردي : ١ / ٢٦ .

(٥) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ١ / ٢٩ .

(٦) انظر : تفسير الرازي : ١ / ٨٠ ، وتفسير الخازن : ١ / ٣٢ .

(٧) انظر : الإيضاح : ٢ / ٣٩٩ .

لايكفي لتصوير الجو النفسي والحالة الشعورية التي انهار فيها أولئك المنافقون وتهالكوا تحت عبئها لأنها صغيرة في حجمها ضئيلة في مهمتها ، فتجاوزها القرآن واستعمل بدلاً عنها لفظ «الأصابع» التي تكبرها حجمًا وتعظم إزاءها دورًا ، وهي في جملة هذا الأمر تصور ما كان عليه القوم من خوف ورعب ، فيبدون في صورتهم وقد حاولوا ما لايتحقق لهم ، إذ كيف تنحشر الأصابع في مداخل الآذان ؟ وأنى يتم لهم ما يريدون تجنبًا لغضب الله عليهم .

وذكر الزمخشري أن المجعول في الأذن من الأصابع هو السبابة ؛ لأن السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن ، وأضاف قائلاً : ألا ترى أنهم استبشعوها فكنوا عنها بالمسبحة والسَّبابة ، والمهلكة والدعّاءه »[1] ، ورفض ابن المنير هذا الرأي ، وقال : «إنه غير لازم أن يسدوا في تلك الحالة بالسبابة ولابد ، فإنها حالة حيرة ودهش ، فأي إصبع أتفق أن يسدوا بها فعلوا غير معرِّجين على ترتيب معتاد في ذلك ، فذِكر مطلق الأصابع أدل على الدهش والحيرة ، أو فلعلهم يؤثرون في هذه الحال سداد آذانهم بالوسطى ، لأنها أصم للأذن ، وأحجب للصوت ، فلم يلزم اقتصارهم على السبابة ، وهذا القول أقرب إلى الفهم من قول الزمخشري لربطه بين الآية وحالة المنافقين الشعورية .

وبيَّن كذلك – أنه إذا كان الغرض تشبيه حال المنافقين بحال أمثالهم من ذوي الحيرة فكيف يليق أن يكنى عن أصابعهم بالمسبحات ، ولعل ألسنتهم ما سبحت الله قط ، ثم إذا كان الغرض من التمثيل تصوير المعاني في الأذهان تصور المحسوسات ، فذلك خليق بذكر الصرائح واجتناب الكنايات والرموز »[2] .

ومما يلفت في صياغة هذا المثل كلمة « صيِّب » وإيثارها على مطر ووابل ؛ لأنها تخيِّل إلى النفس صورة الانصباب المنصب عليهم كأنه الهول ، وكذلك قوله : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ والصيب لايكون إلا من السماء ، أفاد زيادة شخوص صورة «الصيب» ومثولها في الخيال ، وهذا على طريقة قوله : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[3] ، وذلك لإفادة زيادة بيان المعنى وتصويره ، وتثبيته في القلب ، وتجسده في الخيال .

أما قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالكَافِرِينَ ﴾ فمعناه أنهم لايفوتونه ، كما لايفوت المحاط به المحيط ، وهم تحت قهره لايخلصهم الخداع والحيل ، وإحاطة الكافرين بهذا المعنى من باب المجاز[4] .

---

(١) انظر : الكشاف للزمخشري : ١ / ٤٠٨ .

(٢) انظر : الانتصاف على الكشاف على هامش الكشاف : ١ / ٤٠٨ .

(٣) النحل[٢٦] .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير : ١ / ٥٥ ، وتفسير البيضاوي : ١٩ ، والتسهيل : ١ / ٣٩ ، وتفسير الرازي : ١ / ٨٠ ، والكشاف : ١ / ٢١٨ .

ثم تأتي آية أخرى مكمّلة لما سبق – تمثل شدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون ، يقول تعالى : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) ، و"يكاد" في الآية تستعمل لتقريب الفعل جداً «والخطف» هو الأخذ بسرعة ، شبه سرعة وميض البرق بسرعة يد المختطف (٢) . وهم شديدو الحرص والرغبة في الإفلات من هذا الموقف الصعب ، فهم إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم ، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة ، فإذا خفي وفتر لمعانه بقوا واقفين (٣) .

ويختفي هذا المعنى وراء كلمة «كلما» أي كل وقت أضاء لهم فيه ، فهم يحاولون ذلك كلما صادفوا منه فرصة ، ولهذا عقبها بقوله ، وإذا أظلم عليهم قاموا : أي وقفوا في مكانهم وفي ذلك من التهيؤ والاستعداد للحركة والوثب حين تحين الفرصة ، ولهذا فضّلها القرآن عن كلمة «وقفوا» ؛ لأن الوقوف جمود وسكون بخلاف «قام» ، ولهذا تقول العرب : قامت الحرب على ساقها ، ولايقولون : وقفت على ساقها ، ويقولون : قام الماء ، إذا جمد ، وقام عليه : أي حفظه ورعاه ، ولايقولون : وقف عليه ، ليفيدوا هذا المعنى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ ﴾ (٤) ، أي يحفظها سبحانه . وهذه الفروق الخفية بين الكلمات المتشابهة توحي بجمال العبارة القرآنية ، ودقة بيانها وهذا ما أغفله بعض أسلافنا الأفاضل عند تناولهم للنص القرآني من الناحية البيانية .

ومن خلال الفروق السابقة تذهب بنا المعاني البيانية في الآية إلى أن التشبيه جاء على وجهين : أحدهما : تكاد براهين القرآن أن تلوح لهم «للمنافقين» كما يضيئ البرق . والآخر : يكاد زجر القرآن ووعيده يأخذهم كما يكاد البرق يخطف أبصار أصحاب المطر (٥) .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ : فوجود البرق الخاطف في الأصل يذهب بالسمع والأبصار ، ولكن الله أراد بقاءها ليظل العذاب ، والبيان في الآية إن رجع إلى أصحاب المطر فالمعنى : لو شاء الله لأذهب سمعهم بالرعد وأبصارهم بالبرق ، وإن رجع إلى

---

(١) البقرة [٢٠] .
(٢) انظر : الفوائد المشوق : ١٠١ .
(٣) انظر : تفسير النسفي : ١ / ٢٧ .
(٤) الرعد [٣٣] . الرازي : ١ / ٨٠ .
(٥) انظر : التسهيل : ١ / ٣٩ .

المنافقين فالمعنى لو شاء الله لأوقع بهم العذاب والفضيحة [١] - إن الله على كل شيء قدير - ومفعول «شاء» محذوف في الآية لدلالة الجواب عليه [٢] .

ويقول الزمخشري في تعليقه على هذين المثلين : «فإن قلت أي التمثيلين أبلغ ؟ قلت الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ، ولذلك أخر ، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ» [٣] ، وتابعه في ذلك الرأي النسفي في تفسيره [٤] . والقراءة الواعية للنص بعيداً عن شروح القدامى ترى أن مقصود المثل الثاني فريق آخر من المنافقين ، وهم الذين بقي لهم بصيص من النور يرى به ما بين يديه من الهداية أحياناً ، فلمعاني القرآن لمعان يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة ، ويتألق في نظره الحين بعد الحين عندما تحركه الفطرة أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه «ولكنه من التقاليد والبدع في ظلمات حوالك ، ومن الخبط فيها على حال لاتخلو من المهالك ، وهو في تخبطه يسمع قوارع الإنذار الإلهي ، ويبرق في عينيه نور الهداية ، فإذا أضاء له ذلك البرق السماوي سار ، وإذا انصرف عنه يشبه الضلالات الغرارة قام وتحيَّر ، لايدري أين يذهب !!

ثم إنه ليعرض عن سماع نُذر الكتاب ودعاة الحق كمن يضع إصبعيه في أذنيه حتى لايسمع إرشاد المرشد ولا نصح الناصح ، يخاف من تلك القوارع أن تقتله ، ومن صواعق النذر أن تهلكه » [٥] .

---

(١) انظر : النسفي : ١ / ٢٧ .

(٢) ذكر البلاغيون أن مجيء المشيئة بعد "لو" ، وبعد حروف الجزاء موقوفة غير معداة ، ومن يتتبع ما جاء في القرآن وكلام العرب من هذه التراكيب يجد أن المفعول لايكون محذوفاً إلا من جنس جواب «لو» ، ومعنى هذا أن حذفه يطرد في القرآن الكريم إذا كان في حيز «لو» ومنه قوله : «ولو شاء ما فعلوه» أي ولو شاء الله أن لايفعلوه ما فعلوه . ويرى الزركشي أنه يجب التمهل في تقدير مفعول المشيئة ؛ لأن المعنى يختلف بسبب التقدير . أما ظهور مفعول المشيئة فيكون في الشيء المستغرب العظيم كقول الشاعر :

فلو شئت أن أبكي دماً لبكيته ... عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وقوله تعالى : « ولو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى » ، فمفعول المشيئة في البيت أمر مستغرب ؛ لأن بكاء الدم من الأمور المستغربة التي لم يتعودها بشر ، وأكثرها غرابة أن يتخذ الله ولداً لذلك جاء المفعول ظاهراً غير محذوف في الآية. انظر : الإشارة إلى الإيجاز ١٧، ١٨ ، والبرهان ٣/١٦٩، ونهاية الإيجاز : ٢٤٣ ، وتفسير النسفي : ١ / ٢٩ ، ودلائل الإعجاز : ١٠٩ : ١١٥ .

(٣) انظر : الكشاف : ١/ ٢١٤ . (٤) النسفي : ١ / ٢٩ .

(٥) انظر : تفسير المنار للشيخ رشيد رضا : ١ / ١٦٨ ، والأمثال في القرآن . د. محمود بن الشريف . ط . دار الهلال . بيروت . سنة ١٩٦٥ ، ٢٤ ، ٢٥ .

هذا هو شأن هذا الصنف بما يشير إليه المثلان إجمالاً ، ولايلتقط هذه المعاني سوى سبَّاح ماهر ، وها هو أستاذنا الدكتور فتحي عامر يقول : «ومن خلال التمثيلين تذهب بنا المعاني الثانية إلى تصوير نمط من الناس ، أضعف من الضعف في قلوبهم أحقاد ، وفي نفوسهم ضغائن ، يعيشون في خوف دائم وهم مقيم ، والقرآن حين يتناولهم فإنما يصورهم بكل ما يحملون من خطرات فيفتضح أمرهم ، ومن ثم يفزعون عند سماع الآيات ، وتأخذهم رعدة من الذعر والفزع ، ويضعون أناملهم في آذانهم بحركات هستيرية ، توشك أن تنفذ منها أصابعهم . وهؤلاء في كل زمان ومكان ، حين يفتضح أمرهم ، وتجن أفعالهم ، وفيهم يكمن الخطر ، وعلى المسلمين الحذر »[١] .

والملاحظ أن الله – تعالى – ذكر للمنافقين مثلين : مثلاً مائيًا (الصيب) ومثلاً ناريًا ، وهذان المثلان بالماء والنار نظير المثلين اللذين ضربهما الله للكافرين وهما : السراب ، والظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض ، وقد تكلمنا على كل منهما بما أغنى عن إعادته .

وبعد أن مثل القرآن لحال المنافقين عاد فصور طبيعتهم وتصرفاتهم بدقة محكمة ، وهي صورة رائعة شبيهة بما سبق غير أنها تصف موقفهم الذاتي والنفسي إذا دهمهم الخوف ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ ﴾[٢] . فالآية تصفهم بالجبن والخوف ، لأنهم عند الخوف (القتال وأخذهم بنصيب من أعباء الجهاد) تدور أعينهم في أحداقهم عند النظر كحالة من يغشى عليه من الموت ، أو مشبهين به من معالجة سكرات الموت خوفًا [٣] ، أو كدوران عين الذي قرب من الموت وغشيه أسبابه ، فإنه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف[٤] .

ولو اقتصر الحق – سبحانه – على قوله ﴿ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ ﴾ كان كافيًا في المقصود ، لكنه أراد الزيادة على المقدار الذي قُصِدَ من المبالغة فأوغل بقوله : «من الموت» ، إذ حالة المغشي عليه من الموت أشد من حالة غيره ولاشك في أن المنافقين من الجبن والخوف من الموت بهذه المثابة . وذلك الذي دعاهم إلى النفاق ، فإن من كان قوي النفس شجاع القلب لايرتضي النفاق ، إذ هو لايخشى الموت ولايخافه ، وعلى هذا الأساس اعتبر ابن أبي الإصبع الآية من المبالغة[٥] .

---

(١) انظر : المعاني الثانية في نظم القرآن : ٤١٨ .

(٢) الأحزاب [١٩] .

(٣) انظر : تفسير البيضاوي : ٥٥٥ .

(٤) انظر : تفسير الخازن : ٥ / ٢٤٥ .

(٥) انظر : التحرير والتحبير : ٥٧١ .

ومن براعة التصوير لهذه النفسية المريضة في القرآن صورتان طريفتان في آية واحدة ، بل في فقرتين من آية ، ولكنهما معبرتان أصدق تعبير عن الهزيمة النفسية التي يعيش فيها المنافق ، بالرغم من أنها تتحدث عن الجانب الشكلي ، فالشكل هذا – غير مقصود لذاته ، وإنما يراد منه ما يوحى به من انعدام الروح وخرابها من المقومات الخلقية والنفسية . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) .

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم لضخامتها وصباحتها ، والمراد وجوههم لأنه لم ير جملتهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم لزلاقتهم وحلاوة كلامهم ، ويصغي إلى كلامهم (٢) . ذلك أن المنافق دائمًا يحاول أن يظهر بالصورة المريضة ، وهو لاينجح في ذلك إلا بجسمه ، فيصطنع المظهر الجسمي حتى إنه ليعجب عند الرؤية ، وليس غير الرؤية الظاهرة ولذلك قال القرآن : «وإذا رأيتهم» ولم يقل : خبرتهم مثلاً ؛ لأنهم سريعًا ما يُفتضحون .

ثم شبههم بالخُشب المسندة في قلة أفهامهم ، وفي كونهم أشباحًا بلا أرواح خالية عن العلم والنظر ، والخشب التي شبهوا بها ليست قائمة في أشجارها لما قد يكون لها من جمال في ذلك الوضع ، وليست موضوعة في سقف أو جدار أو غيرها من مظان الانتفاع (٣) ، لأنها حينئذ تؤدي عملاً ، ونشعر بمدى فائدتها – وليست مُتَّخذًا منها أبواب ونوافذ لما فيها من الحسن والزخرف والجمال ، ولكنها خشب مسندة غير منتفع بها ، ولهذا أسندت إلى الحائط فخلت من الجمال ، وتوحي بالغفلة والبلاهة ، أو هي كما وصفها المغفور له سيد قطب «ملطوخة بجانب الجدار» (٤) .

والطرافة في الصورة تأتي من المقابلة بين الإعجاب عند الرؤية وبين اكتشاف الفراغ عند السمع ، كأنهم خشب ملطوخة بجانب الجدار خلت من كل قيمة أو مقدار . «وهل هناك نموذج بشري أبلغ في الدلالة على النفاق من هذا النموذج الذي يقدمه القرآن في هذه الصورة البليغة

---

(١) المنافقون [٤ ، ٥] .

(٢) انظر : الفوائد المشوق : ٤٦ ، والبرهان : ٢ / ٢٦٣ ، وتفسير البيضاوي : ٧٢٧ .

(٣) انظر : تفسير الرازي : ١٥/٣٠ ، والتسهيل في علوم التنزيل : ١٢٢/٤ ، وتفسير النسفي : ٨٥/٤، وتفسير الخازن : ٧ / ٩٨ .

(٤) انظر : في ظلال القرآن : ٦ / ٣٥٧٥ .

التي قد توحي بكثير من الصور المشوهة «الكاريكاتورية» عن شخصية المنافق المزدوجة [١] . والواقع أنه من خلال بنيوية العبارة القرآنية نفهم أن المنافقين مجرد أشباح وأجسام بضة ، وكلمات معسولة تستلفت الأبصار والأسماع ، ولكنها ميتة ، لأنهم ظاهر فقط بلا روح .

ويلتقط القرآن صورة لحركة أجسامهم تحدد علاقتهم بين الرسول ﷺ عندما يُعرض عليهم الذهاب إليه للاستغفار لهم ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أي: «عطفوها وأمالوها إعراضًا واستكبارًا» [٢] . وفي هذه الحركة يكمن موقفهم النفسي من هذا العرض ﴿ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وهو موقف لم تحلله العبارة تحليلاً مباشرًا مفصلاً ولا مجملاً ، ولكنها أشارت إليه ، وفتحت الطريق نحوه ، وإذا تأمل القارئ صورة أعناقهم ورؤوسهم وهي تميل وتنعطف فور سماع هذا العرض ، لأدرك ما وراء ذلك من رفض وسخرية وحقد وغيظ على رسول الله ومصادمة ومعارضة لدعوته ، وليس هذا جديدًا على القوم فهم يتعاندون مع نبي الإسلام ولايتساندون معه على الدعوة .

ولهذا عرّاهم القرآن ليبصِّر المؤمنين بهم ، ويكشف لهم نفسيتهم المريضة وذلك لصالح دعوة الإيمان فخوفهم الله من كل صياح من حولهم «يحسبون كل صيحة عليهم» والآية عبارة عن شدة خوفهم من المسلمين ، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا صياحًا ظنوا أن النبي يأمر بقتلهم لخيفتهم ورعبهم ، حتى إذا نادى مناد في المعسكر ، أو انفلتت دابة أو أُنشدت ضالةٌ ظنوه إيقاعًا بهم [٣] .

والقرآن يأبى أن يقبل هذا النموذج بين صفوفه ، ولذلك كشفهم وحذّر منهم فقال : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ ، ذكر الاسم الخاص وأراد العام [٤] . أي هم الكاملون في العداوة ، لأن أعدى الأعداء العدو المداجي الذي يكا شِرك وتحت ضلوعه الداء [٥] والقرآن بهذا قد وضعهم في مكانهم الحقيقي وهو مكان العدو ، وأكد على ذلك بأداة التعريف «أل» في كلمة «العدو» كأنهم العدو الوحيد ولا عدو غيرهم ، ثم أمر النبي ﷺ بالحذر منهم ، وفي ذلك ما فيه من النفي القاطع من المجتمع .

واللافت لنظر الباحث أنها أربع جمل قصيرة في فقرة واحدة « هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » ، وكل منها تعطي جانبًا في لوحة فنية قد لاتستقيم بدون هذا الجانب ، هذه

---

(١) انظر : صراع المذهب والعقيدة أ. عبد الكريم غلاب ، ص ٢٦٢ ، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٣م .

(٢) انظر : تفسير النسفي : ٤ / ٢٥٨ ، والتسهيل : ٤ / ١٢٢ .

(٣) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ٤ / ١٢٢ ، وتفسير النسفي : ٤ / ٢٥٨ .

(٤) انظر : الإشارات والتنبيهات : ٢٣٤ .

اللوحة على بساطتها وقلة آياتها تعطي صورة فريدة للمنافقين وهي صورة فاضحة لموقفهم من الإسلام ، وفيها أيضاً ذم لهم وتبشيع لأفعالهم وتشنيع على أخلاقهم وتحقير من شأنهم ، ولعل هذه هي الدلالات الثانية التي ينبض بها نظم الآيات وبنائها .

هذا هو مصير المنافقين في الدنيا ، وهو مصير لايكفي بالنسبة لفئة لها هذا الموقف من الإسلام والمسلمين ، ولايمكن أن تكتمل الصورة البيانية في قصة النفاق بغير نهاية ، ولاتكون هذه النهاية إلا حزينة تتفق وبدء الصورة وتطورها . لذلك حرص القرآن في أكثر من آية على أن يفضح مصيرهم الأخروي ، بعد أن فضحهم في الدنيا ، ونكتفي بتسجيل صورة واحدة من صور المصير الأخروي ، وهذه الصورة ذكرها القرآن في صورة قصة ليُضفي عليها روح المأساة ، ولينقل القارئ إلى الدار الآخرة كما ينقل صورة الجزاء إلى ذهنه ، وهو التأثير الذي يحدثه التصوير القصصي بشكل لايتوفر فيما عداه . وها هي الصورة كاملة من غير تعليق .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[١] ﴾ ، هذا هو المصير وكفى .... !!

وبعد فلعلنا نلمح أن الحيّز الذي استغرقته رسم الصورة الثالثة – المنافقين في القرآن ككل – قد جاء أكبر من الحيز الذي استغرقه رسم الصورة الأولى والثانية [٢] ، ذلك أن كلاً من الصورتين الأولين فيه استقامة على نحو من الأنحاء ، وفيه بساطة على معنى من المعاني ... الصورة الأولى صورة النفس الصافية المستقيمة في اتجاهها ، والصورة الثانية صورة النفس المعتمة السادرة في اتجاهها ، أما الصورة الثالثة، فهي صورة النفس المريضة القلقة، وهي في حاجة إلى مزيد من اللمسات ، ومزيد من الخطوط كيما تتحدد ، وتعرف بسماتها الكثيرة [٣] .

والملاحظ أن دراسة نموذجي (الكفار والمنافقين) معًا ، يؤكد أن هناك علاقة بينهما ، بل إن المنافقين ليسوا إلا كافرين ، يسترون كفرهم بسبب جبنهم ومصالحهم ، فلا فرق – إذن – بين الكفر الصريح ، والكفر المستتر الذي يعتبر نفاقًا .

---

(١) الحديد [١٢ : ١٥] .

(٢) خاصة إذا فصلنا بيان القرآن للكافرين في زمن النبي ﷺ عن الكافرين في العصور السابقة .

(٣) انظر : في ظلال القرآن : ١ / ٤٥ ، بتصرف يسير .

[د]

اليهود في البيان القرآني

لقد وردت آيات بيانية كثيرة في شأن اليهود تندّد بكفرهم ، وتصور طبائعهم ونفوسهم أصدق تصوير ، فهو يصفهم بالكذب والافتراء ، وقسوة القلب ، والتمرد على منهج الله ، وعدم الانتفاع بهديه ، ونقض عهده ، وكتمان ما تعلموه من علم ، ولهذا كله فرقهم ، وشتّت شملهم في أنحاء الأرض ، بحيث لا يكاد يخلو منهم قطر تتمة لإدبارهم .

وها هو القرآن يحكي نموذجاً من كذبهم وافترائهم في أبشع صورة ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [١] ، يروي المفسرون أن اليهود قالوا هذه المقالة الشنيعة لما أصابتهم سنة جهد ، يعللون بذلك بخلهم ، فغل اليد هنا – كناية عن البخل – ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم ، وطردهم من رحمة الله ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ ، وهذا دعاء عليهم وكذلك كانوا ، فهم أبخل خلق الله على وجه الأرض .

وجاء رد القرآن عليهم بليغاً في وصف الله نفسه بالجود ، فقال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ كناية عن الجود ، وثنيت اليدان في الآية دلالة على فيض العطاء ، كقول العرب فلان يعطي بكلتا يديه إذا كان عظيم السخاء [٢] ، وقد سبق الحديث عن الآية باستفاضة في باب الأسماء والصفات [٣] .

وهذه الآية مثال على عدم تأدب اليهود في الخطاب مع ربهم ، وعلى غرارها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ... ﴾ [٤] أي جهالة من هؤلاء القوم الذين سمعوا قول ربهم ثم قالوا : سمعنا قولك وعصينا أمرك .

﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ أي حب العجل ، منه حذف المضاف إليه ، وهذا النوع يسمى بمجاز النقصان [٥] ويرى ابن أبي الإصبع أن الآية من قبيل الاستعارة ومعناها : تداخلهم حبه ﴿ الْعِجْلَ ﴾ والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب ، وهذا التوجيه أرجح من السابق، لأن الواضح أن الآية استعارة مكنية : شبه حب عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب ، وطوى ذكر المشبه به ، ورمز بشيء من لوازمه وهو الشرب ، ويؤكد ذلك ما ذهب

---

(١) المائدة : ٦٤ . (٢) انظر :التسهيل في علوم التنزيل ١/١٨٢ .

(٣) أنظر : ص ٢٣١ من البحث . (٤) البقرة : ٩٣ .

(٥) انظر : التفسير الكبير ٢/٢٧٤ ، الإشارة إلى الإيجاز ص ٦٠ ، والإشارات والتنبيهات ص ٢٣٦ .

إليه الشريف الرضي بقوله : « وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل ، فكأنها تشربت حبه فمازجها ممازجة المشروب ، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ [١] .

وهذا دليل على بلاهة القوم فما كادوا يرون عجلا من ذهب [٢] يخور حتى نسوا ربهم ، فكما اتهموه بغل اليد فيما سبق ، اتهموا نبيه موسى عليه السلام ، بأنه غير موصول بربه قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ، فَقَالُوا : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ والآية استعارة فإن المستعار منه ولد البقرة ، والمستعار له الصورة التي أظهرها السامري من حلي القبط ، والجامع : الشكل ، والكل محسوس [٣] ، وإنما قال : جسدا : أي جسم بلا روح .

وقوله : ﴿ فَنَسِيَ ﴾ : يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون من كلام بني إسرائيل ، والفاعل موسى ، أي نسي موسى إلهه هنا ، وذهب يطلبه في الطور ، والنسيان هنا بمعنى الذهول ، والوجه الثاني : أن يكون من كلام الله – تعالى – والفاعل هنا السامري ، أي نسي دينه ، وطريق الحق ، والنسيان على هذا بمعنى الترك [٤] .

ونميل إلى الوجه الأول بدليل قوله : ﴿ فَقَالُوا ﴾ ، وضمير الجمع – هنا – يحتمل أن يكون لبني إسرائيل « اليهود » ، وهذا غير مستبعد منهم أن يتهموا نبيهم ، وهم الذين سبق منهم إتهام رب نبيهم بالبخل وغل اليد .

ثم يعترف اليهود بضلالهم فيندمون على ما اقترفوا من هذا الذنب ، ذلك بعد أن وبخهم ربهم وأخبرهم بظلمهم فقال ﴿ .... أَلَمْ يَرَوا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [٥] ثم يصور ندمهم أروع تصوير فيقول : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا : لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٦] ، ولما سقط في أيديهم : كناية عن شدة ندمهم على عبادة العجل ؛ لأن من شأن من اشتد ندمه أن يعض يده غما ، فتصير يده مسقوطا فيها لأن فاه قد وقع فيها ، والنادم إنما يقال له سُقط في يده ، أي عجز عما يريد ؛ لأنه يتحير في أمره ، ويعجز عن

---

(١) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن / ٩ .

(٢) انظر : التلخيص / ٣١٢ ، وشرح التلخيص للبابرتي / ٥٦٧ ، والإشارات / ٢١٩ ، وابن كثير ٢/ ٢٤٧ .

(٣) وهو ذلك العجل الذي صاغه السامري من ذهب القوم الذي كانوا استعاروه من القبط ، فشكل لهم منه عجلاً ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل ، فصار عجلاً جسداً له خوار والخوار : صوت البقر – ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد فقط ، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه أعلمه بذلك وهو على الطور : (فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) .

(٤) انظر : التسهيل في علوم التنزيل ١٧/٢ . (٥) انظر : التبيان / ٢٦٣ ، وتفسير النسفي ٧٧/٢ .

(٦) الأعراف : ١٤٨ ، ١٤٩ .

أعماله ، ويقال في العرف لمن لا يهتدي لما يصنع : « ضلت يده ورجله »[١] ، لأن يد الإنسان مظهر لأكثر أعماله ، فنسب أفعاله كلها إليها كناية ، ويوافق هذا الرأي الذي ذكره الرازي ، ويصدقه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [٢] .

ولهذا يرى الجرجاني أن الأولى أن يقال : إن الكناية في أيديهم لا في سُقط ، وذلك أنَّ جَعْل الأيدي كناية عن نفس الإنسان ظاهر غير منكر ، كما يقول القائل : قد جرى من يديك ، يريد من نفسك ، ويجوز أن يكون من يده [٣] .

وقرىء ﴿ سَقَط ﴾ على البناء للفاعل ، بمعنى وقع العض فيها ، وقيل : معناه : سقط الندم في أنفسهم ، ورأوه ، وعلموا أنهم قد ضلوا [٤] .

وأجمع علماء البيان على أن الوجه الذي من أجله حسُنت هذه الكناية ، وهو لأن السقوط عبارة عن نزول الشيء من أعلى إلى أسفل ، وانتقاله من الأشرف إلى الأخس ضد الصعود مكانا ، ولهذا قالوا : سقط المطر ، وأسقطت المرأة ، فمن أقدم على عمل ، فهو إنما يقدم عليه لاعتقاده أن ذلك العمل كان باطلاً فاسداً ، فكأنه قد انحط من الأعلى إلى الأسفل ، وسقط من فوق إلى تحت ، فلهذا السبب يقال للرجل إذا أخطأ : كان ذلك منه سقطة ، شبهوا ذلك بالسقطة على الأرض ، فثبت أن إطلاق لفظ السقوط على الحالة الحاصلة عند الندم جائز [٥] .

وعلى أية حال فقد رأى بنو إسرائيل أنهم قد ظلموا أنفسهم وقارفوا إثما كبيراً بعبادة العجل فاختار موسى سبعين رجلا منهم للذهاب معه إلى جبل الطور الذي اعتاد أن يناجي ربه فيه- ليقدموا الطاعة والندم على ما اقترفوا .

وبالرغم من ندم بني إسرائيل ، إلا أنهم عادوا فنقضوا العهد مع ربهم على عهد موسى ومحمد عليهما السلام - ، وسجل القرآن عليهم ذلك ، وذمهم وهجاهم في آيات كثيرة ، وندَّد بهم فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ [٧] ، الآيتان إخبار في معنى النهي ، وهو أبلغ من صريح النهي ، لما فيه من إيهام أن المنهي عنه سارع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه فقوله ﴿ لَا تَسْفِكُونَ ﴾ خبر في معنى النهي ، أي لا يسفك بعضكم دم بعض [٨] .

---

(١) انظر : تفسير الرازي ١٥/٨ . (٢) سورة : البقرة / ١٩٥ .

(٣) انظر : الإشارات والتنبيهات / ٢٤٢ .

(٤) انظر : تفسير البيضاوي / ٢٢٣ ، والإشارة إلى الإيجاز ص ١٩٥ .

(٥) انظر : تفسير الرازي ١٥/٨ ، والإشارات والتنبيهات / ٤٤ .

(٦) جزء آية ٨٣/ البقرة . (٧) جزء آية : ٨٤ البقرة .

(٨) انظر : البرهان ٢٦١/٢ ، وتفسير البيضاوي / ١٧ والتسهيل في علوم التنزيل ٥٢/١ .

وتتاكد صفة النقض فيهم من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [(١)] ، والنقض : الفسخ وفك التركيب ، وهو مستعمل في إبطال العهد الموثق ، وساغ استعمال النقض في إبطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين » [(٢)] أشار بنقض عهد الله إلى اليهود ، لأنهم نقضوا العهد الذي أخذ الله عليهم في الإيمان بمحمد ﷺ [(٣)] .

وبسبب هذا النقض من اليهود طردهم الله – تعالى – من رحمته ، ومسخهم ، وضرب عليهم الجزية لردح من الزمان ، فقال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [(٤)] ، أي خالفوا ونقضوا ، ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم ، وليس هناك فعل أشد وأعظم من قسوة قلوبهم من بعد ذلك ، أو قسوتهم على الجملة ، كما يظهر ذلك من توجيه السمين الحلبي للآية فيقول :« والضمير في « يحرِّفون » إنما يعود على اليهود بجملتهم لا على قلوبهم خاصة ، فإن القلوب لا تحرِّف ، إنما يحرِّف أصحاب القلوب ، والمراد بالقلوب نفس الأشخاص ، وإنما عبَّر عنهم بالقلوب ؛ لأن هذه الأعضاء هي محل التحريف ، أي أنه صادر عنها بتفكيرها فيه [(٥)] .

ثم التفت إليهم القرآن على طريق الالتفات فقال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ والآية استخبار فيه إنكار وتعجب لكفرهم ، وهو أبلغ في إنكار الكفر من قوله : ﴿ أتَكْفُرُونَ ﴾ وذكر صاحب التسهيل : أن موضع الآية استفهام ومعناها هنا – الإنكار والتوبيخ ، ونظيره قولك : كيف تطير بغير جناح [(٦)] .

وصوَّر القرآن الكريم تلك القسوة تصويرًا بيانيًا أكثر من رائع فقال : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ

---

(١) البقرة : ٢٧ .

(٢) ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة : يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها ، فنخشى إن أعزك الله وأظهرك أن ترجع إلى قومك ، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ، وهذا ما يعرف بالاستعارة المكنية . انظر : روضة الفصاحة : ١٠٨ ، ومفتاح العلوم : ٤٣٨ ، والمطول : ٣٩٠ ، والبرهان للزركشي : ٣ : ١٣٩ .

(٣) انظر : تفسير النسفي ٣٨/١ ، والتسهيل ٤٢/١ ، والبيضاوي / ١٤٤ ، والرازي .

(٤) النساء / ١٥٤ . (٥) انظر : الدر المصون ٢٢٤/٤ .

(٦) انظر : تفسير البيضاوي : ٢٢ ، والتسهيل في علوم التنزيل : ٤٢/١ ، وتفسير النسفي : ٣٨/١ .

مِنْـهُ الأَنْهَـارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

شبه الله – تعالى – قلوب اليهود في صلابتها وقسوتها ، وأنها لا ينفذ إليها شيء من الخير والحق ، ولا تتأثر به كالحجارة ، والحجارة أوضح ما تصف الغفلة والجمود ، فالتشبيه يفيد أن هذه القلوب لا تثمر الخير أبدًا ؛ لأنها ليست موضعًا صالحًا للإنبات ، وتعطف الآية قسوة القلوب بـ « ثم » ، وهي لا تدل هنا على استبعاد وقوع القسوة بعد جلاء الآية ، وهي إحياء القتيل(٢) .

وهذا معنى دقيق ينهض به الحرف « ثم » ، ويؤكد ذلك الاشارة في قوله « مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ » أي من بعد ظهور الدلالات التي جاء بها موسى – عليه السلام – إذ أشار إلى إحياء القتيل بعد ضربه ببعض البقرة .

﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ بمعنى أن قلوب اليهود ليست كالحجارة في قسوتها ، إنما هي أشد قسوة ، ووصفها الله بأنها أشد قسوة لوجوه :

الأول : لأن الأحجار ينتفع بها من بعض الوجوه، ويظهر منها الماء في بعض الأحوال ، أما قلوب هؤلاء فلا ينتفع بها البته ، ولا تلين لطاعة الله .

الثاني : أن الحجارة لو كانت عاقلة ولقيتها هذه الآية لقبلتها (٣) .

وكان من الممكن أن يقول الله : أو أقسى ، لأنه فعل يأتي منه التفضيل ، ولكنه قصد إلى وصف القسوة بالشدة ، فهي ليست أقسى من الحجارة ، وإنما هي أشد قسوة ، وذكر النسفي أنه لم يقل أقسى لكونه أبين وأدل على فرط القسوة ، وهي في نفسها أشد قسوة، يعني أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بجوهر أقسى منه وهو الحديد (٤) .

وقد طرح الإمام الخازن سؤالا وجيها مؤداه : لم شبه قلوبهم بالحجارة ولم يشبهها بالحديد وهو أشد من الحجارة وأصلب ؟ ، قال : لأن الحديد قابل للّين بالنار ، وقد لان لداود عليه السلام (٥) ، هذ فضلاً عن أن الحجارة لهم بها سابق عهد ، فقد رأوها تنفجر منها اثنتا عشرة عينا ، ورأوا الجبل وهو من الحجارة يندك حين تجلى ربنا عليه وخرَّ موسى صعقا .

أما « أو » في قوله ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ، فلعلماء البيان في معناها

---

(١) البقرة : ٧٤ .

(٢) ويظهر ذلك من خلال الآيتين ٧٢ ، ٧٣ من سورة البقرة .

(٣) انظر : التفسير الكبير للرازي ١٢٨/٣ ، ١٢٩ .

(٤) انظر : تفسير النسفي ٥٧/١ . (٥) انظر : تفسير الخازن ٧٤/١ .

أكثر من قول ، فمنهم من ذكر أنها بمعنى الواو تقديره : فهي كالحجارة وأشد قسوة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ ، وقوله : ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ ، وكقول النابغة الذبياني :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا *** إلى حماماتنا أو نصفه فقد

تريد : ونصفه . ، وقال جرير :

نال الخلافة أو كانت له قدرًا *** كما أتى رَبّه مُوسَى على قدر

يعني : نال الخلافة وكانت له قدرًا .

وتكون « أو » بمعنى « بل » ، وتقديره : فهي كالحجارة بل أشد قسوة ، كقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ ، وقد تكون « أو » ههنا للإبهام وهي بعيدة كل البعد عن معنى الشك كقول أبي الأسود الدؤلي :

أحِبُّ مُحمدًا حبًا شَديدًا *** وعباسًا وحمزة أو عليًا

فإن يكُ حبهم رشدًا أصبه *** وليس بمخطئ إن كان غيا [١]

ومعنى الآية إذن – على هذا التوجيه : فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين : إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة ، وإما أن تكون أشد قسوة من الحجارة ، وقال ابن كثير ، وهذا القول الأخير يبقى شبيهًا بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾، وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ ، أي أن منهم من هو هكذا ، ومنهم من هو هكذا [٢] .

ولعلماء اللغة ، في « أو » أقوالٌ أخرى منها التفضيل والتمييز ، فيكون معنى الآية : أن قلوبهم قاسية ، فبعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة ، وهذا التوجيه رجحه ابن عبد السلام في كتابه . تأويل مشكل القرآن [٣] .

ثم أشار القرآن الكريم إلى الفروق بين قلوب اليهود والحجارة ، فذكر أن من الحجارة ما

---

(١) ولا شك أن أبا الأسود الدؤلي لم يكن شاكا في أن حب من سمي رشد ، ولكنه أبهم على من خاطبه، وقد ذُكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له : شككت ؟ فقال : كلا والله ، ثم انتزع بقول : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » ، فقال أو كان شاكا من أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال ؟

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١١٤/١ .

(٣) انظر : تأويل مشكل القرآن / ٤٣ ، والبرهان ٢٠٩/٤ ، وابن كثير ٢٩/١ .

تعمل فيه الأسباب فينفتق فتنفجر منها الأنهار ، لأنه يصير ممرًا لها ، ومنها ما يتحرك انقيادًا للسنن الكوني التي خلقها الله في الأشياء فينحدر الحجر أو يسقطه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ والهبوط : النزول من أعلى الجبل إلى أسفله ، وخشيتها عبارة عن انقيادها لأمر الله ، وأنها لا تمتنع عما يريد منها ، وقلوب اليهود خلت من هذه المزايا التي توجد في الحجارة ، فهي فضلا عن أنها لا تكون منبعًا للخير في حياة الناس ، فلن تكون كذلك مؤذنة بحركة الخير وانتشاره ، كما تكون الحجارة طريقا لمرور الماء ، « وكأن القرآن يريد أن يقول فقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع »[1] .

هذه هي وجوه المفارقة بين الأحجار واليهود ، غير أن القارئ يعجب كيف يخشى الحجر وهو جماد لا يعقل ولا يفهم ؟ ذكر بعض العلماء أن هذا من باب المجاز ، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة ، كما أسندت الإرادة إلى الجدار ، في قوله : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ . ويذكر الرازي أنه لا حاجة إلى هذا التأويل ، فإن الله يخلق في الأحجار هذه الصفة كما في قوله : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ، وفي الصحيح : « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » ، وكحنين الجذع المتواتر خبره ، وهذا مذهب أهل السنة[2] . وذكر الخازن أنه يجب على المرء الإيمان بذلك وأن يَكِلَ علمه إلى الله[3] .

ونلاحظ أن القرآن ربط بين قلوب اليهود والحجارة وتفجير الماء . فما وجه ذلك ودلالته ؟ ولعل السبب في ذلك أن الماء هو أصل الحياة في مجالاتها الحسية والمعنوية كذلك لا تكون هذه القلوب متلائمة في وجودها مع حركة الإنسانية العامة ، والتي تخضع لسنن الله في الأرض ، وإنما هي في سياق الوجود نشازًا ، ولا شك أن ما تلقاه البشرية من ويلات ونكبات وشرور في جميع أنحاء العالم ترجع في جذورها إلى هذه القلوب القاسية الجاسية من اليهود .

والحقيقة التي يجب أن نقررها هنا – أنه ليس بجديد على اليهود قساوة قلوبهم ونقضهم للعهود والمواثيق ، فقد تخلوا عن التوراة وهم دارسوها وحافظوها ، وهذا يعني أنهم لا ينتفعون بهدي الله ، ولهذا ضرب الله مثلاً للذين أعرضوا منهم عن العمل بالتوراة والإيمان بمحمد ﷺ .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير : ١١٢/١ .

(٢) وأهل السنة يرون في مثل هذه الآيات أن الله تعالى أودع في الجمادات والحيوانات كلاما لا يقف عليه غيره ، فلها صلاة وتسبيح وخشية « وإنْ من شيء إلا يسبح بحمده » ، « والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » .

(٣) انظر : تفسير الخازن ٧٥/١ ، وتفسير ابن كثير ١٢٢/١ .

فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا (١) التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (٢) بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

شبهت الآية اليهود المعاصرين للرسول ﷺ ، الذين كلفوا العمل بما في التوراة ثم لم يعملوا بذلك بالحمار الذي يحمل كتبًا ، وهو لا يدري ما عليه أكتب هي أم صخر أو غير ذلك ، ولأنهم لم يعرفوا التوراة حق معرفتها ، ولم يعملوا بما فيها ، والعادة جارية بتشبيه كل بعيد الفهم ، لا يهتدي للمعنى المراد منه بالحمار ، ولا شك أن هذا ركن من أركان البلاغة لإخراجه الخفي إلى الجلي وإدنائه البعيد إلى القريب(٤) .

والتشبيه مركب (٥) من أحوال الحمار ، وذلك هو حمل الأسفار التي هي أوعية العلم وخزائن ثمرة العقول ، ثم لا يحسن ما فيها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويتعبه ، ووجه التشبيه بين أحبار اليهود الذين كلفوا العمل بما في التوراة ثم لم يعملوا بذلك ، وبين الحمار الحامل للأسفار هو حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء بالانتفاع به مع الكد والتعب في استصحابه(٦) .

واختار القرآن لفظ « الحمار » دون غيره من سائر الحيوانات ، لإظهار الجهل والبلادة ، وذلك في الحمار أظهر وأغلب ، وفي الحمار – كذلك – من الذل والحقارة ما لا يكون في غيره، وأن حمل الأسفار عليه أتم وأعم وأسهل وأسلم ، لكونه ذلولاً سلس القياد ليّن الانقياد ، يتصرف فيه الصبي والغبي من غير كلفة ومشقة ، فضلا عن أن كلمة « الحمار » تُحدث مناسبة لفظية ذات جرس وموسيقي مع كلمة « الأسفار » ، ومن ثم كان ذكره أولى وأليق في هذا المقام(٧) .

---

(١) حملوا التوراة : ليس كالحمل على العاتق إنما هو القيام بما فيها .

(٢) الأسفار : جمع سفر وهو الكتاب الكبير لأنه يسفر عن المعنى إذا قُرئ ، أو هي الكتب من العلم التي يتعب في حملها ولا ينتفع بها . انظر : تفسير البيضاوي /٧٣٥ .

(٣) الجمعة : آية ٥ .

(٤) انظر : التبيان في علم البيان لابن الزملكاني /١٠٨ .

(٥) وإن شئت جعلته من المفرد لتشبيه مطلق الحمار في الغباوة والجهل والبلادة ، وسقوط النفوس عن كريم الخصال ، وشريف الفعال ، وهذه حالة اليهود . انظر الطراز ٢٥٨/١ .

(٦) انظر : روضة الفصاحة /٦٩/٧٠ ، التبيان لابن الزملكاني في /٤٦ ، ومفتاح العلوم /٣٤٩ ، والبرهان ٤٢٢/٣ ، والبحر المحيط ٢٢٦/٨ والإشارات والتنبيهات /١٨٢ وشرح التلخيص /٤٩٤ ، التسهيل ١١٩/٤ .

(٧) انظر : تفسير الرازي ٥/٣٠ ، ٦ .

« ولو شبههم القرآن بالحمار ، وعرى عن وصفه بحمل الأسفار لصح ، لكن في ذكر الحمار والأسفار معانٍ تزيد الكلام بيانًا وحسنًا ، وهي حصول المزاوجة في اللفظ والمقابلة في النظم والملاءمة في المعنى حيث قال : ﴿ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ ، والتوراة خمس أسفار ، فاقتضت البلاغة تكميل معنى التشبيه بذكر الحمل ، لتحصل المزاوجة بين قوله : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ ،والملاءمة بين ذكر التوراة التي هي عدة أسفار ، وبين ذكر الأسفار في قوله : « يحمل أسفارًا » ، فحصل في الكلام بالمزاوجة والملاءمة كمال التشبيه وبيان المعنى[١] .

ويزيد العلوي المسألة وضوحًا فيقول : « فإنك لو قلت فلان يكد نفسه في قراءة الكتب ويتعب نفسه بجمعها ، ويتحمل في التعلم الإصار والمتاعب كلها ، وهو لا يفهم شيئًا ويسكت ، وبين أن تتلو الآية وتقول ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ فإنك تجد مصداق ما قلته فيها[٢] .

ولعل الغرض من الآية هو تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة ، وحمل ما سواها من الأوقار ، لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفيه من الكد والتعب ، والواقع أنهم أسوأ حالاً من الحمير ؛ لأن الحمار لا فهم له ، أما هؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [٣] .

ومع وجاهة ما ذكره القدماء للصورة البيانية في الآية إلا أن لبعض المحدثين ملاحظات عليها منها : أن هذه النتيجة التي استخلصوها من التشبيه في الاية قد تحولت إلى فكرة ذهنية هي الذم بالشقاء ولكنهم زعموا – أي المحدثين – أن المقصود الأهم هو بث روح فنية خاصة تسري لدى المتلقي أو قارئ الآية لتثير أحاسيس وجدانية مختلفة من متابعة حركة ذلك الحمار الذي يكد بلا هدف ، وقد يوّلد لفظ الحمار كثيراً من الصور والتأثيرات الناتجة مما يثيره اللفظ متصلاً بصاحبه ، مع إعطاء صورة تهكمية لحمار يحمل كتبًا .

وعلى ذلك فالصورة التشبيهية في الآية ليست ما يقول البيانيون تولد معنى ذهني من صورة حسية ، فالصورة الحسية لها أيضا دلالاتها وأهميتها ، وهي جزء أساسي في عملية التشبيه ، فقد انتزع القدماء الشبه من أحوال الحمار ، وهو أن يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم و مستودع ثمر العقول ، ثم لا يحس بما فيها ، ولا يفرق بينهما وبين سائر الأحمال التي

---

(١) انظر : بديع القرآن /٦١، ٦٢ .

(٢) انظر : الطراز ٤٣٤/١ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٣٦٤/٤ ، والمطول : ٣٢٥ ، والإيضاح في علوم البلاغة ٣٥٣/٢ .

ليست من العلم في شيء ، « فسواء حمل الحمار كتبًا أو حمل قثاء لن يشعر بمضمون ما يحمل ، وسواء حمل « أوعية العلم » ومستودع ثمر العقول وسواء حمل ما ليس كذلك ، فالأمر لا يعنيه ، بل لعل الثاني سوف تكون صورته أشد إيلاماً لو كان الحمار - مثلا - جائعًا، ويحمل فوق ظهره ما يطعمه »(١) .

﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي بئس مثل القوم المكذبين مثلهم وهم اليهود (٢) ، فالآية هجاء لاذع لبني إسرائيل ، غير أن هجاء القرآن يمتاز بالنزاهة التي ينأى بها عن الفحش ، ويبتعد عن الدنس ، الهدف منه أن تحاسب كل أمة نفسها في أفرادها ومجموعها ، لئلا يكون حالها كحال من وردالنص فيهم ، فيكون حكمها عند الله كحكمهم ، لأن الجزاء على أعمال القلوب والجوارح ، لا لمحياة الأشخاص ، والأقوام لمعاداتهم (٣) .

وهذا مثل يلحق من لم يفهم معاني القرآن ، ولم يعمل بما فيه ، وأعرض عنه إعراض من لايحتاج إليه ، ثم ذم هذا المثل والمراد منه ذمهم ، قال : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ يعني بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله يعني محمدًا وصحبه (٤) . فهذا المثل وإن كان قد ضُرب لليهود فهو متناول من حيث المعني لمن حمل القرآن فترك العمل به ، ولم يؤد حقه ، ولم يرعه حق رعايته (٥) .

ثـم تمضي الآيات في فضح موقف اليهود ، وكتمانهم لما ائتمنوا عليه بالإضافة إلى ترك العمل بما فيها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ : لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَاتَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (٦) .

فالتوراة بين أيديهم يعلمون منها أن ما جاء به محمد حق ، وقد أخذ الله عليهم العهد ، وهو يعطيهم الكتاب أن يبينوه للناس ، ويبلغوه ولا يكتمونه أو يخفوه ، ولكنهم نبذوا هذا العهد مع الله أي الميثاق ، فلم يراعوه أو يلتفتوا إليه ، والنبذ وراء الظهر مَثَلٌ في الطرح وترك الاعتذار، وعدم الالتفات ، ونقيضه جعله نصب عينيه وألقاه بين عينيه وهذا توبيخ من الله وتهديد لهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ . ولقد فعلوا هذه الفعلة ابتغاء ثمن قليل من حطام الدنيا وأعراضها ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ فبئست الصفة صفتهم وبئست البيعة بيعتهم ، وفي هذا تحذير

---

(١) انظر : في البلاغة العربية أ.د. رجاء عيد /١٤٤ .
(٢) انظر : تفسير النسفي ٢٥٥/٤ . (٣) انظر : تفسير الخازن ٨٧/٧ .
(٤) انظر : تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٢٩٧/١ .
(٥) انظر : الأمثال في القرآن لابن القيم /٢١٣ ، واعلام الموقعين ١٩٧/١ ، والتفسير القيم /٤٩٤ .
(٦) آل عمران /١٨٧ .

للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويُسلك بهم مسلكهم ، ذلك لأنهم أخفوا الحق ليتوسلوا به إلى وجدان شيء من الدنيا ، فكل من لم يبين الحق للناس ، وكتم شيئًا منه لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لقلوبهم ، أو لجر منفعة ، أو لتقيّة وخوف ، أو لبخل بالعلم دخل تحت هذا الوعيد ، وكفى به دليلا أنه مأخوذ على العلماء أن يبيِّنوا الحق للناس وما علموه ، ولا يكتمون منه شيئا ، فالآية عامة في كل من علّمَهُ اللهُ علمًا [١] .

ثم تأتي النتيجة الحتمية لما اقترفه اليهود من آثام ، وهي تفريقهم وتشتيتهم في أرجاء الأرض بحيث لا يخلوا قطر منهم تتمة لإدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط ، فقال تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ [٢] يعني فرقناهم وأبعدنا بعضهم عن بعض [٣] .

وإذا كان القطع موضوعاً لإزالة الاتصال بين الأجسام التي بعضها ملتصق ببعض ، كالشجر والخشب أو الثوب وما شابه ذلك ، وإنما يقال في الأقوام تفرقوا ، والجامع بينهما إزالة الاجتماع التي هي في مفهومها ، وهي في القطع أشد [٤] .

فالآية – إذن – استعارة قد أثرت المعنى بما لا نجده في مثل قولنا : وفرقناهم في الأرض أممًا ، وذلك أن التقطيع يشير إلى معنى نفسي خطير هو هذه الوشائج ، والعلائق التي تقوم بين الجماعة القائمة ، والتي هي أشبه باللحمة في الثوب ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ ﴾ تشير إلى تقطيع هذه الصلات والروابط المتلاحمة، والتي تربط بين الأخ وأخيه ، والوالد بولده ، والصاحب بصاحبه ، وفي ذلك تصوير لآثار هذا التمزيق وفعله في نفوسهم ، وربما لا نجد هذا في كلمة « فرقناهم » ومثاله في القرآن : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ والمقصود لقد زال ما بينكم من شبكة المودة وعلاقة الألفة [٥] .

وفي هذا التقطيع – أيضا – الذي يشبه النزع لكل فرقة من هذه الجماعة كما تنزع القطعة من الجسم الحي المتواصل – إشارة إلى المعاناة التي عاناها هؤلاءالذينظلموا أنفسهم ونقضوا عهودهم ، وكتموا علمهم – بهذا التشتيت وهذا التمزيق ، وكأنه شق وتمزيق وتقطيع لهذه الأوصال ، وهذا المعنى نجده ثاويًا وراء كلمة ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ ﴾ ، ولا نجد شيئا منه لو قال: « فرقناهم » .

---

(١) انظر : تفصيل ذلك في تفسير : الرازي ١٢١/٩ ، والبيضاوي /٩٩ ، والتسهيل ١٢٦/١ ، وابن كثير ٤٣٦/١ .

(٢) سورة : الأعراف : ١٦٨ . (٣) انظر : شرح التلخيص للبابرتي /٥٦٥ .

(٤) انظر : تفسير الرازي ١٥/ والقطع هنا يختلف عن قولنا : قطع عليه كلامه ، أو نقطع الوقت بكذا .

(٥) انظر : الإشارات والتنبيهات /٢١٧ ، والإيضاح ٤٢١/٢ ، والتسهيل ٥٣/٣ .

أما قوله :"ومنهم دون ذلك": أي ناس منحطون عن الصلاح ، أو أن منهم الخبيث ومنهم الطيب(١) ، وإن كان خبيثهم أكثر من طيبهم ، والوقائع تثبت ذلك في عالمنا المعاصر .

وبعد . تلك نماذج من المؤمنين والكافرين والمنافقين واليهود ، من الذين واجههم القرآن بالتصوير البياني ، بهدف مجابهتهم بالتصوير والبيان ووضعهم في مكانهم المناسب ، وتؤكد غنى الله عنهم . وقد تناول القرآن هؤلاء جمعًا ليبينهم للمؤمنين في كل عصر ، وليعطيهم حججًا قرآنية يدفعون بها الشبهات التي يأتي بها أمثالهم من المنحرفين عن طريق الإيمان في كل عصر .

ومن الملاحظ أن القرآن يتتبع النموذج البشري في مراحله الفكرية والنفسية وممارساته العملية ، ومصيره في النهاية ، فليس المهم في القرآن هو التصوير الفني للنموذج ، أو تحليل نفسيته فحسب ، ولكن المهم إعطاء الصورة كاملة عن البداية والمصير ؛ ليضع هذا النموذج أمام الإنسان المؤمن فيتبينه ويتعظ به ، وليضع - كذلك - النموذج أكثر من ذلك أمام نفسه ليسير في نفس الطريق أو يتجنبه ، وذلك هو سر البيان القرآني .

وننتقل مع البيان القرآني إلى صورة أخرى من صور البشر في الحياة الدنيا ألا وهي : **المرأة في البيان القرآني** .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي /٢٢٧ ، والتسهيل ٥٣/٢ .

(هـ)

المرأة في البيان القرآني (*)

اعتنى القرآن الكريم بالمرأة في جميع أحوالها ، وخص جانبًا من جوانبه للحديث عنها ، وعرض نماذج لها في قمة إيمانها وفي حضيض غوايتها ، كما ألقى الأضواء على كيدها وصحوة ضميرها،ومع كل آية من الآيات التي تناولها القرآن تبرز المرأة عنصرًا أصيلاً من عناصر البيان حيث تأخذ مكانها فيه كإنسان وكامرأة ، والقرآن الكريم في بيانه للمرأة يكشف عن العوامل النفسية التي تتحكم في سلوكها ومشاعرها ، فالآيات حافلة بالمواقف المتناقضة لنساء كثيرات قدمها القرآن لتقتدي نساؤنا بالصالحات منهن ،ويعتبرن بما حدث للنساء اللاتي خالفن منهج الله ، ولبيان القرآن بهذه الطريقة شأن تربوي له هدف سام وغاية نبيلة .

ومعنى هذا أن القرآن لم يغفل شأن النساء وما لهن من أحكام ، ونبهنا إلى أن لهن مثل الرجال مواقف لها أثرها وفعاليتها في المجتمع ، وفي هذا دليل ناصع وبرهان مبين على أن القرآن الكريم منح المرأة اهتمامًا بالغًا ، ولم يغض من شأنها كما كان حالها قبل الإسلام .

وعناية القرآن بالمرأة شملها في جميع أحوالها سواء كانت كافرة ولها صلة برجل صالح ، أو صالحة ولها وصلة برجل كافر ، أو عذبة لا وصل بينها وبين أحد ، وبيّن حالها بطريق التمثيل وأنها تُعاقب على كفرها وعداوتها للمؤمنين من غير محاباة ، ولاينفعها ما كانت فيه من القرابة، وهذا يجعل الأقارب من جملة الأجانب ، بل أبعد منهم ، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيًا ، فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء ، وها هي آيات تتحدث عن نساء كافرات في بيوت أنبياء ونساء مؤمنات في وسط كفار ، ضربها الله مثلاً للصالحين والصالحات من النساء .

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا (١) صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ . وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ

(*) في القرآن قصص كثيرة تناولت المرأة ولكنا لم نتناولها لقلة ما فيها من صور بيانية من ناحية ، ولعدم تعرض البيانيين لها ، من ذلك قصة أم موسى ، وبنات شعيب وبلقيس ملكة سبأ .

(١) من عبادنا : إضافة تشريف وتعظيم لهم . ذكره الخازن وصاحب البحر . انظر : تفسير الخازن : ٧ / ١٢٣ ، والبحر المحيط : ١ / ٢٩٤ .

﴿ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[١] . اشتملت الآيات على ثلاثة أمثال ، مثل للكافر ومثلين للمؤمنين ، فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولاينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب ، أو صلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال ، فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ﴿ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

امرأة نوح ولوط :

ولو نفعت صلة القرابة والمصاهرة والنكاح مع عدم الإيمان لنفعت الصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما ، كانتا في بيتي نبوة ، ولكنهما خانتا [٢] وكفرتا بالله وكان مصيرهما جهنم ، ولم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من الزواج إغناءً ما ، ولم يشفع لهما أنهما كانتا زوجتي نبيَّيْن ، وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء ، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط .

فقطعت الآية حينئذ طمع من ارتكب معصية الله وخالف أمره واتكل على صلاح غيره من قريب أو أجنبي ، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ، ولم يغن نوح عن ابنه ولا إبراهيم عن أبيه ، ولا نوح ولوط عن امرأتيهما من الله شيئًا[٣] . فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان ، وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء أو أبنائهم أو آبائهم ، وفي هذا بيان للمؤمنين أن المعيار الأساسي الذي يوزن به البشريوم القيامة هو العمل الصالح لا الشفيع ولا الصديق الحميم – وفيه كذلك – إبراز لمبدأ التبعية الفردية يوم القيامة .

آسية امرأة فرعون :

وأما المثلان اللذان للمؤمنين ، فأحدهما امرأة فرعون ، والآخر مريم ابنة عمران ، ووجه المثل أن وصلة المؤمن بالكافر لايضره شيئًا إذا فارقه في كفره وعمله ، كحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله مع كونها زوجة لأكفر أهل الأرض وأظلمهم ، ومريم الطاهرة التي قُذفت من قومها ، والاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدِّقة القانتة .

---

(١) التحريم [١١ ، ١٢] .

(٢) والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط أنها كانت خيانة في الدين لنفاقهما واخفائهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين وإفشاء أسرارهما ، ولاتجوز أن تكون خيانتهما الفاحشة لحديث ابن عباس «ما بغت امرأة نبي قط» . انظر : تفسير النسفي : ٤ / ٢٧٢ .

(٣) انظر : الأمثال لابن القيم : ٢٦٤ ، وتفسير النسفي : ٤ / ٢٧٢ .

فامرأة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه ، ولا أعطاف النعيم الحسي الذي تتقلب فيه ، ولم يعش ناظريها أبهة الملك ولا مظاهر العظمة وألوان الترف في قصر فرعون ، نبذت ذلك كله خلف ظهرها ولم تهتز عقيدتها ، ولم يتضعضع إيمانها ، وإنما أنكرت ما رأت من كفر وجبروت وظلت ثابتة على إيمانها بالله ، وولت وجهها شطر السماء في خضم هذا الكفر الطاغي – تطلب من ربها النجاة ، وأن يبني لها بيتًا عنده في الجنة عوضًا عن قصر فرعون ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ ، ولكن مـــا معنى الجمع بين «عندك» و«في الجنة» . يذكر الرازي أنها طلبت القرب من رحمة الله ، ثم بينت مكان القرب بقولها :« في الجنة »[1] . ودعت ربها أن ينجيها من فرعون وعمله ، وممن يحيط بـه من الظالمين .

مريم البتول :

وها هي مريم تغادر الحياة وقد خلد الله ذكراها إلى يوم الدين في قرآنه الكريم ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ التقدير : واذكر التي أحصنت فرجها إحصانًا كليًا من الحلال والحرام جميعًا [2] ، ولايقبل الزركشي هذا التوجيه فيقول : «أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي ، وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها ، وهي كناية عن فرج القميص [3] ، أي لم يعلق ثوبها ريبة ، فهي طاهرة الثوب ، كما يقال : نقي الثوب وعفيف الذيل [4] . وليس المراد غير هذا فإن القرآن أنزه معنى ، وألطف إشارة ، لا سيما أن النفخ من روح القدس بأمر القدوس»[5] ، وآية ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[6] . تجوّز بالكلمة عن المسيح لكونه تكوّن بها (مريم) من غير أب بدليل قوله : ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[7] ، ولاتتصف الكلمة بذلك[8] ، وأكد القرآن في موضع آخر على طهارتها وبراءتها فقال : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾[9] .

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ٣٠ / ٥٠ .

(٢) انظر : الفوائد المشوق : وتفسير الرازي : ٢ / ٢١٨ ، والكشاف : ٢ / ٥٨٢ .

(٣) وفروج القميص أربعة : الكمان والأعلى والأسفل .

(٤) انظر : البرهان : ٢ / ٣٠٥ ، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٣ / ١٤٤ .

(٥) انظر : البرهان : ٢ / ٣٠٦ . ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام كما هو مفصل في سورة مريم .

(٦، ٧) آل عمران [٤٥] .

(٨) انظر : البرهان : ٢ / ٢٩٧ .

(٩) الأنبياء [٩١] .

﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ : والأصل من القانتات ، فعدت الأنثى من الذكر بحكم التغليب، قال صاحب البرهان : جميع باب التغليب[1] من المجاز «وإنما كان التغليب من باب المجاز ؛ لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له ، ألا ترى أن القانتين موضوع للذكور الموصوفين بهذا الوصف ، فإطلاقه على الذكور والإناث إطلاق على غير ما وضع له»[2] . وتابعه في ذلك صاحب الإتقان .

وخوطبت مريم في موضع آخر بالقنوت ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[3] والآية إما أن تكون أمرًا لها بالصلاة في جماعة كانت مأمورة بأن تصلي في بيت المقدس مع المجاورين فيه ، وإن كانت لاتختلط بهم ، أو انظمي نفسك في جملة المصلين ، وكوني في عدادهم ولاتكوني في عداد غيرهم ، فيكون أمره «واسجدي» أمرًا بالصلاة حال الانفراد . أو أن يكون المراد من الركوع : التواضع ، ويكون قوله «واسجدي» أمرًا ظاهرًا بالصلاة ، أو لعله كان السجود في ذلك الدين متقدمًا على الركوع[4] . والواقع أن مريم ابنة عمران مَثَّل للتجرد لله منذ نشأتها كما هو مفصل في سور أخرى من القرآن .

أزواج النبي :

ثم في هذه الأمثال التي جاءت في سورة التحريم - من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة . ففي التمثيل الأول تعريض بأمي المؤمنين وهما حفصة وعائشة[5] رضي الله عنهما - لما فرط منهما[6] ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده لما في هذا التمثيل من ذكر

---

(١) التغليب : هو إعطاء الشيء حكم غيره ، وقيل ترجيح أحد المغلوبين على الآخر ، وإطلاق لفظه عليهما إجراءً للمختلفين مجرى المتفقين .

(٢) البرهان : ٣ / ٣١٢ .

(٣) آل عمران [٤٣] .

(٤) تفسير النسفي : ١ / ١٥٧ ، وتفسير الرازي : ٨ / ٤٤ .

(٥) **عائشة** : هي ابنة أبي بكر ، تزوجها النبي ﷺ وكانت تكنى بأم عبد الله . توفت سنة ٥٨ هـ ، ودفنت بالبقيع . انظر الإصابة في تمييز الصحابة : ٤ / ٤٥٩ .
حفصة : هي ابنة عمر أمير المؤمنين ، وكانت قبل أن يتزوجها الرسول ﷺ عند معن بن حذافة ، وكان ممن شهد بدرًا ومات بالمدينة ، تزوجها الرسول ﷺ بعد عائشة رضي الله عنها - وماتت لما بايع الحسن معاوية . انظر : الإصابة : ٣ / ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٦) رُوِي في أسباب النزول أن رسول الله ﷺ دخل بأم ولده مارية في بيت حفصة ، فوجدته حفصة معها فقالت : لِمَ تُدخِلها بيتي ؟ ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا هواني عليك . فقال لها : لاتذكري هذا لعائشة - هي عليَّ حرام فقالت حفصة : كيف تحرم عليك وهي جاريتك ؟ فحلف لها =

الكفر (١) . والتحذير لايقتصر على حفصة وعائشة فقط (رضي الله عنهما) بل يشمل أزواج النبي والتحذير من تظاهرهن عليه ، وأنهن مسئولات عن ذواتهن ، ولن يعفيهن من التبعة أنهن زوجات نبي ، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بهما .

ثم ضرب المثل الثاني ليحرضهما (أي حفصة وعائشة) على التمسك بالطاعة ، وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضًا – اعتبارًا آخر ، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئًا قذف اليهود لها ، فبنسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله عنه كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين ، فلا يضر الرجل الصالح قذف الفجار والفساق فيه ، وفي هذا تسلية للسيدة عائشة وذلك إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك ، ذكره ابن القيم (٢) .

كما في التمثيل تحذير لها ولحفصة ما اعتمدتاه في حق النبي ﷺ فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد والتسلية ، وتوطين النفس لمن أوذي منهن ، وكذب عليه ، ويذكر ابن القيم أيضًا – أن أسرار التنزيل فوق هذا أو أجل منه ، ولاسيما أسرار الأمثال التي لايعقلها إلا العالمون (٣) .

وإذا كان الخطاب في سورة التحريم موجهًا إلى بعض أزواج الرسول ﷺ بقوله : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ (٤) الخطاب على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما ، فقد جاء صريحًا في موضع آخر لجميع نساء النبي ، وليس لحفصة وعائشة فقط ، قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ (٥) ، يريد : ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات ، انتن أكرم عليّ ، وثوابكن أعظم لدي (٦) ،

= لايقربها ، وقال لها : لاتذكريه لأحد، فذكرته لعائشة ، فآلى أن لايدخل على نسائه شهرًا ، واعتزلهن تسعًا وعشرين ليلة فأنزل الله ، لم تحرم ما أحل الله لك «ومنها التمثيل السابق» . انظر : أسباب النزول لعلي بن أحمد الواحدي النيسابوري : ٢٥٧ ، ٢٥٨ . تحقيق د. مصطفى البغا . ط . دار ابن كثير . دمشق ١٩٨٨م .

(١) انظر : تفسير الخازن : ٧ / ١٢٣ .

(٢) والصحيح أن قصة الإفك ذكرت في سورة النور ، والنور أسبق نزولاً من التحريم . انظر :النظم الفني للقرآن : ص ٣٥ . أ . عبد المتعال الصعيدي . ط . مطبعة الآداب .

(٣) انظر : الأمثال : ٢٦٧ ، وأعلام الموقعين : ١ / ٢٢٥ ، ٢٢٨ .

(٤) بعض آية [٤] من التحريم .

(٥) الأحزاب : بعض آية [٣٢] .

(٦) تفسير الخازن : ٥ / ٢٥٧ .

لأنه يوجد فيكن من التمييز ما لايوجد في غيركن ، وهو كونكن أمهات المؤمنين ، وزوجات خير المرسلين ، ونزل القرآن فيكن ، فلما أنه ﷺ ليس كأحد من الرجال ، كما قال عليه السلام : «لستُ كأحدكم» (١) ، كذلك قرائنه اللاتي تشرفن به ، ولاشك أنه بين الزوجية نوع من الكفاءة .

كقول القائل : ليس فلان كآحاد الناس ، يعني ليس فيه مجرد كونه إنسانًا ، بل وصف بأخص موجود فيه ، وهو كونه عالمًا أو نسيبًا أو حسيبًا ، فإن الوصف الأخص إذا وجد لايبقى التعريف بالأعم . وهذا التوجيه انفرد به البابرتي دون غيره من العلماء .

ويوجه الزركشي الآية توجيهًا رائعًا فيقول : المعنى لستن كأحد من النساء في النزول ، لا في العلو ؛ لأن التشبيه في الذم يشبه الأعلى بالأدنى ، لأن الذم مقام الأدنى ، والأعلى ظاهر عليه ، وهذا المعنى يتناسب مع الآية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ، أي في سوء الحال ، وإذا كان في المدح يُشَبَّه الأدنى بالأعلى فيقال : تراب كالمسك ، وفي الذم مسك كالتراب (٢) . ويفصِّل ابن المنير المعنى بصورة أكثر فيقول : «لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، ويكون المعنى هنا أبلغ ، والتقدير ليست واحدة منكن كأحد من النساء ، أي كواحدة من النساء» (٣) . هذه هي التوجيهات المميَّزة في الآية من البيانيين ، وما عداها فهو فضلة أو تكرار لما ذكر .

وملاحظتنا هنا – أن القرآن عندما عاتب بعض أزواج النبي ، عرَّض بهن من غير تصريح واكتفى بتصريح الخطاب «يأيها النبي» ، أما عندما أراد أن يتحدث عن مكانتهن لديه صرَّح الخطاب لهن فقال : يا نساء النبي ، وهذا يعلمنا اللطف في الخطاب مع النساء عند معاتبتهن .

ثم يكرم القرآن زوجات النبي ، ويشبهن بأمهات المؤمنين في المنزلة ، فقال : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٥) أي مثلُ أمهاتهم في تحريم النكاح والاحترام ، أو منزلات منزلتهن في وجوب مبرتهن ووجوب تعظيمهن ، وهن فيما وراء ذلك كالإرث ونحوه كالأجنبيات ، ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن (٦) .

---

(١) انظر : شرح التلخيص : ص .

(٢) انظر : البحر المحيط : ٧ / ٢٢٧ ، وشرح التلخيص : ٢٠٨ .

(٣) البرهان : ٣ / ٤٢٩ .

(٤) الانتصاف من الكشاف ، حاشية الكشاف : ٣ / ٢٥٩ .

(٥) الأحزاب بعض آية [٦] .

(٦) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ١٨٢ ، والتسهيل : ٣ / ١٣٢ ، والنسفي : ٣ / ٢٩٤ .

وجعل الله تعالى – زوجة النبي في حكم الأم ، لقطع نظر الأمّة عما تعلّق به غرض النبي ﷺ فإذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات في التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره . والمعقول في جعل أزواجه أمهاتنا هو أنه جعل زوجة الأب محرمة على الابن ، والنبي ﷺ أشرف وأعلى درجة من الأب ، فإن الأب يربى في الدنيا فحسب ، والنبي ﷺ يربي في الدنيا والآخرة ، فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء .

ولكن لم لم يقل : إن النبي أبوكم ، ويحصل هذا المعنى ، أو أنّ أزواجه أزواج أبيكم ، يقول البابرتي : لعل ذلك لحكمة : وهي أن النبي ﷺ لأنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي، فلو قال : أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد»[1] . وهذا تعليل غير سديد من البابرتي ، لأن النبي ﷺ لم يكن ليتطلع إلى زوجه تحت عصمة غيره ، فهو أرفع من مثل هذا ، ولم يفعله في حياته قط .

أم جميل :

ونظرة دقيقة لما مر نلاحظ أن القرآن الكريم تحدث عن الزوجة الكافرة مع الزوج المؤمن والزوجة المؤمنة مع الزوج الكافر ، والأزواج المؤمنات مع الزوج المؤمن ، والمرأة المؤمنة التي لا زوج لها لا مؤمن ولا كافر ، والآن جاء دور الزوج الكافرة مع الزوج الكافر ليكتمل التصوير البياني عن المرأة في جميع أحوالها المختلفة ، وهذه المرأة التعيسة تشقى ويشقى زوجها معها ، إنها أم جميل بنت حرب كانت تجمع الحطب – الشوك – لتضعه أمام بيت محمد ﷺ وفي طريقة حتى يدمي قدميه ، ويؤذيه ، وكانت تحس سعادة في ذلك كالسعادة التي كان يحسها زوجها كلما آذى ابن أخيه ، وذات يوم روعت أم جميل على ما نزل من القرآن في شأنها وشأن زوجها . يالها من فضيحة ولعنة تلو اللعنة على شفاه الأجيال إلى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾[2] ، وهذا الوصف لهذه المرأة يشي بالتحقير لها ، لأن القرآن وصفها بمن تحمل حزم الشوك وتربطها في عنقها كفعل الحطابات ، لتجزع هي وزوجها من ذلك ، وهما من بيت عز وشرف ، وقد يكون المقصود من قوله : « حمالة الحطب » مشيها بالنميمة بين محمد ﷺ وقومه ، لأنه يقال المشاء بالنمائم المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم »[3] .

وفي الآيات أيضًا – تصوير حسي لأبي لهب وزوجته ، وهجاء صريح لهما على ما كان منهما من إيذاء وجفاء لمحمد ﷺ ، وهو العم وهي زوجة العم ، إنها الخسة والنذالة والقطيعة

---

(١) انظر : شرح التلخيص : ١٩٥ . (٢) المسد [١ : ٥] .

(٣) انظر : تفسير الرازي : ٣٢ / ١٧١ .

ولهذا كانت عاقبتهما بشعة متناسبة مع قسوتهما وظلمهما للنبي الكريم ، فالزوج جهنمي مصيره إلى اللهب المتناسب مع فعله وموقفه ، والزوجة كذلك تلقى نفس المصير .

ريطة الحمقاء :

ويصف القرآن حماقة المرأة وضعف عزمها ورأيها ، ويضرب المثل بذلك تحقيراً لما صنعت، يقول تعالي : ﴿ وَلاَتَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ .

ذكر البيانيون أن في المشبه قولان : أحدهما : أنها امرأة من قريش يقال لها : ريطة بنت سعد وكانت حمقاء ، تغزل الغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ، فإذا غزلت وأبرمت امرتهن فنقضن ما غزلن [1] .

والقول الثاني : أن المراد بالمثل الوصف دون التعيين ، لأن القصد بالأمثال صرف المكلف عنه إذا كان قبيحاً ، والدعاء إليه إذا كان حسناً ، وذلك يتم به من دون التعيين [2] ، وهذه الآية متصلة بما قبلها ، والتقدير : وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل المرأة التي غزلت غزلاً وأحكمته ، فلما استحكم نقضته فجعلته أنكاثاً [3] . وأنكاثاً : جمع نكث وهو ما ينكث فتله : والمراد تمثيل الناقض بمن هذا شأنه [4] ، وتحذير للعباد من أن يبطلوا أعمالهم ويبددوا طاقة جهدهم .

وهذا يعني – أيضاً – أن صور النساء في القرآن لاتحمل العبرة والحكمة للنساء فحسب وإنما تحملها للرجال والنساء على السواء .

سارة زوج إبراهيم عليه السلام :

ولم يتوقف اهتمام القرآن بالمرأة الشابة ، ويهمل العجوز ، وها هي عجوز تلقى من القرآن كل الرعاية والاهتمام ، وماذا يشغل العجوز التي حُرمت من الإنجاب ، لاشك إنه الولد ، إنها سارة زوج سيدنا إبراهيم عليهما السلام أولى المؤمنات بدعوته كانت تقف تستمع إلى تحاور الملائكة وراء الستر ، فماذا حدث لها ؟ قال تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَوَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [5] .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي : ٢٩٨ .

(٢) انظر : ابن كثير : ٢ / ٥٨٣ .

(٣ ، ٢) انظر : تفسير الرازي : ٢ / ١٠٨ .

(٥) هود [٧١ : ٧٣] .

واختلف البيانيون في الضحك على قولين : منهم من حمله على نفس الضحك وذكروا فيه وجوهًا كثيرة منها : أنهم بشروها بحصول مطلق الولد فضحكت إما على سبيل التعجب لأنها كانت بنت بضع وتسعين وزوجها ابن مائة سنة ، وعلى هذا ففي الكلام تقديم وتأخير والتقدير : وامرأته قائمة فبشرناها بإسحق فضحكت سرورًا بسبب تلك البشارة ، فقدم الضحك ومعناه التأخير . وقيل : ضحكت سرورًا بالأمن بعد الخوف ، وقيل سرورًا بهلاك قوم لوط (١) . وقيل : ضحكت : كناية بمعنى حاضت (٢) ، قال الشاعر :

وعَهْدِي بِسَلْمَى ضَاحِكًا في لُبَابَةٍ ... ولم تَعْدُ حَقًا ثديها أن تحلما

ومنه ضحكت السمرة إذا سال صمغها (٣) ، وقال بعضهم ضحكت بمعنى طمثت ، والضحك أصله من ضحاك الطلعة ، يقال ضحكت الطلعة إذا انشقت (٤) .

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَـقَ ﴾ : خُصت بالبشارة لأن النساء أعظم سرورًا بالولد من الرجال، وتعجبت سارة غاية العجب ، كيف يحدث لها هذا وهي عجوز نيفت على التسعين من عمرها ؟! «قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخًا» فطمانتها الملائكة بألا تعجب من أمر الله فإنه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون (٥) «أتعجبين من أمر الله» ؟؟!

امرأة العزيز :

ونواجه هذه المرة نموذجًا غريبًا للمرأة ، تبرز فيه عن مشاعرها وأحاسيسها وعواطفها الجياشة ، وتطلب الرجل بصورة متهالكة من غير حياء ، وهي في ذلك كله تستخدم تأثيرها وفتنتها ومغرياتها تحت سقف قصرها ، والمستعلي على القصر هنا ليس المرأة كما سبق - ولكنه الرجل المطلوب يستعلي بعفته ويتأبى على المرأة السافرة ، إنها زليخا ويوسف عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ (٦) قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ٢٣ ، وتفسير النسفي : ٢ / ١٩٧ ، والتسهيل : ٢ / ١٠٨ .

(٢) انظر : الفوائد المشوق : ١٨١ .

(٣) انظر : تفسير البيضاوي : ٣٠١ .

(٤) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ٢٣ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٤٥٢ ، وتفسير النسفي : ٢ / ١٩٧ .

(٦) هيت : قرىء بفتح الهاء وكسرها وبفتح التاء وضمها ، والمعنى في ذلك كله واحد ، وحركة التاء للبناء ، وأما من قرأ بالهمز ، فهو فعل من تهيأت ، كقولك : جئت : ربي في الآية بمعنى : سيدي ومالكي .

وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ [١] ﴾ [٢] .

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ كناية ، أي طلبت زليخا من يوسف ما يكون بين الرجل والمرأة ، والمراودة : المفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ، كأن المعنى خادعته . وغلّقت الأبواب : قيل كانت سبعة ، والتشديد للتكثير والمبالغة في الإيثاق وبعد ذلك دعته دعوة سافرة جاهرة صريحة ، تَجَمَّل القرآن عن روايتها ، وقالت : هيت لك : اسم فعل معناه تعال وافعل [٣] .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ : اختلف البلاغيون في هذه الآية فمنهم المفرط ، ومنهم المفرِّط ، وذلك أن منهم من جعل هم المرأة وهم يوسف من حيث الفعل الذي أرادته وذكروا في ذلك روايات نعتقد أنها من الاسرائيليات ، كجلوسه بين رجيلها وحل التكة ، وغير ذلك مما لاينبغي أن يقال به لضعف نقله ، ولنزاهة الأنبياء عن مثله ، وتُصور يوسف عليه السلام هائج الغريزة مندفعًا شبقًا ، والله يدافعه ببراهين كثيرة حتى اندفع كمثول يعقوب له عاضًا على أنملته ، وآيات تنهاه عن المنكر ، وهو لايرعوي حتى جاءه جبريل فضربه في صدره إلى آخر هذه الأساطير الملفّقة [٤] .

ومنهم من جعل أنها همت به لتضربه على امتناعه وإبائه وهي سيدة القصر ، وهم بها ليقتلها أو يضربها ليدفعها [٥] ، أو ليرد عن نفسه الاعتداء ، وهذا بعيد – في نظرنا – لعدم وجود الدليل من ناحية ، ولبعده عن سياق النص من ناحية أخرى .

وجمهور المفسرين على أنها همت به من حيث مرادها ، وهم بها كذلك ، ولكنه لم يعزم على ذلك ؛ لأن همه كان خطرة خطرت على قلبه لم يتابعها ، ولكنه بادر بالتوبة لما رأى برهان ربه ، ولو كان همه كهمها لما مدحه الله بقوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [٦] .

---

(١) المخَلَصين : بالفتح الذين أخلصهم الله لطاعته ، وبالكسر الذين أخلصوا دينهم لله .

(٢) يوسف [٢٣ ، ٢٤] .

(٣) انظر : البرهان : ٢ / ٣٠٢ ، وتفسير البيضاوي : ٣١٢ ، وتفسير الرازي : ١٨ / ١١٢ ، والتسهيل : ٢ / ١١٨ ، وتفسير النسفي : ٢ / ٢١٦ .

(٤) انظر : التسهيل : ٢ / ١١٧ ، والنسفي : ٢ / ٢١٧ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) انظر : التسهيل : ٢ / ١١٧ ، وتفسير النسفي : ٢ / ٢١٧ .

ذكر البيضاوي في أنوار التنزيل أن المقصود من قوله : ولقد همت به وهم بها : أي قصدت مخالطته وقصد مخالطتها ، والهم بالشيء قصده والعزم عليه [(١)] ، على أن المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه ، وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها [(٢)] .

وهذا الرأي يميل إليه الباحث ويرتاح إليه ؛ لأنه أكثر الآراء قربًا إلى الطبيعة البشرية ، وما كان يوسف سوى بشر ، غير أنه بشر مختار ، فلحقته العصمة ، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة الضعف البشري ، فلما رأى برهان ربه اعتصم وتأبى ، ولايقدح هذا في عصمة الأنبياء ، لأن من هم بذنب ولم يفعله كُتب له به حسنة ، وذلك يجعل من يوسف نموذجًا بشريًا يعرف منه كل إنسان كيف يسمو بذاته وينتصر على شهواته .

ويخطر ببال الباحث وهو يواجه النص القرآني ، أن يوسف قد استعلى بعفته على المرأة بالرغم من جمالها الأخاذ ، فجن جنونها ، وأسرعت خلفه تجذبه من قميصه حتى شقته ، وتقع المفاجأة،المرأة ويوسف وجهًا لوجه أمام زوجها ، ويصوّر القرآن هذا الموقف المروّع لذي خُلق حيي تصويرًا رائعًا ، يقول تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [(٣)] .

والمرأة التي راودت الفتى ثم اتهمته أمام سيدها ، وأشارت بسجنه ، تعود مرة أخرى إلى جراتها وتُصَرِّح بمُرادها منه أمام جمع من النسوة ذلم عندما لغط النساء في المدينة بالحديث عنها كادت لهن ، بصنع مأدبة يخرج عليهن يوسف فيها فيفتن به كما فتنت هي ، ويصرحن كما صرحت ، والآن نعيش مع الآيات ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [(٤)] .

---

(١) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٢١٢ .

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري : ٢ / ٢١١ . (٣) يوسف [٢٥ : ٢٩] .

(٤) يوسف [٣٠ : ٣٢] .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا ﴾ : يقول السمين فيما نقله عن الزمخشري : متكأ من قولك : اتكأنا عند فلان أي طعمنا على سبيل الكناية ؛ لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له تكأة يتكيء عليها قال جميل :

فظللنـــا بنعمـــة واتكأنـــا ... وشـربنا الحـلال من قلّـه

قوله : « فشربنا الحلال من قلّه » مرشح لمعنى اتكأنا بأكلنا [١] أما الرازي فاعتبر الآية من الاستعارة ؛ لأن من دعوته ليطعم عندك ، فقد أعددت له وسادة تسمى الطعام متكأ على الاستعارة[٢] .

وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة ، فلما خرج ورأينه أكبرنه ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ كناية عن دهشتهن وحيرتهن ، والسبب في حسن هذه الكناية أن كل واحدة منهن لما دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة ، وهي تقطع يد نفسها [٣] .

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ : والعرب إذا أرادوا المبالغة في شيء نفوا عن المشبه اسم جنسه فقالوا : ليس هو بإنسان وإنما هو أسد [٤] ، ولما رأت المرأة نساء قومها وبني جنسها اللوم وقعن في جمال يوسف كما وقعت هي ، ولم يعد هناك مجال للاستحياء منهن ، فأعلنتها صريحة على مسامعهن ، فخورة عليهن لأنه فتاها ، ﴿ قَالَتْ : فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ عد العز بن عبد السلام الآية من مجاز التشبيه (لأنها أشارت إليه «بذلك» التي يشار بها إلى البعيد مع حضوره وقربه لبعد حسنه وجماله عندها ، فإنه بَعُدَ أن يشابهه جمال ، وقالت النسوة ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ ، فأشرن إليه بـ «هذا» التي يشار بها إلى القريب لفراغهن من غرامها بحبه وجماله) [٥] .

أما قوله : ﴿ لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ : جعل حبه أو مراودته ظرفًا لتعلق لومهن ، لا لنفس اللوم ، فإن لومهن قائم بهن ، وهذا من مجاز التشبيه أيضًا بسبب الحرف «في» ، لأنه إذا كان ما بعدها لايصلح لأن يكون ظرفًا لما قبلها فتكون مستعملة في غير ما وضعت له ، وهذا سبب مجازيتها كما ذكر ابن عبد السلام – أيضًا [٦] .

---

(١) انظر : الدر السمين : ٦ / ٤٧٧ . (٢) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ١٢٧ .
(٣) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ١٢٧ . (٤) انظر : روضة الفصاحة للرازي : ٢٣٤ .
(٥) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٦٧ ، ورسالة الباحث في دراسة كتاب الإشارة إلى الإيجاز : ٣٩٥ .
(٦) المصدر نفسه (السابق) .

وأصغى يسف بهدوء لتهديد امرأة العزيز، وتحداها بقوله: ﴿ قال رَبِّ السِجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مما يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ [١]، واستمع الله تعالى لنداء يوسف وصدّق توجهه وخيفته من المعصية ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [٢]، وظل يوسف – عليه السلام – أنموذج الشاب المتعفف أمام نداء الغريزة السافر من المرأة ، هذا بالرغم من أن عادة القرآن الكريم الكناية عن العلاقة بين الرجل والمرأة سموًا بالنفس وتكريمًا لها .

طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة :

لما أراد القرآن الكريم أن يعبر عن العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة ، عبّر عن ذلك بتعبيرات دقيقة ، كل منها يصور جانبًا من جوانب تلك العلاقة في موضعه المناسب ، ولم يصرح بذلك ولكنه كنى ورمز وأشار إلى المطلوب من قرب ، وأطلق على هذه العلاقة ألفاظًا تؤدي هذا الغرض كالإفضاء والغشيان واللمس والحرث واللباس والسر . وفي ذلك تربية للنفس للترفع عن ذكر حاجات الجسد ، وترك اللفظ إلى ما هو أجمل ، والتحفظ على أسرار الإنسان ، وصيانة الشرف متمثلاً في تلك العلاقة الكريمة بين الزوج وزوجه .

ومن عادة العرب أنها لاتكنيٌ عن الشيء بغيره إلا إذا كان يقبح ذكره ، قال زهير :

والعيـــون رســـــالاتٌ مـــردّدةٌ ... تـدري القلـوب معانيهـا فتخفيها

وقال امرؤ القيس :

فصرنا إلى الحسنى ورقّ كلامُنا ... ورُضْتُ فذلّت صَعْبَةٌ أيّ إذلال [٣]

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [٤] ، قال الرازي : فلما تغشاها : أي جامعها ، والغشيان إتيان الرجل المرأة ، وقد غشاها وتغشاها إذا علاها ، وذلك لأنه إذا علاها فقد صار كالغاشية لها ، وهو يشبه التغطي واللبس ، فالآية كناية عن الجماع ، ولكن الله يكنيٌ [٥] .

---

(١) يوسف [٣٣] .

(٢) يوسف [٣٤] .

(٣) انظر : التبيان في علم المعاني والبديع والبيان : ٢٦٣ .

(٤) الأعراف [١٨٩] .

(٥) انظر : تفسير الرازي : ١٥ / ٨٩ ، والبرهان : ٢ / ٣٠٤ ، وتفسير النسفي : ٢١ : ٨٩ .

وكنيٌ بالملامسة والإفضاء عن الجماع في قوله : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (١) فإنه كناية عن الجماع ، إذ لايخلو الجماع عن الملامسة (٢) ، وقوله : ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٣) ، ذكر ابن أبي الإصبع أن الإفضاء كناية عن المباضعة (٤) ، وللمفسرين في الإفضاء قولان :

أحدهما : أنه كني بالإفضاء عن الإصابة . والقول الثاني : أنه كني به عن الخلوة بمعنى أن يخلو بها ، وإن لم يجامعها ، أو أن يكون معها في لحاف واحد ، جامعها أو لم يجامعها ، ورجح جمهور البلاغيين القول الأول ؛ لأن العرب إنما تكني عما يقبح ذكره في اللفظ ولايقبح ذكره في الخلوة (٥) .

وأدب القرآن شمل الجماع وكل ما يتبعه كذلك كقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (٦) ، جعل الرفث : كناية عن الجماع ، وعن كل ما يتبعه ، وعدى الرفث بـ «إلى» لتضمنه معنى الإفضاء في قوله : ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، ولهذا فقد جعل الزركشي الآية من التضمين ؛ لأنه لايقال رفثت إلى المرأة ، لكن لما كان بمعنى الإفضاء ساغ ذلك (٧) ، وهذا خلاف في اللفظ فقط بين الزركشي وغيره من البلاغيين ، لأن التضمين عُدَّ عند بعضهم من المجاز ، والكناية من المجاز أيضاً .

والسؤال الذي يفترض هنا – لم كني ههنا عن الجماع بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ؟ ونستلهم الجواب من البيضاوي في إيثار «الرفث» ههنا ، ذلك لأن السبب فيه استهجان وتقبح ما وُجد منهم قبل الإباحة ولذلك سماه خيانة ، (٨) يفهم ذلك من سياق الآية وسبب النزول (٩) .

---

(١) النساء [٤٣] والمائدة [٦] .

(٢) انظر: الطراز : ١ / ٤٢٨ ، والبرهان : ٢ / ٣٠٢ .

(٣) النساء [٢١] . (٤) انظر : بديع القرآن : ٥٤ .

(٥) قال صاحب البرهان : « وأما دعوى كون العرب لاتكني عما يقبح ذكره فغلط ، لأنهم كنوا عن القلب بالثوب كما في قوله : « وثيابك فطهر » . انظر : البرهان : ٢ / ٣١١ .

(٦) البقرة [١٨٧] . (٧) البرهان : ٢ / ٣٢٩ .

(٨) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣٩ ، وتفسير الرازي : ٥ / ١٠٥ .

(٩) روي أن المسلمين كانوا في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة – الليلة المقبلة – ثم إن ناساً من المسلمين أصابوا من الطعام والنساء في شهر رمضان بعد العشاء ، منهم عمر بن الخطاب ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية . انظر: أسباب النزول للواحدي : ٤١ .

ثم كني باللباس عن شدة المخالطة في قوله : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » وهن لباس : استئناف يبين سبب الإحلال ، وهو قلة الصبر عنهن ، وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة ، وشدة الملابسة ، ويوضح ابن المنير الآية بقوله : « ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان ، ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناق ، شُبه باللباس المشتمل عليه . قال الجعدي :

إذا ما الضَّجيعُ ثَنَى عِطْفَهَا   تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا (١)

وفيه أيضًا :

لَبِسْتُ أناسًا فأفْنَيْتُهُمْ   وأفْنَيْتُ بعدَ أناسٍ أناسًا

وكنى القرآن عن النساء في موضع آخر بالحرث فقال : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾(٢) .. أي مواضع حرث لكم ، وذلك تشبيه للجماع في إلقاء النطفة وانتظار الولد بالحرث في إلقاء البذور وانتظار الزرع (٣) ، ففرْج المرأة كالأرض والنطفة كالبذر، والولد كالنبات الخارج ، سمي موضع الشيء باسم الشيء على سبيل المبالغة ، كقولهم : فإنما هي إقبال وإدبار (٤) .

وموقع ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ مما قبله – فأتوهن من حيث أمركم الله – موقع البيان والتوضيح ، أي أن المأتى الذي أمركم به هو مكان الحرث لا مكان الفرث ، تنبيهًا على أن المطلوب الأصلي في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة ، فلا تأتوهن إلا من المأتى الذي نيط به هذا المطلوب (٥) .

﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ : جامعوهم ، كيف شئتم ، باركة أو مستلقية ، أو مضطجعه مقبلة أو مدبرة ، لا بأس ما دام في صمّام واحد كما ورد في الحديث (٦) .

والآية تمثيل في نظر النسفي بمعنى : فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم ، لايحظر عليكم جهة دون جهة (٧) .

---

(١) انظر : الانتصاف من الكشاف : ١ / ٢٢٨ ، وانظر كذلك : الدر المصون : ٢ / ٢٩٥ ، والتسهيل : ١ / ٧٢ ، وتفسير البيضاوي : ٣٩ .
(٢) البقرة [٢٢٣] .   (٣) البرهان : ٢ / ٣٠٤ .
(٤) انظر : تفسير الرازي : ٦ / ٧١ .
(٥) انظر : تفسير النسفي : ١ / ١١٢ ، والآية السابقة : «ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ....» البقرة [٢٢٢] . والآية من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة .
(٦) انظر : تفسير ابن كثير : ١ / ٢٦٠ .
(٧) انظر : تفسير النسفي : ١ / ١١٢ .

ويطابق الآية السابقة قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا ﴾ (١) ، وظاهر الآية دال على أن الأرض هي العقارات والديار والمساكن والأموال ، أما الآية فيحتمل أن تكون كناية عن فروج النساء اللائي كن محل وطئهم وجهة استمتاعهم ، وهذا من جيد الكنايات ونادرها ، كما ذكر ابن الأثير ، ذلك لمطابقتها لقوله : «نساؤكم حرث لكم» والحرث إنما يكون في الأرض ، ولهذا ازدادت رشاقة وحسنًا (٢) .

وذكر العلوي أن مثل هذه الكنايات يجوز حملها من الكناية على جهة المجاز مع الوفاء لما تحتمله من ظاهرها على وجه الحقيقة ، لأنه لايجوز حمل شيء من المجازات على حقيقته ومجازه سوى الكناية (٣) ، والعلوي بهذا الاتجاه لايحتكر فهم النص القرآني لنفسه ، بل يعطي الفرصة لمن يرى رأيًا آخر .

وكني كذلك عن الجماع بالسر في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن لاتُوَاعِدُوهُنَّ سِرًا ﴾ (٤) ، الآية كناية عن الجماع على أصح الأقوال ، قال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة الحي أنني   كبرت وألّا يُحْسِن السر أمثالي

يقول ابن أبي الإصبع : « ذهب كل من فسر شعره من العلماء أنه أراد بالسر الوقاع (٥)، وفيه لطيفة أخرى ؛ لأنه يكون من الآدميين في السر غالبًا ، ولايسره – ما عدا الآدميين – إلا الغراب فإنه يسره (٦) .

واعتبر ابن القيم الآية من مجاز المجاز (٧) نقلاً عن ابن عبد السلام قال : « فإنه – أي الآية – مجاز عن مجاز فإن الوطء تجوز عنه بالسر ، لأنه لايقع غالبًا إلا في السر ، فلما لازم السر في الغالب سمي سرًا ، وتجوز بالسر عن العقد ؛ لأنه سبب فيه ، فالمصحح للمجاز الأول الملازمة ، والمصحح للمجاز الثاني التعبير باسم المسبب الذي هو السر عن العقد الذي هو السبب كما سمي عقد النكاح نكاحًا لكونه سببًا في النكاح ، وكذلك سمي العقد سرًا لأنه سبب في السر الذي هو النكاح ، فهذامجاز عن مجاز مع اختلاف المصحح (٨) .

---

(١) الأحزاب [٢٧] .

(٢) انظر : المثل السائر : ١ / ٤٠٧ ، والفوائد المشوق : ١٨١ .

(٣) انظر : الطراز : ١ / ٤٠٧ .   (٤) البقرة [٢٣٥] .

(٥) تحرير التحبير : ١٤٣ . البيت في ديوان امريء القيس : ٤١ ، وروايته اليوم بدل الحي ، اللهو بدل السر .

(٦) انظر : البرهان : ٢ / ٣٠٣ .

(٧) وهو أن يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر ، فيتجوز بالمجاز الأول عن الثاني بعلاقة بينه وبين الثاني .

(٨) انظر : الفوائد المشوق : ٥٩ ، والإشارة إلى الإيجاز : ١١٢ .

وأخيراً يكني القرآن عن المرأة بالنعجة في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [١] . كني عن المرأة بالنعجة في كلا الموضعين - كعادة العرب في ذلك - لما بينهما من الملاءمة في التذلل والضعف والرحمة ، وكثرة التآلف [٢] ؛ لأن ترك التصريح بذكر النساء أجمل منه ، ولهذا لم تذكر في القرآن امرأة باسمها إلا مريم . وإنما ذكرت مريم باسمها على خلاف عادة الفصحاء لنكتة ، وهو أن الملوك والإشراف لايذكرون حرائرهم في ملأ ولايتبذلون أسماءهن ، بل يكنون عن الزوجة بالعرس والعيال ونحو ذلك ، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهن ، ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر ، فلما قالت النصارى في مريم ما قالوا ، صرّح الله باسمها ليكن تأكيداً للعبودية التي هي صفة لها وتأكيداً لأن عيسى لا أب له ، وإلا لنسب إليه [٣] .

وهذه الآيات وأشباهها في كلام الله - تعالى - آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ، ويتأدبوا بها ، ويتكلموا مثلها في محاوراتهم ، ومكاتباتهم .

أحكام خاصة بالمرأة :

إن الأصل العام في الأحكام أن تكون موجهة ومأمور بها الرجال والنساء على السواء ، بيد أن بعض الأحكام اختص بها الرجال دون النساء ، كما اختص النساء ببعض آخر دون الرجال . وعلة ذلك هي طبيعة كل من الجنسين الذكر والأنثى ، ووظائف كل منهما المنوطة به ، فلكل منهما مهمة خاصة به تتناسب مع طبيعته وتركيبه ، من هذه الأحكام الخاصة بالنساء ما يتعلق بالمطلقات ، وحكم المتوفى عنها زوجها ، وحكم عضل النساء ومبايعتهن ، والمحرمات منهن وغير ذلك من أحكام نعايشها عبر النص القرآني من الناحية البيانية بعيداً عن الاستطرادات الفقهية والتي ليست قيد بحثنا .

وقبل أن نستفيض في بيان هذه الأحكام يجدر بنا أن نشير إلى أن ما قرره القرآن من أحكام تخص المرأة جاءت بتجرد مطلق ، لايترك لسبب تافه أن يقضي على الحياة الزوجية ، ومن ثم أوجب تدخل المجتمع لفض أي اشتباك بين المرأة وزوجها ، على مهل ، وإعادة المياه إلى مجاريها ، وأولى الناس بأداء هذه المهمة أقارب الزوجين فهما أرغب في الصلح ، وأبصر بالمصلحة ، وأقدر على التنفيذ .

---

(١) ص[٢٣] .

(٢) انظر : الطراز : ١ / ٤٢٧ .

(٣) انظر : البرهان : ٢ / ٣٠٢ ، والإتقان : ٢ / ١٤٢ .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[1] ، والشقاق : العداوة والخلاف ؛ لأن كلاً منهما يفعل ما يشق على صاحبه ، أو يميل إلى شق أي ناحية غير شق صاحبه[2] ، ويرى ابن عبد السلام أن الشقاق عداوة من البعد ؛ لقولهم : أخذ فلان في شق وفلان في شق أي تباعدا ، وشق فلان عصا المسلمين : خرج عليهم وتباعد منهم : ولهذا فقد عد الآية من المجاز[3] .

ثم تحدثت الآيات عن الطلاق – الذي قد يحدث من فشل الحكمين – وما يتبعه من آثار متخلفة عنه كالعدة وغيرها ، ويبدأ القرآن ببيان عدة المطلقات ، يقول تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[4] . قال البلاغيون «يتربصن» : خبر في معنى الأمر ، وأصل الكلام : ولتتربص المطلقات ، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله . فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجوداً[5] .

وفي ذكر الأنفس تهييج لهن على التربُّص ، وزيادة بعث عليه ، لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال ، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ، ويجبرنها على التربص[6] ، والتعبير بـ «يتربصن» يلقي أيضًا ظلال الرغبة إلى استئناف حياة زوجية جديدة استجابة لحالة المرأة النفسية التي تريد أن تثبت نجاحها في الحياة الزوجية في قدرتها على جذب رجل آخر ، وهذه الحالة النفسية تظهر في المرأة دون الرجل ، لأنه هو المطلِّق وهي التي وقع عليها الطلاق .

ومقصود الآية – إذن – هو توجيه النساء المطلقات أن ينتظرن دون زوج جديد حتى تنقضي ثلاث حيضات ، أو حتى يطهرن فيها ، ووضع القرآن جمع الكثرة موضع القلة في قوله : «ثلاثة قروء» ، وكان القياس أن يُذكر بصيغة القلة ، ولكنه اتساع منهم[7] .

وبعد ذلك يجيء التوجيه القرآني للأزواج المطلّقين إلى المعروف واليسر بعد الطلاق ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[8] ، وعد

---

(١) النساء [٣٥] . (٢) انظر : تفسير النسفي : ٢ / ٢٢٤ .

(٣) انظر : مختصر تفسير الماوردي : ١ / ٧٨ . (٤) البقرة [١٢٨] .

(٥) انظر : تفسير النسفي : ١ / ١١٣ ، والتسهيل : ١ / ٨١ .

(٦) المصدر السابق ، والكشاف : ١ / ٢٦٥ .

(٧) انظر : تفسير البيضاوي : ٤٩ ، والإتقان في علوم القرآن : ٢ / ٢٦٥ .

(٨) البقرة [٢٣١] .

البلاغيون الآية من المجاز المرسل الذي علاقته إطلاق الفعل المراد مقاربته ومشارفته لا حقيقته، لأن «بلغن» بمعنى قاربن ، ومراد الآية : وإذا طلقتم النساء فقاربن انقضاء عدتهن وشارفن منتهاها ، فامسكوهن بمعروف ، ذلك لأن الإمساك لايكون بعد انقضاء العدة ، فيكون بلوغ الأجل تمامه [١] .

ويؤكد القرآن هذا التوجيه في موضع آخر من القرآن فيقول : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [٢] . غير أن التوجيه هنا – جاء على سبيل الخيار الموجه ، ومعنى الآية : أي إذا قاربن انقضاء العدة [٣] فأنتم بالخيار إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة وانقضاء الضرر ، وسواء رجع الزوج أم فارق ، فهو مأمور بالمعروف فيهما .

والقرآن الكريم يحترم العلاقة الزوجية ، ولايرضى المهانة للمرأة ولايقرها ، بل عاقب القرآن الزوج المتلاعب بالطلاق بحرمانه من زوجه التي عبث بحرمة علاقتها معه ، قال تعالى ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ [٤] ، وسماه القرآن زوجًا ، نظرًا لأن العقد يئول إلى زوجية ، لأنها لاتنكح في حالة كونه زوجًا ، والآية مجاز مرسل . علاقته ما يئول إليه . والحكمة في هذا الحكم الردع عن التسرع إلى الطلاق ، والعود إلى المطلقة ثلاثًا ، والرغبة فيها [٥] .

وإذا تعذرت الحياة بين الرجل والمرأة فما ذنب الفراخ الزغب ؟ والقرآن لايتركهم لجور الزمان ، ولكنه يهيء للصغار ضمانات تحميهم ، وها نحن مع حكم قرآني يتعلق برضاع الأطفال بعد الطلاق ، يقول تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [٦] ، ويرضعن مثل يتربصن : خبر في معنى الأمر المؤكد ، وهي مجاز [٧] . والمعنى : لترضع الوالدات أولادهن حولين و«كاملين» : للتوكيد . والآية خبر على وجه الوجوب يفرضه الله على المطلقة تجاه طفلها الرضيع حتى لايضيع بين الخلافات الزوجية وفي ذلك نوع من التربية والتوجيه والضبط لعواطف المرأة وحماية الرُّضَّع الصغار .

---

(١) انظر : الفوائد المشوق : ٤٩ ، والبرهان : ٢ / ٢٩٢ ، وتفسير النسفي : ١ / ١١٦ .
(٢) الطلاق [٢] .
(٣) انظر : تفسير النسفي : ٤ / ٢٦٥ .
(٤) البقرة [٢٣٠] .
(٥) انظر : تفسير البيضاوي : ٥٠ .
(٦) البقرة [٢٣٣] .
(٧) الإشارة إلى الإيجاز : ١٧ ، والنسفي : ١ / ١١٧ .

وبعد أن استوفى البيان القرآني أحكامه للمطلقات وللآثار المتخلفة عن الطلاق ، أخذ في بيان حكم المتوفى عنها زوجها فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1] .

ثم التفت القرآن إلى الرجال الراغبين في الزواج من المرأة المعتدة ، فقال : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾[2] . نعم إن المرأة في عدتها لم تنس بعدُ ذكريات زوجها المتوفى ، زِدْ على ذلك احترامها لمشاعر أسرة زوجها ، وفوق ذلك ارتباطها بما قد يكون في رحمها من حمل ، كل ذلك يحول دون قيام حياة زوجية جديدة ، فضلاً عن الحديث فيها .

ومع كل هذه الاعتبارات فقد أباح القرآن التعريض بخطبة المرأة المعتدة ، قال المفسرون : التعريض بالخطبة أن تقول لها وهي في عدة الوفاة – ملاطفة – إنك لجميلة ، وإنك لحسنة ، أو صالحة ، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها ، حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، وقد صرح النسفي أن الآية كناية ، ونقل صاحب البرهان عن الزمخشري بأن الكناية مجاز في تفسير هذه الآية[3] .

ثم أخذ القرآن يعالج رواسب المجتمع الجاهلي فيما يختص بالمرأة ومنها عضلهن قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾[4] . قال البيضاوي : كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها ، أو قرابته من عصبته ، فألقى ثوبه على تلك المرأة ، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فإن شاء أن يتزوجها تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت ، وإن شاء زوجها غيره ، وأخذ صداقها ، ولم يعطها شيئًا ، وإن شاء عضلها وضارها لتفتدي منه بما ورثت من الميت ، أو تموت هي فيرثها[5] ، وهذه الآية نزلت في كبيشة بنت معن[6] .

---

(١) البقرة [٢٣٤] . (٢) البقرة [٢٣٥] .

(٣) انظر : البرهان : ٢ / ٣١٠ ، والفوائد المشوق : ١٩ ، والتبيان : ٢٧٥ ، والتسهيل : ١ / ٨٥ ، والنسفي : ١ / ١١٩ .

(٤) النساء [١٩] .

(٥) انظر : البيضاوي : ١٠٦ .

(٦) ذكر الواحدي أن أبا قيس بن الأسلت الأنصاري توفي ، وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية ، فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها ، فورث نكاحها ، ثم تركها فلم يقربها ، ولم ينفق عليها ، =

ومنع القرآن من أن يأخذ الرجل من المرأة فدية على المطلقة إذا أراد أن يبدلها بأخرى ، قال تعالى ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[١] .

قنطاراً : مثال على جهة المبالغة في الكثرة [٢] ، وأفضى بعضكم إلى بعض : كناية عن الجماع كما مر ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ : الآخذ على الحقيقة هو الولي ، والمرأة الآذنة فيه ، وهذا أخذ مجازي ، ونسبته إليهن مجازية أيضاً [٣] . والمقصود بالميثاق في الآية : هو العهد أو عقدة النكاح ، أو العشرة بالمعروف ، وجعله القرآن غليظاً حتى لايستهين بحرمته مؤمن ، فالآية تخاطب المؤمنين وتدعوهم إلى احترام هذا العهد والميثاق الغليظ [٤] ، احتراماً لأواصر الحب بين الرجل والمرأة .

وكما نهاهم الإسلام عن عضل المتوفى عنها زوجها ، نهاهم كذلك أن يفصلوا المطلقة – حين توفي العدة – ويمنعوها أن تتراجع مع زوجها ، إذا تراضيا بالمعروف ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾[٦] ، والآية كما هو واضح من أسباب النزول [٧] ، تكشف عن جانب من رحمة الله بالمرأة التي هويت الرجوع إلى زوجها ورفض أخوها .

= يضارها لتفتدي منه بمالها فأتت كبيشة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن أبا قيس توفي وورث ابنه نكاحي ، وقد أضرني ، وطوّل عليّ فلا هو ينفق عليّ ، ولايدخل بي ، ولا هو يخلي سبيلي، فقال لها رسول الله ﷺ اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، انظر : أسباب النزول للواحدي : ١٢٤ : ١٢٥ .

(١) النساء [٢١] . وقال قوم إن الآية منسوخة بقوله في البقرة : « فلا جناح عليهما فيما افتدت به » ، وقال قوم هي ناسخة ، وذكر صاحب التسهيل أن الصحيح أنها لا ناسخة ولا منسوخة .

(٢) قنطاراً : مثال على جهة المبالغة في الكثرة . وقد استدلت به المرأة على جواز المغالاة في المهور حين نهى عمر بن الخطاب عن ذلك . انظر : التسهيل : ١ / ١٣٥ .

(٤) انظر : الفوائد المشوق : ٤١ . (٥) انظر : تفسير القرطبي : ٢ / ٢١٦ .

(٦) البقرة [٢٣٢] .

(٧) نزلت في معقل بن يسار قال : كنت زوجت أختاً لي من رجل فطلقها ، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها ، فقلت له : زوجتك وأفرشتك وأكرمتك فطلقتها ، ثم جئت تخطبها ؟ لا والله لاتعود إليها أبداً ، قال : وكان رجلاً لا باس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه ، فأنزل الله الآية ، فسمع ذلك معقل فقال : سمعاً لربي وطاعة ، فدعا زوجها فقال : أزوجك وأكرمك ، فزوجها إياه . انظر : أسباب النزول للواحدي : ١٨ .

والعضل : الحبس والتضييق ، ومعنى ﴿ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ : أي الذين كانوا أزواجهن وهو مجاز مرسل من تسمية الشيء بما كان عليه [١] .

ثم يتدخل القرآن – أيضًا – في إصدار الأحكام والتوجيهات للرجل الذي يعدِّد لضمان حق المرأة التي يشاركها في زوجها أخريات من بني جنسها ، لأن الزوج قد يميل قلبه إلى إحدى زوجاته ، وهو ميل لا حيلة له فيه ، فهل يحاسبه الله – تعالى – على أمر خارج عن إرادته أم ماذا ؟ وما شأن اللائي تحت عصمته من النساء ؟ ! ولْنعش مع النص القرآني لنلتقط الإجابة بأيدينا ، قال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [٢] .

لا حساب – إذن – عما خرج عن إرادة الأزواج ؛ لأن القرآن الكريم صرَّح بذلك «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ» ، ولكن الحساب على ما هو داخل تحت الإرادة، وهو العدل في القسمة [٣] . ثم يدلنا القرآن على صمام الأمان لتنظيم هذا العدل ، فيقول تعالى: ﴿ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ . والمعلقة : هي التي ليست مطلقة ولا ذات بعل ، ويؤكد ذلك ما جاء في حديث أم زرع : «زوجي العشنق إن أنطق أطلق ، وإن سكت أعلق» [٤] . شبهت المرأة بالشيء المعلق ، لأنه لا على الأرض استقر ، ولا على ما علق منه انحمل [٥] .

ولنجم الدين ابن الأثير صاحب «جوهر الكنز» كلام وضيء جدًا في توجيه قوله : «فتذروها كالمعلقة» يقول : «يعني فتدعوا الأخرى التي لاتميلون إليها كالمعلقة ، لا أيِّمًا ولا ذات بعل ، كالشيء المعلق ، لا هو في السماء ، ولا هو على الأرض ، وقيل معناه : فتذروها كالمسجونة ، لا هي مخلَّصة فتَتزوج ، ولا هي ذات بعل فيحسن إليها [٦] .

وخلاصة أقوال العلماء في الآية : إن عدم العدل في القسمة من الزوج يجعلها قلقة مضطربة ، غير مستقرة على حال ، حتى لتصبح حياتها مليئة بالتعب والعناء ، والقرآن يريد

---

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٢٨٠ .

(٢) النساء [١٢٩] .

(٣) كان ﷺ وهو يقسم بين نسائه فيما يملك ، ويعدل في القسمة ، لاينكر أنه يؤثر بعضهن على بعض بالميل القلبي ، وهو خارج عما يملك ، فكان يقول : اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك . أخرجه أبو داود .

(٤) انظر : صحيح البخاري كتاب « النكاح » ٢٥٤ ، باب « حسن معاشرة الأهل » ، وصحيح مسلم جـ ١٥ / ٢١٦ حديث أم زرع

(٥) انظر : البحر المحيط : ٢ / ٣٦٥ . (٦) انظر : جوهر الكنز : ٦٠٧ .

للمرأة أن تقر في حياتها الزوجية ، ولهذا ختم الله الآية بهذا النداء المؤثر العميق في قلب كل زوج مؤمن ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

وهناك أحكام أخرى تتعلق بالمرأة من تحريم لبعضهن تحريمًا أبديًا ، وآخر خاص بالمحصنات وما يلحق بهن ، وتقدير النبي ﷺ للنساء ومبايعتهن كما بايع الرجال . قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[١] .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ : المقصود تحريم نكاحهن ، والآية من مجاز الحذف (حذف المضاف) لأنه لايتصور تعلق الطلب بالأجرام ، وإنما تُطلب أفعال تتعلق بها ، فتحريم الميتة تحريم لأكلها ، وتحريم الخمر تحريم لشربها ، وتحريم الحرير تحريم لاستعماله[٢] . وهدف القرآن من هذا التحريم أن تكون العلاقة بالمحرمات علاقة رعاية وعطف واحترام وتوقير، وحتى لاتتعرض واحدة من المحرمات في الآية – لما تتعرض له الزوجة من خدش لمشاعرها كالطلاق ونحوه من الخلافات الزوجية أو الأخوية ، فلا تزاحم الأم بنتها ، ولا البنت أمها في زوجها ، بالإضافة إلى أن علاقة الزواج جعلت لتوسيع نطاق الأسرة ، ومدها إلى ما وراء رابطة القرابة ، ومن ثم فلا ضرورة لها من الأقارب الأقربين الذين تضمهم أصرة القرابة القريبة ، ومن ثم حرم الزواج من هؤلاء ؛ لانتفاء الحكمة فيه[٣] .

أما قوله : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ ، فهي من مجاز الملازمة بالتعبير بالدخول عن الوطء ؛ لأن الغالب من الرجل إذا دخل بامرأته أن يطأها ليلة عرسها ، وذكر بعضهم أن الدخول بهن كناية عن الجماع كقولهم : بنى فلان عليها ، وضرب عليها الحجاب ، فدخلتم بهن بمعنى أدخلتموهن الستر ، والباء للتعدية[٤] .

وجعل القرآن زوجة الأب في مكان الأم فحرَّم الزواج منها : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ﴾ ، إحترامًا لزوجة الأب وإنزالها منزلة الأم ، حرم على الأبناء الزواج منها .

---

(١) النساء [٢٢] .

(٢) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٢ ، وتفسير الرازي : ١٠ / ٢٥ .

(٣) انظر : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه . للاستاذ عباس العقاد .

(٤) انظر : الفوائد المشوق : ٥٨ ، وتفسير النسفي : ٢ / ٢١٨ .

وبعد أن ذكر القرآن المحرمات من النساء حرمة ذاتية ، يأخذ في بيان المحرمات من جهة أخرى قال تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَالِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[١] .

والمراد هنا – ذوات الأزواج ، وهو معطوف على المحرمات المذكورة قبله ، والمعنى أنه لايحل نكاح المرأة إذا كانت في عصمة رجل[٢] ، لأنهن أحْصَنَّ فروجهن بالتزوج[٣] . وقوله : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ : أي غير مزانين ، قال صاحب الفوائد المشوق[٤]، الآية من مجاز اللزوم ، لأن القرآن عبّر بالمسافحة عن الزنا ، لأن السفح صب المني ، وهو ملازم للجماع غالبًا ، لكنه خُص بالزنا ، إذْ لا غرض منه سوى صب المني بخلاف النكاح فإن مقصوده الولد والتعاضد والتناصر ومثاله[٤] .

ولقد حرص القرآن على سمعة المرأة ، وبالغ في تشديد العقوبة على الذين يلقون عليها ظلال الشبهات تساميًا بها عن أن تخدش حرمتها ، وتجرح عفتها ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاتَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[٥] والمقصود برمي المحصنات هو القذف بالزنا وبغيره بأن يقول : يا زانية لذكر المحصنات عقيب الزواني ، ولاشتراط أربعة شهداء[٦] .

والمحصنات يراد بهن العفائف من النساء ، وخصهن بالذكر ، لأن قذفهن أكثر وأشنع من قذف الرجال ،وذكر ابن جُزي أن الرجال يدخلون في ذلك بالمعنى إذ لافرق بينهم[٧] .

وكما يحمي القرآن النساء من الألسنة السليطة القاذفة ، فقد جعل العفة والطهر شرطًا من بيعتهن لرسول الله ﷺ فقال تعالى : ﴿ وَلايَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾[٨] . لما كانت المرأة تلتقط المولود وتقول لزوجها هو ولدي منك ، كني بالبهتان

---

(١) النساء [٢٤] .

(٢) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ١ / ١٣٧ .

(٣) انظر : تفسير النسفي : ١ / ١٢٨ .

(٤) انظر : الفوائد المشوق : ٥٥ .

(٥) النور [٤] .

(٦) انظر : تفسير النسفي : ٣ / ١٣٢ .

(٧) انظر : التسهيل : ٣ / ٥٩ .

(٨) المتحنة : جزء من آية [١٢] . وهي قوله : «يايها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئًا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولاياتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولايعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم .

المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبًا ، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين[١] .

واعتبر بعض العلماء أن ما في الآية كناية عن كناية ، ونظيره في نظرهم ، مجاز المجاز[٢] .

وهذه الصور البيانية المتلاحقة عن المرأة ، تنم عن أن القرآن قد قدَّرها وأعز شأنها ، وكفل لها حقوقها ، وجعل لها حرمة ، سواء أكانت أمًا أو بنتًا أو أختًا ، أو ذات قرابة ، أو أجنبية ، لأن الحفاظ عليها غِيرة ، والإحسان إليها مُروءة ، والحنو عليها رحمة ، والله جعل لها من المثوبة ما جعل للرجل ، وكفل لها من الجزاء ما كفل للرجل ، فهن شقائق الرجال ، ومنهما تتكون الأسرة ، ويوجد المجتمع ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[٣] .

وهذا يعني أن القرآن فرض للمرأة كرامة ، لكننا نمتهنها ، وأعدَّها لرسالة هي قمة الرسالات في شرفها وطبيعتها وجلالها ، غير أننا نصدها عنها ، وإن غفلت واحدة من النساء عن رسالة الأمومة ، وشرف التربية ، وخطر الإعداد للمستقبل ، فما مثلها إلا كمثل من يخلع تاجه ، وينزل عن عرشه .

---

(١) انظر : النسفي : ٤ / ٢٥٠ ، والبرهان : ٢ / ٣٠٦ .

(٢) انظر : الاتقان للسيوطي : ٣ / ١٤٥ .

(٣) النحل [٩٧] .

الفصل الثالث

في ميدان التربية والتشريع

* العبادات
* الآداب والسلوك
* المال في القرآن



ميدان التربية والتشريع

يريد القرآن بصوره البيانية أن يستثير العقل ، فيعقبه أثرا في النفس والفؤاد ، ثم يجيء العمل والسلوك إلى ذلك نتيجة لازمة ، غير أن الأمور الحياتية لا تمضي بهذه السهولة عند التطبيق ، فقد تظهر عوائق تفك بين هذه الارتباطات الثلاثة : العلم والعمل والرغبة في التنفيذ ، ومن هنا كانت التربية حتى لا ينحدر الإنسان أو ينسى ، ويستخدم القرآن التصوير البياني في منهاجه التربوي ، معتمدًا على الصدق العقلي ، وإن لهذه التربية هدفا ، هو أن يدرك الإنسان مطلوب الله منه ، حتى يكون ذا سلوك حسن بين الناس .

إن منهج التربية والتشريع في القرآن منهج عجيب ، يظهر فيه الإعجاز في صياغة الآيات بصورة أوضح وأقوى من غيرها ؛ « لأن الغرض هنا دقيق ، يحرفه لفظ واحد ، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة ، والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد »[1] .

إنه منهج العبادة في شتى صورها من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وآداب تتعلق بحياة الفرد والمجتمع ، وعن طريق هذا المنهج يصل الإنسان إلى أرفع درجات الإنسانية ، ولهذا نبدأ آيات التشريع بما يتعلق بالعبادات ، لأنه عن طريق العبادة يثبّت الله العبد في الشدة ، ويهذبه في الرخاء ، ويفيض عليه الأمن والاطمئنان ، فالعبادة هي التي تحكم سلوك العبد ، وتربي ضميره ، وأول هذه العبادات وأهمها الصلاة .

الصــلاة :

ويستهل البيان القرآني حديثه عن الصلاة بتوجيه بني آدم بالاهتمام بالمظهر الجميل لتكتمل صورة الإنسان شكلا وجوهرا قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[2] ، وهذه الآية اجتمع فيها نوعان من المجاز :

الأول : اسم المحل على الحال .

والثاني : اسم الحال على المحل .

وذلك لأن أخذ الزينة غير ممكن ، لأنها مصدر فيكون المراد : محل الزينة ، ولا يجب أخذ الزينة للمسجد نفسه ، فيكون المراد بالمسجد – الصلاة ، فاطلق اسم المحل على الحال ، وفيه الزينة بالعكس .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن : ١/٢٢٤ .

(٢) الأعراف : ٣١ .

إن الصلاة لقاء مع الله ، وتوجه إليه ، ووقوف بين يديه ، ولابد لهذا الموقف من استعداد وتطهير للبدن ، وتهيؤ للروح ، ومن هنا جاء الأمر بالوضوء ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُم إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُم وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُم جُنُبًا فَاطَّهَرُوا ، وَإِن كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَو جَاءَ أَحدٌ مِنْكُم مِنَ الغَائِطِ أَو لامستُمُ النِّسَاءَ فَلَم تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامسحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأَيدِيكُم مِنْه مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَليكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعمَتَهُ عَلَيكُم لَعلَّكم تَشكُرُونَ ﴾ [١] .

والمقصود من الآية : إذا أردتم القيام ، كقوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [٢] وهذا من إقامة المسبب مقام السبب ، وذلك أن القيام متسبب عن الإرادة والإرادة سببه ، فإذا قلت : لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل ؟ قلت : لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه ، وإرادته له، وهي قصده إليه ، وميله وخلوص داعيته ، وقيل : تقديره : إذا قصدتم الصلاة ، لأن من توجه إلى شيء ، وقام إليه كان قاصداً له ، فعبر بالقيام عن القصد [٣] .

أما قوله : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ فهو مجاز من إطلاق اسم الكل على الجزء ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ : أراد جزء اليد ، لأن اليد حقيقة إلى المنكب هذا إن جعلنا « إلى » ، بمعنى « مع » ، ولا يجب غسل جميع الوجه إذا ستره بعض الشعور الكثيفة [٤] .

ثم يوجه الله رسوله ﷺ إلى الاتصال به ، واستمداد العون منه والمضي في طريقه ، والتوجيه عام لأمته ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الفَجرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [٥] .

﴿ وَقُرْآنَ الفَجرِ ﴾ : المراد منه ، صلاة الفجر ، سُميت الصلاة قرآنا ، وهو القراءة ، لتأكد القراءة في الصلاة ، أو لأنها ركن ، وقيل إن هذا الوقت يحتشد فيه ملائكة الليل وملائكة النهار ، فيكون أكثر قبولا للدعاء . كما سميت الصلاة في موضع آخر « ركوعا » في قوله : ﴿ وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ، والآية مجاز من إطلاق اسم الجزء على الكل [٦] .

ثم يدعو القرآن المؤمنين إلى أداء عباداته المفروضة ، فيقول : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا

---

(١) المائدة : ٧ . (٢) النحل : ٩٨ .

(٣) انظر : الدر المصون : ٢٠٧/٤ ، والكشاف للزمخشري .

(٤) انظر : البرهان : ٢٦٢/٢ ، والإشارات والتنبيهات : ٢٢١ .

(٥) الإسراء : ٧٨ ، ودعوة النبي - ﷺ - إلى إقامة الصلاة من دلوك الشمس إلى غسق الليل دعوة إلى إقامة أربع صلوات (الظهر - العصر - المغرب - العشاء) أما صلاة الصبح فقد جاء الأمر بها في قوله : وقرآن الفجر .

(٦) انظر : تفسير الرازي : ٢٧/٢١ ، وتفسير النسفي ٣٢٤/٢١ والبرهان : ٢٦٦/٢ ، ومختصر تفسير الماوردي ٥٥٣/٢ ، والكشاف : ٤٦٢/٢ .

الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [١] . يقول الرازي : الآية من المجازات المشهورة في اللغة، من إطلاق اسم الجزء على الكل [٢] لما كانت الصلاة مشتملة على الركوع ، لا جرم – عبر عنها بالركوع ، على سبيل المجاز ، كما يعبر عنها بالسجود فقوله : ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ : أي صلوا مع المصلين ، والأمر بالصلاة مع المصلين يعني في الجماعة، أي : صلوها مع المصلين ، لا منفردين [٣] وهذه دعوة إلى الانصهار والاندماج في موكب المؤمنين .

وإن المحافظة على الصلاة ليست في مجال الأمن فقط ، ولكن في مجال الخوف أيضا ، ألم نقل إن منهج التربية في القرآن منهج عجب ومحل تقدير وإجلال ؟! قال تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ . فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [٤] . والصلاة في مجال الخوف لا مجال فيها لتوجه لقبلة ، أو وقوف ، ولكنه يأمر بأن تؤدى الصلاة ، ولا تتوقف ، كل حسب ما يقتضيه حاله في المعركة ، وحال المسابقة في القتال .

أما قوله : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ ﴾ : عبر عن الصلاة بالذكر ، وهو مجاز معناه : فإذا أمنتم فصلوا صلاة الأمن [٥] . وواضح أن الآية تكشف عن مدى الأهمية البالغة التي ينظر الله بها إلى الصلاة ، فهي عدة في الأمن والخوف ، ومن ثم يؤديها المحارب في الميدان ، والسيف في يده أو على رأسه .

وركز القرآن على الصلاة فريضة ونافلة ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [٦] الآية مجاز ، أراد بإقامة الصلاة الفريضة ، وبالركوع النافلة ، أو أنها سمة غالبة ودائمة لهم ، وبها يعرفون .

والآن يجيء دور التوجيه الذي يتعلق بصلاة الجمعة ، فيأمر القرآن المسلمين بأن يتجردوا لذكره ، ويتركوا مشاغل الحياة من بيع وشراء بمجرد سماع النداء ، ليخلوا بربهم ، ثم يعودون لمشاغلهم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٧] .

قوله : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ : نهي عن البيع في اللفظ ، وهو مباح ، وأراد ما يلزم عنه من

---

(١) البقرة : ٤٣ .　　(٢) انظر : تفسير الرازي : ٤٤/٢ .

(٣) انظر : تفسير النسفي : ٤٥/١ ، والبرهان : ٢٦٦/٢ ومختصر الماوردي : ٣٩/١ ، والكشاف : ٢٧٧/٢ .

(٤) البقرة : ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٥) انظر : الفوائد المشوق : ٤٤، وتفسير النسفي : ١٢٢/١ .

(٦) انظر : مختصر تفسير الماوردي : ٢٦٧/٢ .　　(٧) الجمعة : ٩

من ترك الواجب ، أو تجوز بلفظ النهي عن أشياء ليست مرادة بالنهي ، وإنما المراد بها ما يقاربها أو يلازمها [١] .

الصيـام :

ومن الطبيعي أن يكون الصوم أحد ميادين التشريع في القرآن الكريم ؛ لأن الصوم مجال من مجالات تربية الإرادة ، وانقياد الإنسان لربه ، واستعلائه على رغبات الجسد إيثاراً لما أعده الله في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ يأيُّها الذينَ آمنُوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لعلَّكُم تتَّقُون أياماً مَعْدُودات فَمنْ كَانَ منكُم مَريضاً أو عَلى سَفرٍ فَعدَّةٌ من أيَّامٍ أُخَر ، وعَلى الَّذينَ يُطيقُونَه فِديةٌ طَعَامُ مِسكينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيرٌ لَهُ وأَن تَصُومُوا خيرٌ لَكُم إن كُنتُم تَعلمُونَ ﴾ [٢] .

بدئت الآية بنداء حبيب إلى المؤمنين ، يكلفهم ربهم بالصوم ، مبينا لهم أنه ليس فريضة تفرض عليهم طول العمر ، ولكنها ﴿ أياماً مَعْدُودات ﴾ ، ونكتة التعليل في هذه الآية : التسهيل على المكلفين [٣] ، ووضع القرآن جمع القلة موضع الكثرة ، فإن « أياماً » أفعال مع أنها ثلاثون ، لكن ليس لليوم جمع غيره [٤] .

وأما قوله : ﴿ وَعلَى الَّذينَ يُطيقُونَه فِديةٌ طَعَامُ مِسكينٍ ﴾ ، الآية مجاز ، فليس الطعام للمسكين قبل تمليكه إياه ، فلو حمل على ذلك لكان مجازا ؛ لأنه يصير تقديره : فعليه إخراج طعام يصير للمساكين ، فهو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه ، ويقول السمين : « وهو وإن كان جائزًا إلا أنه مجاز ، والحقيقة أولى منه » [٥] ، وقوله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهرَ فَليَصُمْهُ ﴾ فقد أوقع الشهر ، وأراد جـزءًا منـه وإرادة الكل باسم الجزء مجاز مشهور [٦] .

وتتضح مسائل التربية والتشريع في بـاب الصوم بصورة أكثر من خلال قوله تعالى : ﴿ أُحلَّ لَكُم ليلة الصيامِ الرَّفثُ إلى نِسائكُم هُنَّ لِبَاسٌ لَكُم وأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللهُ أنَّكُم كُنتُم تَختَانُونَ أنفُسَكُمْ فتَابَ عَليكُم وَعفَا عنكُم فالآنَ باشِرُوهُنَّ وابْتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُم وكُلُوا واشْرَبُوا حتَّى يَتَبينَ لَكُمُ الخَيطُ الأبْيَضُ مِنَ الخَيطِ الأسوَدِ مِنَ الفَجرِ ﴾ [٧] .

---

(١) انظر : الفوائد المشوق : ٦٤ .
(٢) البقرة : ١٨٣ .
(٣) الإتقان : ١٢٠/٣ .
(٤) انظر : البرهان : ٣٥٨/٣ .
(٥) انظر : الدرالمصون : ٢٧٥/٢ .
(٦) انظر : الدر المصون : ٢٦٣/٢ .
(٧) البقرة : ١٨٧ .

﴿ أحلَّ لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائكم ﴾ : الرفث : بمعنى الجماع ، عُدي «بإلى» لتضمنه معنى الإفضاء أو كني عنه بلفظ ﴿ الرفث ﴾ الدال على معنى القبح ، ولم يقل: الإفضاء إلى نسائكم استقباحا لما وجد منهم قبل الإباحة ، كما سماه اختيانا لأنفسهم [١] .

وأما قوله : ﴿ علِمَ اللهُ أنكم كنتم تختانُونَ أنفسَكمْ فتابَ عليكم وعفا عنكم ﴾ : فاستعارة لأن خيانة الإنسان نفسه لا تصح على الحقيقة ، وإنما المراد أنه سبحانه خفف عنهم التكليف في ليالي الصيام ، بأن أباح لهم فيها مع أكل الطعام ، وشرب الشراب الإفضاء إلى النساء ، ولو منعهم من ذلك لعلم أن كثيرا منهم يخلع عذار الصبر ، ويضعف عن مغالبة النفس، فيواقع المعصية ، بفعل ما خطر عليه من غشيان النساء ، فيكون قد كسب نفسه العقاب ، ونقصها الثواب ، فكأنه خانها في نفي المنافع عنها ، أو جر المضّار إليها ، وأصل الخيانة في كلام النقص ، فعلى هذا الوجه تحمل خيانة النفس [٢] .

ووراء هذه الاستعارة تخفيف التكليف في ليالي الصيام ؛ ولا شك أن هذا تكريم يصحب تلك الإباحة [٣] .

وقوله : ﴿ هُنَّ لِباسٌ لكم وأنتُمْ لِباسٌ لهُنَّ ﴾ : اللباس هنا مستعار ، والمراد به قرب بعضهم من بعض ، واشتمال بعضهم على بعض ، كما تشتمل الملابس على الأجسام ؛ وعلي هذا المعنى كنوا عن المرأة بالإزار [٤] هذا مع ما وراء هذه الآية من الأئتناس والتودد ، والاهتمام بالمرأة .

﴿ وكلُوا واشرَبُوا حتَّى يَتبينَ لكُمُ الخيطُ الأبيَضُ منَ الخيطِ الأسوَدِ منَ الفَجر ﴾ : شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق ، وما يمتد معه من غبش الليل بخيطين أبيض وأسود ، واكتفي ببيان الخيط بقوله : ﴿ منَ الفَجر ﴾ عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه ، وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل [٥] ، ويجوز أن يكون « من » هنا للتبعيض، فإن ما يبدو بعض الفجر [٦] .

---

(١) انظر : التبيان للطيبي : ٢٦٣ ، والفوائد المشوق : ١٨١ ، والبرهان : ٣٠٣/٢ ، وتفسير النسفي : ٩٥/١ .

(٢) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن : ص ٢٧ .

(٣) انظر : المعاني الثاني : ٤١١ .

(٤) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن : ص ٢٧ .

(٥) انظر : مفتاح العلوم : ٢٣٥ .

(٦) انظر : البرهان : ٤١٩/٣ ، وتفسيرالبيضاوي : ٣٩ ، ٤٠ .

قال أبو عبيدة : المراد من الخيط الأسود : الفجر الأول ، ويكون من باب وصف الشيء بما يؤول إليه ، كقوله : ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ (٢) ، والخيط الأبيض : هو الفجر الثاني ، وهو أيضا وصف الشيء بما يؤول إليه ؛ لأنا نحمل البياض على البياض التام لأجل المقابلة بين الصنفين ، فمعنى الآية : حتى يتبين لكم الفجر الثاني من الفجر الأول (٣) .

وخلاصة كلام البيانيين في الآية وأرجحها أن الآية كناية عن بياض النهار ، وسواد الليل، ويظهر أن معنى الآية التبس على بعض أصحاب رسول الله ، فها هو عدي بن حاتم يقول : « عهدت إلى عقالين : أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادي فكنت أقوم من الليل ، فلا يتبين لي الأبيض من الأسود ، فلما أصبحت أخبرت رسول الله ﷺ بذلك فضحك ، وقال : إنك لعريض الوساد ، إنما هو بياض النهار وسواد الليل » (٤) ، وعريض الوساد : كناية عن الغباوة ، ومنه عريض القفا (٥) .

ويوجه الشريف الرضي الآية توجيها أدق ممن لحقه ، ويذكر أن الآية استعارة عجيبة ، والمراد بها حتى يتبين بياض الصبح من سواد الليل ، والخَيْطان ههنا مجاز ، وإنما شبها بذلك؛ لأن خيط الصبح يكون في أول طلوعه مستدقا خافيا ، ويكون سواد الليل منقضيا موليا ، فهما جميعا ضعيفان ، إلا أن هذا يزداد انتشارا ، وهذا يزداد استسراراً (٦) .

ويمكن أن نضيف إلى كلام القدماء أن وصف البياض والسواد في تفسيرالخيط والكشف عن معناه مطابقة جميلة ، تفصل نهاية ليل الصائم من بداية نهاره .

آداب وسلوكات اجتماعية :

يستهل الدرس البياني في القرآن حديثه عن الآداب بالنهي عن الغيبة في تعبير جميل يبدعه القرآن إبداعا، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أن يَأكُلَ لحمَ أخيه مَيْتاً فكَرِهْتُمُوه ، واتَّقُوا الله إنَّ اللهَ تَوابٌ رَحيم ﴾ (٧) ، الآية في نظر بعض البيانيين من بديع التمثيل والتصوير ، وفي نظر بعضهم الآخر كناية .

---

(١) آل عمران : ٣٩ . (٢) الصافات : ١٠١ .
(٣) انظر فوائد في مشكل القرآن : ٩٥ .
(٤) انظر : فتح الباري في شرح صحيح البخاري : ١٨٢/٨ – تفسير وتصحيح مسلك : ٧٦٦/٢ (صيام) بلفظ : إن وسادك لعريض .
(٥) انظر شرح التلخيص : ٦٠٣ .
(٦) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن : ص ٢٨ .
(٧) الحجرات : ١٢ .

يقول ابن الأثير : « إنه كني عن الغيبة بأكل لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا ، ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ، فهذه أربع دلالات واقعة على ما قُصدت له مطابقةً للمعنى الذي وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا ، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم ، ولا شك أن تمزيق العرض مماثل لأكل لحم الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم تقطيع له ، وتمزيق لأوصاله على الحقيقة ولأجل هذا شبهه بأكل اللحم .

وأما جعله كلحم الأخ ، فلما في الغيبة من الكراهة والاستهجان ، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه ، وهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة ، وأما جعل اللحم ميتا ، فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ، ولا يحس بها ، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، فحسنت الكناية عن الغيبة [١] .

ولما قررهم أن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه ، عقب ذلك بقوله : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ : أي كما تكرهون هذا طبعًا فاكرهوا ذاك شرعًا ، فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها ، والتحذير منها [٢] .

ويلاحظ أن الله – سبحانه – صدَّر هذه الآية بالمحبة وختمها بذكر الكراهة، وإنما فعل ذلك تنبيها على كونها محتوشة – بطرفين نقيضين متضادين ، فلأجل تمكنها في القلوب ، وميل الخواطر إلى ملابستها وفعلها ، فهي محبوبة ، ولأجل كونها بمنزلة أكل لحوم الأخوة الأموات، فهي مكروهة فلا جرم صدَّرها وختمها بما ذكر [٣] .

وإذا التفتنا إلى مفردات ألفاظ الآية ، وجدنا فيها كثيرا من المبالغات كالاستفهام الذي معناه التقرير ، وإسناد الفعل إلى أحدكم ، الذي يؤدي إلى الإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك ، وهذا من أحسن القياس التمثيلي في نظر ابن القيم ، كما هي من بديع التمثيل والتصوير في نظر البعض ، وأعطت جانب الفصاحة والبيان ما استحقه .

فضلا عن أن الآية في مجملها تشير إلى أن مقتضي الأخوة في الإسلام هو التناصر والتراحم والتواصل ، وليس الذم والعيب والطعن ، وفيها تربية للمسلم على تعويد نفسه على النطق بالكلمة الطيبة بدلا من الكلمة الخبيثة .

---

(١) انظر : المثل السائر : ٦٢/٣ ، وجوهر الكنز : ١٠٤ ، والطراز : ٤٠١/١ ، ٤٠٣ ، والأمثال : ٢٢٦ .

(٢) انظر : تفسير النسفي : ١٧٢/٤ ، وتفسير ابن كثير : ٢١٢/٤ ، والكشاف : ٥٦٨/٣ .

(٣) انظر : الطراز : ٤٠٣/١ .

ثم عقّب القرآن على هذا النهي والأدب القرآني باستجاشة شعور التقوى في نفوس المؤمنين ، والمبادرة بالتوبة لمن وقع في النهي المذكور ، فقال : ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وبعد هذا التحذير من الغيبة ينادي الله المؤمنين ، ويوجههم إلى قاعدتين أساسيتين تقوم عليهما حياتهما ومنهجهما ، قاعدتين لابد أن تضطلع بالأمانة الضخمة التي نيطت بها ، وأخرجت من أجلها ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ، واعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إِذْ كُنْتُم أعداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فَأَصْبَحتُم بنعمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنتُم على شَفَا حُفْرَةٍ مِن النَّارِ فَأنقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُم تَهتَدون ﴾ (١) .

قوله ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون : « ليس المقصود النهي عن الموت ؛ لأن الموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه ، وإنما النهي عن الموت على حال سوى حال الإسلام » (٢) ، فالآية إذن – دعوة إلى تقوى الله ، والموت على العقيدة الصحيحة ، عقيدة الإسلام .

أما قوله : ﴿ واعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ : أي بدين الله ، أو بكتابه ، لقوله ﷺ : « القرآن حبل الله المتين » استعار الحبل من حيث أن التمسك به سبب للنجاه من الردي ، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردي ، وللوثوق به ، والاعتماد عليه نادى بالاعتصام ترشحا للمجاز جميعا (٣) . فالآية تدعو ى التمسك بكتاب الله ، وعهده ، وذكر الشريف الرضي ، أن الحبال هي العهود في كلام العرب ، وإنما سميت كذلك : لأن المتعلق بها ينجو مما يخافه كالمتشبث بالحبل إذا وقع في غمرة ، أو ارتكس في هوة ، فالعهود يُستأمن بها من المخاوف ، والحبال يستنقذ بها من المتالف فلذلك وقع التشابه بينها » (٤) ، وفضلا عن ذلك فالآية دعوة إلى الوحدة والترابط ، وتنفير وتحذير من التفرق .

والتنفير من الفرقة يذكرهم الله نعمته عليهم التي كانت طوق النجاة من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها ، فقال تعالى : ﴿ وَكُنتُم على شَفَا حُفْرَةٍ مِن النَّارِ فَأنقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ أي مشرفين على الوقوع في نار جهنم ، وهذه استعارة ؛ لأنه تعالى : شبه المشفي بسوء عمله على الوقوع في نار جهنم ، وهذه استعارة ؛ لأنه تعالى : شبه المشفي بسوء عمله على دخول النار بالمشفي لزلة قدمه على الوقوع في النار ، وهو ما كان منهم قبل الإسلام من

---

(١) آل عمران [١٠٢ ، ١٠٣] . (٢) انظر : تفسيرالبيضاوي : ٨٤ .

(٣) انظر : تفسير البيضاوي : ٨٤ ، وتفسيرالنسفي : ١/١٧٣ .

(٤) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن : ص ٤٦ .

الكفر والزيغ والزلل ، وتأتي المفاجأة في الإنقاذ بالفعل الماضي ﴿ فَأَنقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ الذي يفيد تحقّق الإنقاذ في أقل من لحظة زمنية .

والذي يتضح لنا من الآية السابقة هو الحركة التصويرية للمعنى البياني في صورة الحبل، وصورة التأليف بين القلوب التي تشبه الحزمة المتآلفة فيما بينها ، والتأليف جاء من التمسك بالحبل الذي هو دين الله وكتابه وعهده ، وانظر إلى حركة السقوط في حفرة النار ، إلى يد الله الحانية تمتد لانقاذ الساقطين ، وحبل الله يمتد ليعصم من الهوة السحيقة ، فالصورة البيانية مجتمعة تؤلف إطارا واحدا يشعر به القارئ حيا شاخصا أمامه ، برغم نزوله من خمسة عشر قرنا من الزمان ، وهذا المعنى لم يبرزه القدماء واكتفوا بمجرد قولهم : إن ما في الآية استعارة.

المسئولية الفردية :

ثم يأتي دور المسئولية الفردية في الهدى والضلال والاعتقاد ، فيصور القرآن رحمة الله وعدله في التكاليف التي كلف بها عبادة ، قال تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾(١) ، وفي ذلك استنهاض لهمة المؤمن ، وتربية لروحه ، وإبراز المسئولية الفردية يوم القيامة ، وأن كل إنسان مسئول عما يعمل ، فقوله ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ، وإنما أتى في ﴿ الكسب ﴾ باللام ، وفي الاكتساب بـ « على » ؛ لأن اللام تقتضي الملك ، والخير يُحب ويُسر به ، فجيء معه بما يقتضي الملك ، ولما كان الشر يُحذر ، وهو ثقل ووزر على صاحبه ، جيء معه بـ « على » المقتضية لاستعلائه عليه، وقيل : فيه إيذان بأن أدنى فعل من أفعال الخير يكون للإنسان تكرما من الله على عبده حتى يصل إليه ما يفعله معه عبده من غير علمه به ، لأنه من كسبه في الجملة بخلاف العقوبة فإنه لا يؤاخذ بها إلا من جدّ فيها واجتهد، وهذا مبني على الفرق بين البنائين ، وهو الأظهر(٢).

على أن عدل الله كما يقتضي ألا يأخذ مذنبا ، ويترك مذنبا آخر ، كذلك - فإن هذا العدل اقتضى الا يتحمل مؤمن وزر معصية الغير ، وأن تكون كل نفس مسئولة عما تفعل ، ولا تحاسب عما يفعله غيرها ، فكلٌ محاسب على عمله وحده ؛ لإبراز دور التبعية الفردية في الهدى والضلال ، والاعتقاد ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَيُحْمَلْ مِنهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ، وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ المَصِيرِ ﴾(٣) .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ . (٢) انظر : الدر المصون : ٢/٧٠٠ : ٧٠١ .

(٣) فاطر : ١٨ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ : كناية ، أي لا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى ، وزارة : أي نفس وازرة . أما قوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ... ﴾ إشارة إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئا مبتدئا ، ولا بعد سؤال[١] .

ولهذه المسئولية الفردية أثرها في نمو الشعور الأخلاقي والسلوكي لدى المسلم ، لاطمئنانه لأنه لن يؤاخذ بجريرة الغير .

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

ويضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة لتصوير الطيب والخبيث ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [٢] .

ومثل كلمة طيبة : شبّه ثبوت الكلمة الطيبة في الأرض بثبوت الشجرة الطيبة في الأرض ، فهي طيبة في الصورة ، والشكل والرائحة ، والمنظر والثمرة ، وإذا ظهرت عرجت إلى السماء ، كما تعلو النخلة نحو السماء ، كلما ذُكرت نفعت ، كما أن النخلة إذا أثمرت نفعت[٣] وهذا الوصف يدل على كمال حالة تلك الشجرة[٤] ، وقوله : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ : في الآية حذف ، أي يؤتي الله الشجرة ثمرها[٥] .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ... ﴾ : شبه الكلمة الخبيثة التي ليس لها أصل يبقى ، ولا ثمرة حلوة بأنه ليس لها عمل في الأرض يبقى ، ولا ذكر في السماء يرقى[٦] ، فلو سلب الكلمة صفة الخبث قائلا : « ومثل كلمة كشجرة خبيثة » أبطلت بلاغة الآية ، وأزالت عنها رونق الفصاحة[٧] .

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ : زيادة في الإفهام ، وتصويرا للمعاني ، وإدناء لها من الحس ، وموعظة وتذكيرا .

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ١٤/٢٦ .　(٢) إبراهيم : ٢٦ .
(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز ١٦٣ .　(٤) انظر : تفسير الرازي : ١٢٠/١٩ .
(٥) انظر : التبيان للطيبي : ٢٥٨ .　(٦) انظر : مختصر تفسير الماوردي : ٥٠٩/٢ .
(٧) انظر : الطراز : ٢٥٩/١ .
(٨) انظر : تفسير الخازن : ٤٠ / ٤١ ، والأمثال : ٢٢٨ ، والبحر المحيط : ٤٢٢ وتفسير ابن كثير : ٢/ ٥٣٠، والتفسير القيم : ٣٢٧ : ٣٣٤ ، وأعلام الموقعين : ٢٠٥/١ : ٢١١ .

وفي هذا المثل درس عملي لنتيجة العمل مهما كان ، وكيفما كان ، وتهذيب لجمحات النفس في معترك الفتنة حتى تكون إلى التعقل أقرب ، وتربية للإحساس حتى ينبض بكل ما هو نافع وجميل ، وينفر من كل ما هو ضار وقبيح ، وحينئذ يتبلور ذوق الإنسان ، وفق هذا وذاك ، فالكلمة الطيبة ممدوحة مكرمة ، والكلمة الخبيثة مذمومة مهانة عند الله وعند الناس(١) .

احترام الأبوين :

ثم يمضي القرآن في مجال التربية النفسية ، فيقضي باحترام الأبوين ، والقيام نحوهما بما يفرضه الواجب الإنساني ، وهذا يقتضي احترام كل كبير ، ويجر هذا إلى احترام كل فرد لذاته ، فهي دعوة إلى التماسك الأسري والترابط الاجتماعي قال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٢) .

ومجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد بعبادة الله . ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾ : أي أمر أمرا مقطوعا به ، أن لا تعبدوا إلا إياه ، وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا ، لأنهما السبب الظاهر في الوجود والتعيش (٣) . وركز القرآن على الإحسان وقت الكبر ، وهو وقت الضعف والاحتماء بالأبناء ، فقال : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ : الآية كناية عن كل ما غلظ وقبح من الكلام ، ﴿ أُفٍّ ﴾ كلمة دالة على التبرم والتضجر ، مأخوذة من الأفيف ، وهو الشيء القليل ، والمعنى : فلا تتضجر مما يستقذر منهما ، ولا تستثقل من مؤونتهما ، كما أنهما لم يتقذراك ، ولم يستثقلاك من قبل (٤) .

وقيل: ﴿ أُفٍّ ﴾ اسم الفعل الذي هو التضجر ، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين (٥)، وفيها لغة أخرى ، قال الرازي : فيها سبع لغات : كسر الفاء ، وضمها ، وفتحها بتنوين وغير تنوين، والسابعة : أفي (٦) .

أما قوله : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ : فإنه جعل للذل جناحًا ، وليس له جناح وأضاف إلى الجناح الذل ، كما أضيف إلى حاتم الجود ، وقوله : من الرحمة :

---

(١) انظر : المعاني الثانية : ٤٤٧ . (٢) الإسراء : ٢٤ .
(٣) انظر : تفسيرالبيضاوي : ٣٧٣ .
(٤) انظر : تفسير النسفي : ٢/٣١١ ، ومختصر تفسير الماوردي : ٢/٥٤٥ ، وتفسير الرازي : ٢٠/١٨٤ .
(٥) انظر : تفسير البيضاوي : ٣٧٤ . (٦) انظر : تفسير الرازي : ٢٠/١٨٤ .

معناه : ليكن خفض جناحك لهما ، وعطفك عليهما بسبب كِبَرهما ، وضعفهما (١) .

ومراد الله من الآية : أمرُ الولدِ بالذل لوالديه رحمة ، فاستعير للولد أولا جانب ، ثم للجانب جناح ، وتقدير الاستعارة : ﴿ واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ ، أي اخفض جانبك ذلا ، وحكمة الاستعارة في هذا جعلُ ما ليس بمرئي مرئيا ، لأجل حسنِ البيان ، ولما كان المراد خفض جانب الولد للوالدين ، بحيث لا يُبقى الولدُ من الذل لهما شيئا احتيج من الاستعارة إلى ما هو أبلغ من الأولى ، فاستعير الجناح لما فيه من المعاني التي لا تحصل إلا من خفض الجناح ، لأن من ميل جانبه إلى جهة السفل ، أدنى ميل ، صدق عليه أنه خفض جانبه ، والمراد خفض يلصق الجنب بالإبط ، ولا يحصل ذلك إلا بخفض الجناح كالطائر (٢) .

فالمقصود من الخفض – إذن – المبالغة في التواضع ، ولهذا السبب جعل الرازي خفض الجناح كناية عن حسن التربية ، كما يخفض الطائر جناحه إذا أراد ضمَّ فرخه إليه للتربية ، فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك .

والطائر إذا أراد الطيرانَ والارتفاعَ ، نشر جناحه ، وإذا أراد تركَ الطيرانِ ، وتركَ الارتفاع خفض جناحه ، فصار خفضُ الجناحِ ، كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه (٣) .

وذكر ابن القيم أن إثبات الجناح للذل استعارة تخييلية ، فإن إثبات الجناح للذل يخيل للسامع أن ثَمَّ جناحا يخفض ، والمراد : ألن جانبك ، وتواضع لهما تواضعا يلصقك بالتراب ، كما يفعل الطائر بجناحه ، وإسباله في التغطية للفرخ مبالغة في لين العريكة ، وحسن التذلل للوالدين . والجامع بين هذه الاستعارة والحقيقة ، أن الجناح الحقيقيَّ في أحد جانبي الطائر ، وأن الطائر إذا خفض جناحه للفرخه ، في فرط حنوه عليه ، وتعطفه على محبته انحط إلى الأرض ، ولَصِقَ بالتراب (٤) .

غض البصر :

ويريد القرآن أن يقلل من فُرَصِ الاستثارة والغوايةِ ، والفتنةِ في المجتمع فيوجِّه المؤمنين توجيها يحول دون الوصولِ إلى الهاويةِ ، فيقول : تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) انظر : روضة الفصاحة : ٩١ ، وتفسير الرازي ١٩١/٢٠ ، والنسفي : ٢١١/٢ ، والكشاف : ٥١٣/٢ .
(٢) انظر : البرهان للزركشي : ٤٢٣/٣ . (٣) انظر : تفسير الرازي : ١٩١/٢٠ .
(٤) انظر : بديع القرآن : ٢٦٠ ، والطراز : ٢٢٥/٢٢٤/١ ، وتفسير الرازي : ١٩١/٢٠ .
(٥) النور : ٣٠ .

جعل الزركشي الآية مجازًا من إطلاق اسم الجزء على الكل ، لأن « من » هنا للتبعيض ، لأنهم أمروا بالغض عما يحرم النظر إليه [١] لأن المسلم إذا ترك لنظره العنان ، أوشك أن يقع في الزنا الذي بيّن الله حده ، وفظع فعله ، بإعلان حاسم في قوله : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] فإن كان الأمر في الآية للولاة ، فهو أمر بالأمر بإقامة الحدود ، وعلى هذا تكون الآية مجازا ، وإن كان أمرًا لمستوفي الحقوق ومباشرها كالإمام ، أو من ينصبه الناس ، فهو حقيقة [٣] .

ويأمر القرآن الشباب بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج ، فقال : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [٤] ، إنما أراد – والله أعلم – الشيء الذي ينكح به من مهر ونفقة ، وما لابد للمتزوج منه ، وعلى هذا المعنى ، فالآية مجاز من إيقاع المسبب موقع السبب [٥] .

ويلاحظ على هذه الآداب التي ذكرها القرآن أنها ضوابط لحياة الفرد مع نفسه التي بين جنبيه ، وحياته مع غيره من الناس ، الأقربين منهم والأبعدين ، الأصدقاء منهم والأعداء ، وعلى المرء ألا ينتهك هذه الضوابط ، وألا يكون له معها إلا الطاعة والاستسلام ، مع الرضا والثقة ، والاطمئنان ، لأن العبد ليس بالخيار في الالتزام بها أو عدمه ، لأنه الله سماها عقودًا أو عهودا مقطوعة بين الله والناس ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [٦] .

أطلق العهد والعقد على الملتزم منهما ، وهو في القرآن كثير ، وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾، ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ ، قال البيانيون : عبر بهذه العهود كلها عن موجبها ، ومقتضاها الذي التزم بها [٧] ، وسمى الله هذه التكاليف عقودًا لأنه تعالى – ربطها بعباده ، كما يربط الشيء بالشيء بالحبل الموثق [٨] تشبيها لها بعقد الحبل ونحوه ، وهي عقود الله التي عقدها على عباده ، وألزمها إياهم من مواجب التكليف [٩] .

وواجبات المسلم نحو هذه العقود والعهود هو الوفاء ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ

---

(١) البرهان : ٢/٢٦٥ . (٢) النور : ٢ .
(٣) انظر : الفوائد المشوق : ٤١ / تفسير الرازي : ٢٣/١٥٩ .
(٤) النور : ٣٣ . (٥) انظر : البرهان للزركشي : ٢/٢٦٠ .
(٦) المائدة : ١ .
(٧) انظر :الفوائد المشوق : ٣٠ .
(٨) انظر : تفسير الرازي : ١١/١٢٢ .
(٩) انظر : تفسير النسفي : ١/٢٦٨ .

إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (١) ، أي إن صاحب العهد كان مسئولا فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقوله ﴿ مَسْئُولاً ﴾ أي مطلوبا ، يُطلب من المعاهد أن لا يضيعه ، ويفي به (١) .

والملحوظة الأهم في هذه الآداب والسلوكات الاجتماعية ، أن المحور الذي تدور عليه كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود التي تلين أحيانا ، وتشتد أحيانا أخري ، والهدف واحد في الأمرين ، هو تربية النفوس والأرواح من مصدر النور الإلهي القرآن الكريم ، ولقد استخدم القرآن الصور البيانية للتاكيد على هذه المعاني التربوية في سلوك الأفراد والجماعات .

وبعد ، فلقد فَعَلَتْ هذه النصوص القرآنية بتوجياهاتها المتباينة فعلها في نفوس المسلمين الأوائل فخلصتها من رواسب الجاهلية ، وأشاعت في نفوسها التقوى والخوف من الله ، والحذر من مخالفتها ، ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك هو استخدام البيان في طريقة العرض والإقناع ، وهذا ما يجب أن يعلمه الباحث في مجال البيان القرآني ، لأنه بهذا الفهم يتمكن دارس البيان من الربط بين النص القرآني والواقع العملي لسلوك المسلمين ، وإلا كان البيان مجرد ترف فكري ، أو ثراء بلاغي تتشدق به الألسن ، وذلك بعيد كل البعد عن النص القرآن في صورته البيانية الرائعة .

---

(١) الإسراء : ٣٤ .
(٢) انظر : تفسير الرازي : ٢/٢٠٦ ، وتفسير النسفي : ٢/٢٢٨

المال في البيان القرآني

ولما كان للمال أثره في الحياة الاجتماعية ، تكررت في القرآن الدعوة إلى الإنفاق ، ولعب البيان دوره في التأثير النفسي كي تسمح ببذله النفس، في سبيل تخفيف أعباء المجتمع ، وركز البيان في ذلك على التوازن في الإنفاق ، ثم رسم دستورا للصدقة ، جعلها الله خيراً لمعطيها ، ونفعًا لآخذيها ، وهذا الدستور الذي شرعه القرآن في إنفاق المال ، لم يكن مؤداه فرضا أو تكليفا ، وإنما كان حضا وتأليفا ، واستجاشة لنفوس المستمعين للقرآن ، ولذلك فقد قرر مضاعفة الثواب على ما يُبذل في هذه الناحية ، لينفق كل شخص من ماله راضيا مغتبطا .

التوازن في الإنفاق :

وينهي القرآن عن الإسراف بالتوسط والتوازن في الإنفاق ، وهي قاعدة عامة في البيان القرآني ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [1] .

فهذه الآية الكريمة تنهي عن صفتين مذمومتين : أولاهما : البخل والتقتير، وثانيهما : الإسراف والبذخ ، وقد عدلت الآية عن الألفاظ الدالة على هاتين الصفتين ظاهرة صريحة ، وأدارت ألفاظًا مصورة ، فإذا البخيل المقتر يتصور للعيان ، وقد غلّ يده وشدها إلى عنقه ، فبدا كسيحًا لا يبدر منه عمل ينتفع به ، ولا ينهض بمهمته يفيد منه الآخرون، وصورته هذه بديلة عن حقيقة لازمة لهذه الحقيقة ، فينفر منه الناس لما يرونه عليه عيانا ، ويحسونه فيه مشاهدة ، وحقيقة الكلام لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ، ولا تمنع ما تملك كل المنع .

والاستعارة في الآية أبلغ ، لأنه جعل منع النائل بمنزلة غل اليدين إلى العنق ، وحال المغلول أظهر [٢] .

يقول ابن القيم في الآية : « مثل الله البخيل بأحسن تمثيل ، لأن البخيل لا يمد يده بالعطية، كالمغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده ، وإنما قال : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ ، ولم يقل : « ولا تجعل يدك مغلولة من غير ذكر العنق » ؛ لأنه قد قال : ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ فناب ذكر العنق عن قوله : ﴿ كل الغل ﴾ ؛ لأن غل اليدين إلى العنق، هي أقصى الغايات التي جرت العادة ، بغل اليد إليها » [٣] .

---

(١) الإسراء : ٢٩

(٢) انظر : البرهان للزركشي : ٤٣٩/٣ ، وتفسير الرازي : ١٩٤/٢ .

(٣) انظر : الفوائد المشوق : ١٩٨٢ ، ١٨٣ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ : أي لا تتوسع في الإنفاق توسعا مفرطا ، بحيث لا يبقى في يدك شيء ، وهي استعارة في معنى غاية الجود . كما أن الغل استعارة في معنى غاية البخل ، فنهى الله عن الطرفين ، وأمر بالتوسط بينهما [١] ، كما في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [٢] .

أهمية الإنفاق في سبيل الله :

كثرت التوجيهات القرآنية إلى الإنفاق في سبيل الله ، وعُدَّ عدم الإنفاق في سبيل الله مهلكة للعبد ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ . وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٣] .

قوله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ : اتفق البيانيون على أن « الباء » في قوله ﴿ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ ، تقتضي إما زيادة أو نقصا ، فقال قوم : الباء زائدة ، والتقدير : ولا تلقوا أيديكم إلى التهلكة ، أو أن يكون المراد بالأيدي الأنفس ، فالتقدير : ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة ، تجوز بذلك عن الجملة ، ومثله ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [٤] ، نسب ذلك إلى الأيدي، لأن أكثر الأعمال تزاول بها [٥] . وقال آخرون : بل ههنا حذف ، والتقدير : ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة [٦] .

ويضاعف الله – تعالى – أمر الإنفاق في سبيله في الدنيا والآخرة لمن شاء ، فيضرب لذلك مثلا ترغيبا في المجاهدة بالمال كما رغبهم في المجاهدة بالنفس في نصرة دينه ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٧] .

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ٢٠/١٩٤ ، والتسهيل في علوم التنزيل : ١٧٠/٢ .
(٢) الفرقان : ٦٧ .
(٣) البقرة : ١٩٥ .
(٤) الشورى : ٣٠ .
(٥) انظر : البرهان للزركشي : ٢٦٤/٢ ، مختصر تفسير الماوردي : ١٠٨/١ وتفسير الرازي : ١٣٦/٥ ، والإتقان : ١١١/٣ .
(٦) الحرف الزائد إما أن يكون له معنى أولا ، فإن كان له معنى وهو التأكيد ، وهذا ما يقصده البيانيون، فلا يصح تسميته زائدا ، لأن الزائد هو الحشو الذي لا معنى له ، وهذا لا يقول به أحد منهم ، لأنه ما من حرف في القرآن الكريم ، إلا وله معنى ، وأثر في مكانه ، بحيث لو حذف ، لاختل النظم والمعنى. فالأولى بالعلماء أن يعبّروا عن هذا الحرف وأمثاله بأنه صلة للتأكيد ، كما صنع ابن عبد السلام في مختصر تفسير الماوردي . انظر ذلك في مختصره : ١٥٨ .
(٧) البقرة : ٢٦١ .

أي مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيله ، سواء كان المراد : الجهاد ، أو جميع سبل الخير من كل بر ، كمثل باذر حبة أو كمثل زارع حبة على حذف المضاف [١] .

شبه الإنفاق بالبذر ، وشبه النفقة بالحبة ، وشبه مضاعفة أجرها بإخراج مائة حبة ، ترغيبا في الإنفاق ، وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها ، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة [٢] .

اختلف البيانيون في تقدير الآية ، فقيل : ومثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة، شبه الصدقة بالحبة ، أو مثل إنفاق الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل زرع حبة ، أو كمثل بذر حبة في سبيل الله ، أي في نصرة سبيل الله [٣] وينفقون أموالهم في طاعة الله ، فإن طاعته سبيل مؤدية إلى رضاه ، فيدخل فيه النفقات في جميع القربات من الواجب والتطوع .

وقيل إن المقصود من الآية : أنه إذا علم الإنسان الطالب للزيادة والربح ، أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت سبعمائة حبة ، ما كان ينبغي له ترك ذلك ، ولا التقصير فيه ، فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر عند الله في الآخرة أن لا يترك الإنفاق في سبيل الله ، إذا علم أنه يجعل له بالواحد عشرة ، ومائة وسبعمائة [٤] .

أما قوله : ﴿ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ : أسند الإنبات إلى الحبة ، لما كانت من الأسباب ، كما يسند إلى الأرض ، وإلى الماء ، والمنبت على الحقيقة هو الله ، والمعنى أنه يخرج منها ساق يتشعب منها سبع شعب ، لكل منا سنبلة فيها مائة حبة ، وهو تمثيل لا يقتضي وقوعه ، ولكنه تصوير للإضعاف ، كأنها ماثلة ، ينظر إليها القلب ببصيرته ، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة ، فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد البياني ، فيقوي إيمان المنفق ، وتسمو نفسه بالإنفاق ، وقد يكون هذا التصوير في الذُرة ، والدُّخن ، وفي البُر في الأراضي المغِلة ، على أن التمثيل يصح ، وإن لم يوجد على سبيل الفرض والتقدير [٥] .

ولنتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على « سنابل » ، وهي من جموع الكثرة ، إذ المقام مقام تكثير وتضعيف ، وجمعها على « سنبلات » في قوله : ﴿ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ فجاء بها على جمع القلة ، لأن السبعة قليلة ، ولا مقتضى للتكثير .

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ١٢٦ ، والأمثال في القرآن : ١٥٤ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير : ٣١٦/١ . (٣) وسبيله الإسلام المؤدي إلى ثوابه ورضاه .

(٤) انظر : الأمثال في القرآن : ١٥٤ ، والإشارة إلى الإيجاز : ١٢٦ .

(٥) انظر : تفسير البيضاوي : ٦٠ ، وتفسير النسفي : ١٣٣/١ ، والأمثال في القرآن : ١٥٥ .

والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء بفضله ، لا لكل منفق ، بل على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب .

وقيل : والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك ، فلا يقتصر على السبعمائة ، بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة . ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها ، فقال : ﴿ واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وإذا كان الله هو الواسع العليم فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ، ولا يضيق عنها عطنه ، فإن المضاعف واسع العطاء ، واسع الغني واسع الفضل[1] .

ولكن أي إنفاق هذا الذي يضاعف ، ويربو في الدنيا والآخرة ؟ إنه إنفاق الذي ينفق ماله لله ، ولا يمن ، ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور ، لا الذي ينفق لغير الله ، ويمن ويؤذي، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَموالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أذىً لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2] يمدح الله تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منا على من أعطوه ، فلا يمنون به على أحد ، لا بقول ولا بفعل ، وأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى ، ولو تراخى عن الصدقة ، وطال زمنه ، ضر صاحبه ، ولم يحصل مقصوده من الإنفاق[3] . والمقام هنا – ليس مقام شرط وجزاء ، بل مقام بيان للمستحق دون غيره[4] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أذىً ﴾ : عطف بـ « ثم » جريا على الأغلب؛ لأن المتصدق لغير وجه الله ، لا يحصل منه المن عقيب صدقته ، ولا يؤذي على الفور ، فجرى هذا على الغالب . وإن كان حكم المن ، والأذى الواقعين عقب الصدقة كذلك[5] .

أما ابن المنير السكندري فيرى في الآية وجها آخر ، وهو استعارة في الحرف « ثم » ، يقول : « وعندي فيها – أي الآية – وجه آخر محتمل ، وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها ، وإرخاء الطول في استصحابه ، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن ، ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه ، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل ، وتراخي زمن بقائه ، وعليه قوله : « ثم استقاموا » » أي داموا على الاستقامة دواما متراخيا ، ممتد الأمد ، وتلك الاستعارة هي المعتبرة ، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى ،

---

(١) انظر : الأمثال في القرآن : ١٥٥ ، البحر المحيط : ٣٠٢/٢ ، والدر المصون : ٥٧٩/٢ ، والتسهيل : ٩١/١ .
(٢) البقرة : ٢٦٢ .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير : ٣١٧/١ .
(٤) انظر : الامثال : ١٥٩ .
(٥) انظر : الدر المصون : ٥٨٣/٢ .

والشهوات ، وكذلك قوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذىً ﴾ أي يدومون على تناسي الإحسان ، وعلي ترك الاعتداد به ، والامتنان ، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإذاية ، وتقليد المن بسببه ثم يتوبون [١] .

ولأن الغرض من الإنفاق والبذل هو التأكيد على التعاون والتكافل ، لتقوية روابط الحب والود بين الناس ، قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [٢] .

وعندما يصل التأثير الوجداني في غايته ، يتوجه القرآن بالخطاب إلى الذين آمنوا ألا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى ، ويصف لهم نوعين عجيبين من الإنفاق : أحدها : الذي يتبعه المن والأذى ، والثاني : الذي لا يتبعه المن والأذى ، فشرح حال كل واحد منها ، وضرب مثلا لكل واحد على طريقة التصوير الفني في القرآن التي تعرض المعنى صورة ، والأثر حركة ، والحالة مشهداً شاخصا في الخيال ، فقال تعالى في القسم الأول الذي يتبعه المن والأذى ، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [٣].

والمراد : لا تبطلوا أجور صدقاتكم ، أو ثواب صدقاتكم بالمن على أخذيها بأذيتهم ، أو بالمن على ربكم والأذى لفقرائكم كإبطال أجر الذي ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم والآخر ، ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ أي الكافر ، كمثل زارع صفوان ، أو غارس صفوان [٤] ، عليه تراب فأصابه وابل [٥] ، فتركه صلدا [٦] .

شبه إبطال الكفر والرياء للصدقة بانسياب الوابل للتراب عن الصفوان [٧] .

وذكر بعض البيانيين أن الآية مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن المنان بصدقته ، يؤذي الناس ، يُرى الناس أن لهؤلاء أعمالا في الظاهر ، كما يُـرَى التراب على

---

(١) انظر : الانتصاف من الكشاف بهامش من الكشاف : ١/٢٨١ .

(٢) البقرة : ٢٦٣ . (٣) البقرة : ٢٦٤ .

(٤) وهو الحجر الأملس . (٥) وهو المطر الشديد العظيم .

(٦) أملس نقيا من التراب .

(٧) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ١٢٦ ، وتفسير البيضاوي : ٢٦٤ ، ومختصر تفسير الماوردي : ١/ ١٤٧، والإمام في أدلة الأحكام : لوحة : ١٩ .

الصفوان ، فإذا جاء المطر أذهبه ، وأزاله ، وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة تبطل أعمالهم ، وتضمحل كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب [١] .

فذكر سبحانه لكيفية إبطال أجر الصدقة بالمن والأذي مثلين : الأول : بمن ينفق ماله رئاء الناس ، وهو مع ذلك كافر لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، هذا المرائي الكافر أظهر من بطلان أجر صدقة من يتبعها المن والأذي .

ثم مثله ثانيا بالصفوان الذي وقع عليه تراب ، فالكافر كالصفوان ، والتراب مثل ذلك الإنفاق ، والوابل كاالكفر الذي يحبط عمل الكافر ، وكالمن والأذى اللذين يحبطان عمل هذا المنفق ، فكما أن الوابل أزال التراب الذي وقع على الصفوان ، فهكذا المن والأذى يوجب أن يكونا مبطلين لأجر الإنفاق بعد حصوله [٢] .

وإذا تأملنا أجزاء هذا المثل البليغ ، وانطباقها على أجزاء الممثل به ، عرفنا عظمة القرآن الكريم ، وبيانه في تماثل جزئيات السورة البيانية فيه .

فالحجر بمنزلة قلب المنفق المان والمؤذي في قسوته ، بمنزلة الحجر والتراب والعمل الذي لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر ، فقوة ما تحته وصلابته ، تمنعه من الثبات والنبات عند نزول الوابل ، فليس له مادة ، فتصله بالذي يقبل الماء ، وينبت الكلأ ، وكذلك قلب المرء ليس له ثبات عند الأمر والنهي والقضاء والقدر ، إذا أنزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه ، فبرز ما تحته حجرا صلدًا لا نبات فيه [٢] .

ولما ضرب الله تعالى – مثل من أنفق ماله رئاء الناس ، وهو غير مؤمن ، ذكر ضده بتمثيل محسوس للذهن ، حتي يتصور السامع تفاوت ما بين الضدين ، وهذا من بديع أساليب بيان القرآن ، فقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ [٤] بِرَبْوَةٍ [٥] أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ [٦] وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٧] .

---

(١) انظر : البحر المحيط : ٣٠٩/٢ ، وتفسير الخازن : ٢٨٥/١ ، والتسهيل : ٩٢/١ .
(٢) انظر : تفسير الرازي : ٥٥/٧ .
(٢) انظر : الأمثال في القرآن : ٢٥٨ بتصرف يسير .
(٤) بستان .
(٥) المكان المرتفع عن الأرض ، وهي أكرم من الجنة التي بالوهاد والحضيض .
(٦) الطل : المطر الضعيف الخفيف .
(٧) البقرة : ٢٦٥ .

أي ومثل تضعيف أجور من ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا صادرًا من عند أنفسهم ، كمثل تضعيف ثمار جنة بربوة ، فشبه تضعيف الأجر ههنا ، بتضعيف غلة الجنة ، فإن الغارس للنواة يحصل له من النخلة عشرة أقناء مثلا ، ويشتمل كل قنو على ألف أو ألفين ، ثم يتضاعف ذلك مرتين ، وإنما عظمت المضاعفة بما يزيد على السبعمائة لأنه ضُم إليها ابتغاء المرضاة والتثبيت[١] .

ويجوز أن يكون التمثيل لحالهم عند الله تعالى بالجنة على الربوة ، ونفقاتهم الكثيرة والقليلة الزائدتين في زلفاهم ، بالوابل والطل ، وكما أن كل واحد من المطرين يُضعف أُكل الجنة ، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها رضا الله تعالى ، زاكية عند الله ، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده[٢] .

وذكر الخازن أن المثل ضربه الله – تعالى – لعمل المؤمن المخلص في انفاقه وسائر أعماله، فكما أن هذه الجنة تربو وتزكو في كل حال ، ولا تخلف سواء كان المطر قليلا أو كثيرا ، فكذلك يضاعف الله صدقة المؤمن المخلص في صدقته ، وإنفاقه الذي لا يمن بها ، ولا يؤذي سواه ، قلت نفقته أو كثرت[٣] .

وإذا ما عدنا إلى جزئيات المثل وجدنا فيها من الأسرار البيانية ما لا حصر له ، فقوله : «تثبيتا من أنفسهم » : التثبيت هو تشجيع النفس وتقويتها والإقدام بها على البذل ، وتثبيت النفس يكون من وجوه :

الأول : توطينها على هذه الطاعة .

الثاني: ترك ما يفسدها من اتباع المن والأذى . والنفس لإثبات لها في موقف العبودية إلا إذا صارت مقهورة بالمجاهدة .

و « من » في الآية ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ : للتبعيض ، ويؤكده قراءة مجاهد ، « وتثبيتا من بعض أنفسهم » ، والمعنى أن من بذل ماله لوجه الله فقد يثبِّت بعض نفسه ، ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذي ثبتها كلها ، وهو المراد من قوله ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ، أو أن المراد من التثبيت أنهم ينفقونها جازمين بأن الله لا يضيع عملهم ، ولا يخيب رجاءهم ، لأنها مقرونة بالثواب ، قال الواحدي : « جاز أن يكون التثبيت بمعنى التثبت »[٤] .

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ١٢٦ ، وتفسير الرازي : ٥٧/٧ .
(٢) انظر : النسفي : ١٣٤/١ ، والبيضاوي : ٦١ .
(٣) انظر : تفسير الخازن : ٢٨٦/١ ، وتفسير ابن كثير : ٣١٩/١ ، وتفسير الرازي : ٥٧/٧ .
(٤) انظر : تفسير الرازي : ٥٦/٧ .

أما « الطل » في الآية فهو إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل ، فمن الناس من يكون إنفاقه وابلا ، ومنهم من يكون إنفاقه طلا ، والله لا يضيع مثقال ذرة ، أما السؤال الذي يطرح نفسه مهنا فهو : لماذا اشترك الوصف في المثلين السابقين بالوابل ؟

قال صاحب البحر : « أصابها وابل » : « وصفها بما تعلمه العرب وتشاهده كثيرا من انتفاع الرُّبا بالوابل، إذ يقل الماء الجاري في بلادهم ، وإن كانت الأنهار أصلها من الوابل »[١]. ولعل في هذا القول ما يجيب على سر اختيار « الوابل » دون سواه ، وإن كانت الأنهار التي تجري بسبب من هذا الوابل ، غير أن الوابل المشترك بين المثلين اختلف في كل مرة عما سواها ، ففي الحالة الأولى : الوابل يمحو ويمحق ، وفي الحالة الثانية : يُربي ويخصب . في الحالة الأولى يصيب الصفوان ، فينكشف عن وجه كالح كالأذى وفي الحالة الثانية يصيب الحبة ، فيمتزج بالتربة ، ويخرج « أكلا »، ولو أن هذا الوابل لم يصبها ، فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات ما يجعل القليل من المطر يهزها ، ويحييها ، فإن لم يصبها وابل فطل .

« وهذا من التناسق الرائع بين أجزاء المثلين ، ومنه كذلك وضع الجنة فوق الربوة في مقابل الحفنة من التراب فوق الصفوان »[٢] .

صورة أكل الربا يوم القيامة :

وإذا كان الإنفاق ابتغاء مرضاة الله مظهراً من مظاهر اليقين الواثق فيما عند الله ، وأمارة على ثبات النفس على الحق ، فإنه يأتي في الطرف الآخر ، الربا يمضي في الطريق المقابل للإنفاق .

ويصور القرآن أكل الربا يوم القيامة صورة منفرة منه مزرية به ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [٣] .

اجمع المفسرون على أن المعنى لا يقومون من قبورهم في البعث إلا كالمجنون الذي أصابه مس من الشيطان ، أو المصروع الذي لا يستطيع الحركة الصحيحة ، فهو لا ينهض واقفا حتى يسقط ، ولا يقوم إلا ليقع[٤] .

---

(١) انظر : البحر المحيط : ٣١٢/٢ .

(٢) انظر : التصوير الفني في القرآن : ٤٠ .

(٣) البقرة : ٢٧٥ .

(٤) انظر : تفسير الخازن : ٢٩٧/١، وتفسير النسفي : ١٣٨/١، وتفسير ابن كثير ٢٢٦/١ ، والتسهيل: ٩٤/١ .

أما قولهم : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ فهو اعتراض منهم على أحكام الله في شرعه ، فإن مقتضى الظاهر أن يقال : إنما الربا مثل البيع إذ الكلام في الربا لا في البيع ، فخالفوا وعكسوا مبالغة في جعلهم الربا في الحل أقوى حالا من البيع وأعرف منه ، وهذا ما يعرف عند البلاغيين بالتشبيه المعكوس[1] .

وليس هذا قياسًا منهم للربا على البيع ، لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن ، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : إنما الربا مثل البيع ، وإنما قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ ، أي هو نظيره ، فلم حرِّم هذا ، وأبيح هذا ، وهذا اعتراض منهم على الشرع[2] .

وفي الآية إشارة إلى أن الواجب اتباع أحكام الله واقتفاؤها من غير تعرض لإجرائها على قانون واحد ، وأن الأسرار الإلهية كثيرا ما تخفي ، وهو أعلم بمصالح عباده ، فيسلم له عنان الانقياد[3] .

ومن خلال تشريع القرآن لظاهرتي الإنفاق والربا في المجتمع يظهر لنا مدى اهتمام القرآن بالحالات النفسية ، وتصويرها تصويرا دقيقا عبر المقابلة الدقيقة في المعاني البيانية التي يسوقها حول هاتين الظاهرتين ، فجاءت الصدقة بوجهها المضيء المشرق وتبعتها صورة منفرة كالحة سوداء تكشف عن الربا وما فيه من قبح وكراهة وفساد للبلاد وهلاك للعباد .

وغرض القرآن من ذلك هو تهذيب النفوس وتربيتها على الإنفاق فتسمو النفوس ، وترتبط القلوب وتتكافل الأمة ويتعاون أفرادها على البر والتقوى فتكثر نماذج الخير ، وتقل نماذج الشر الحريصة على جمع المال بغير منهج الله .

التحذير من أكل أموال اليتامى :

ولهذا جاء تحذير القرآن من أكل أموال الناس بما لم يحبّه الله وبما لم يشرعه اعتمادا على المغالطة أو اللحن في القول والحجة أو بشهادة الزور والأيمان الكاذبة يقال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [4] .

---

(١) انظر : الطراز : ٢٣٨/١ ، والبحر المحيط : ٢٣٢/٢ ، والإيضاح : ٢٦٢/٢ والتبيان للطيبي : ٢٠١ ، ومفتاح العلوم : ٣٤٤ ، وتفسير الرازي : ٩١/٧ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير : ٣٢٧/١ .

(٣) انظر : البرهان للزركشي : ٤٢٧/٣ .

(٤) البقرة : ١٨٨ .

﴿ وَلاَ تَأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ : ليس المراد منه الأكل خاصة ، ولكن المراد منه الأخذ ، أي لا تأخذوا أموالكم بالسبب الباطل الذي هو القمار ونحوه فالآية مجاز من إيقاع المسبب موقع السبب [١] .

وعبر القرآن بالأكل ، ولم يعبر بالأخذ ؛ لأنه لما كان المقصود الأعظم من المال إنما هو الأكل ، فسمي الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده أو يقال : من أكل شيئا فقد ضمه إلى نفسه ، ومنعه من الوصول إلى غيره ، فلما حصلت المشابهة بين الأكل وبين الأخذ من هذا الوجه ، سمي الأخذ بالأكل ، والآية على هذا التوجيه استعارة عند الرازي [٢] . أو يقال : من أخذ أموال الناس ، فإذا طولب بردها ، قال أكلتها ، وما بقيت فلا أقدر على ردها فلهذا السبب سمي الأخذ بالأكل [٣] .

ويصور القرآن أكل أموال اليتامى بأكل النار ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأكُلُونَ أموالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [٤] .

وإنها لصورة مفزعة ، صورة النار مجسمة ، حتى لتكاد تراها العيون حقيقة ملء بطون الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، فبطونهم أوعية للنار حقيقة ، أو مجازٌ من إطلاق المسبب وإرادة السبب ، لاستلزام أموال اليتامى إياها ، من حيث أن كل أموال اليتامى ظلما يفضي إلى النار ، والمجاز في الآية أولى من الحقيقة [٥] .

ذكر ابن عبد السلام أنه سمي ما يأكلون ناراً ، لأنه سبب عذابهم بالنار ، ولأنه يصير يوم القيامة في بطونهم نارا ، فسماه بما يؤول إليه [٦] .

وفي الآية فوق ما ذكر البيانيون رعاية حقوق الضعفاء وصيانتها من الضياع ، ولذلك سبق الأمر من الله في نفس السورة برد أموال اليتامى إليهم كاملة متى بلغوا سن الرشد ، فقال : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أمْوَالَهُمْ ، وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلاَ تَأكُلُوا أمْوَالَهُمْ إِلَى أمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [٧] .

سماهم يتامى باعتبار ما كان ، فالآية مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كانوا عليه [٨] .

---

(١) انظر : البرهان للزركشي : ٢/٢٦٠ والفوائد المشوق : ٢٨ .
(٢) انظر : تفسير الرازي : ١٦/٢٤ ، ٥/١١٨ .
(٢) انظر : تفسير الرازي : ١٦/٤٢ . (٤) النساء : ١٠ .
(٥) انظر : البرهان : ٢/٢٦٠ ، وتفسير الرازي : ٩/٢٠١ ، والكشاف : ٥٠٤ .
(٦) انظر : مختصر تفسير الماوردي : ١/١٧٤ . (٧) النساء : ٢ .
(٨) انظر : التلخيص : ٢٩٨ ، والفوائد المشوق : ٤٩ ، وشرح التلخيص /٥٥٢ ، والبرهان : ٢/٢٨٠ ، والإيضاح : ٢/٤٠٣ ، وتفسير النسفي : ١/٢٠٥ .

ويقف الباحث في إعجاب شديد أمام البيان التشريعي في القرآن ، حيث تتجلى فيه الدقة القانونية الدقيقة من غير إخلال بفصاحة التعبير وبيانه ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ، وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ ، فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ .... ﴾ [١] .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ : الآية مجاز من إيقاع السبب موقع المسبب ، يقول الزركشي : « إنما جعلت المرأتان للتذكير إذا وقع الضلال ، لا ليقع الضلال ، فلما كان الضلال سببا للتذكير أقيم مقامه »[٢] .

أما حين يكون الدائن والمدين على سفر فلا يجدان كاتبا فتيسيراً للتعامل مع ضمان الوفاء ، رخّص القرآن في التعاقد الشفوي بلا كتابه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾[٣] .

يقول صاحب الظلال : « يتكيء التعبير هنا على القلب ، فينسب إليه الإثم تنسيقا بين الإضمار للإثم والكتمان للشهادة ، فكلاهما عمل يتم في أعماق القلب »[٤] .

والأصل في الإثم أن يضاف للعضو الذي صدر عنه حقيقة ، ولكن لماكان الأصل في المنع من الأداء إنما يكون لرغبة أو رهبة ، وهما في القلب ، فالقلب المانع في الحقيقة ، فإضافة الذنب إليه أولى[٥] .

يقول الطيبي :﴿ فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ : « أي ذاته ، مجاز من تسمية الشيء باسم جزئه »[٦]، أضاف الإثم إلى القلب ، وإن كانت الجملة كلها آثمة من حيث كان محلا لاعتقاد الإثم ، والبر، كما نسبت الكتابة إلى اليدين حيث إنها تفعل بها في قوله : ﴿ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[٧] ، وإن

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .
(٢) انظر : البرهان للزركشي : ٢/٢٦١ .
(٣) البقرة : ٢٨٣ .
(٤) انظر : في ظلال القرآن : ١/٣٣٨ .
(٥) انظر : فوائد في مشكل القرآن : ١/١٠٤ ، ١٠٥ .
(٦) انظر : التبيان للطيبي : ٢٢٥ .
(٧) البقرة : ٧٩ .

كانت الجملة كلها كاتبة ، ولهذا قال ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [١] .

ذلك لأنه من المعلوم أن أفعال الجوارح تابعة لأفعال القلوب ، ومتولدة مما يحدث في القلوب من الدواعي والصوارف ، فلما كان الأمر كذلك ، أضيف الإثم ههنا إلى القلب [٢] .

والملاحظ أن البيانيين قد أفاضوا في توجيه الآية توجيها بيانيا ، فبعضهم اعتبر الآية من المجاز المرسل ، وبعضهم جعل جميع أعضاء الجسم تابعة للقلب ، فإذا أثم القلب أثم الجسد كله ، ويؤكد ما ذهب إليه علماؤنا القدامى ، قول الرسول ﷺ :

« ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » .

ولا يعتمد البيان القرآني في إبراز جوانب التربية والتشريع على التصوير الفني المباشر ، ولكنه يستخدم – كذلك – القصة لتتربى الأمة من خلالها على مكارم الأخلاق ، ذلك لما للقصة من تأثير كبير على نفوس القراء والمستمعين ، إذ إنها تربط أسباب الحوادث بنتائجها ، مظهرة مواطن العبرة فيها ، مما يقوي تعلق القلوب بها ، ويجعل الإنسان يتابع فصولها بشوق ، ويلم بأحداثها بتلهف ، وكأنها حياته الخاصة التي يحياها ، لذا برز اهتمام البيان القرآني بجانب القصة على النحو الذي سيظهر لنا في الفصل التالي .

---

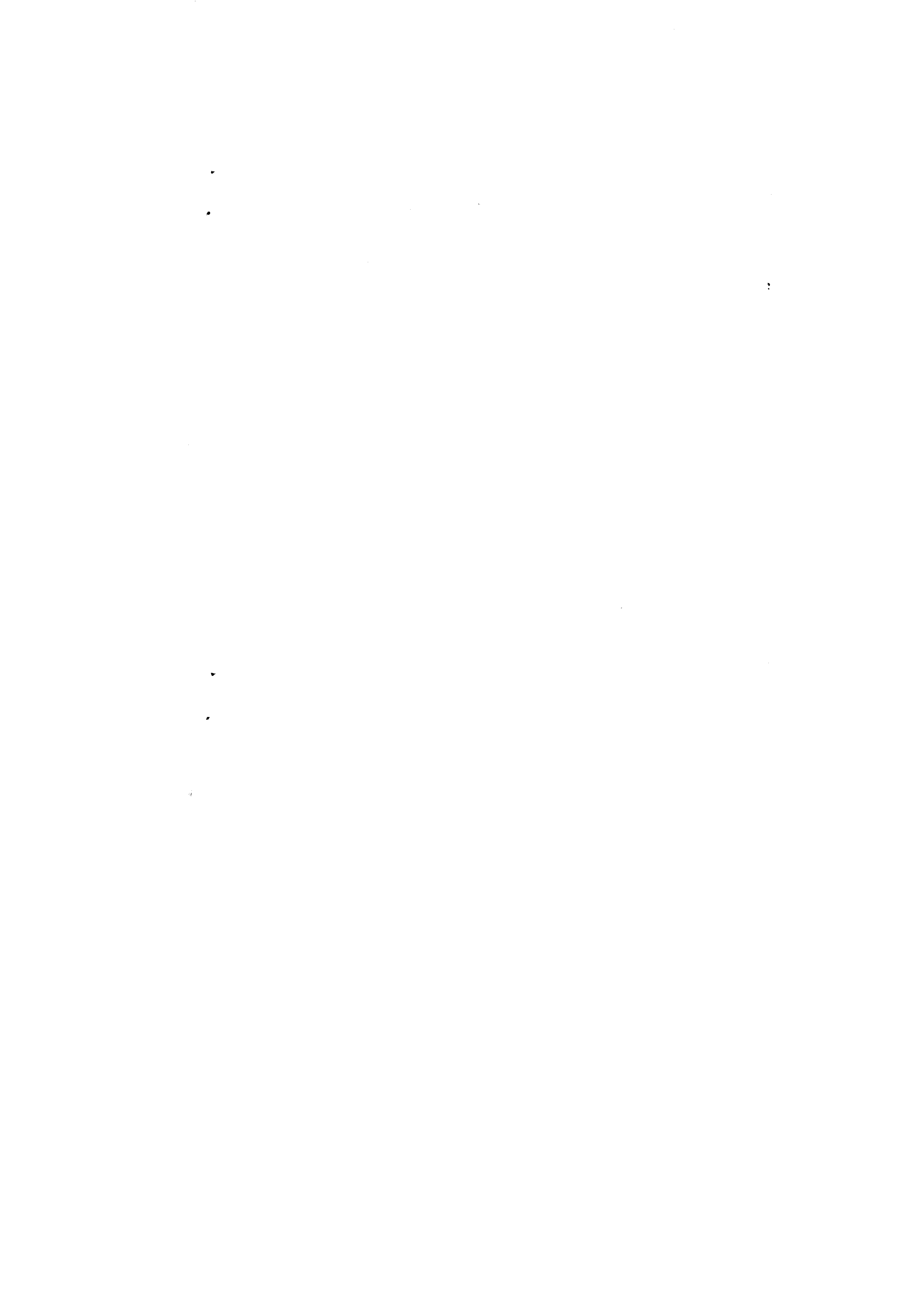
(١) انظر : البرهان للزركشي : ٢/٢٦٥ .

(٢) انظر : تفسير الرازي : ٧/١٢٣ .

الفصل الرابع

القصص القرآني

* أصحاب الجنة
* صاحب الجنتين
* قصص الأنبياء
* محمد ﷺ وصحبه



القصص في البيان القرآني

يعتبر القصص القرآني في سياق القرآن أداة للتربية ، ومصدر توجيه للأمة ، لأن هذه القصص قطع من الحياة الماضية ، ينفخ فيها القرآن الحياة ، فإذا هي حية تسعى ، ليتحقق الغرض الأسمى في ظل التوجيهات الرائدة ، والعواقب المنوه عنها ، ويزداد أولوا الألباب عظة واعتباراً .

وتعتبر رواية القرآن لقصص الماضين رواية صادقة ، لواقع صحيح ، لا مكان فيه للخيال لقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾[1] فضلاً عن أن القرآن ينفرد في عرض قصصه بأسلوب معجز ، ونظم بديع محكم ، وهذا يؤكد على سمو بيانه ، وذروة بلاغته .

وجدير بالذكر أن القصص القرآني يقوم على الغرض الديني المحض ، ولايعتمد أبداً على اتجاهات القصة الأدبية الحديثة ، فالقرآن كتاب دعوة قبل كل شيء ، وليس كتاب قصص فني ، والذي يمكن أن نؤكد عليه هنا بملء أفواهنا هو أن القصة في القرآن إنما هي وسيلة من وسائل البيان القرآني ، وأنها لاتختلف في غايتها عن المثل الذي يضربه للناس ، فهدف القصة هو هدف القرآن ذاته ، وهو إبراز الحجة والقوة في الإقناع .

وقد قصدت في هذا الفصل استجلاء الأسرار البيانية التي تكمن في ثنايا القصص القرآني ، وسبر أغوار البيان القصصي ، والتأمل في روائع نظمه وإعجازه ، وإن كنت لم أغفل عرض القصة بصورة متكاملة ، وسرد وقائع الأحداث فيها ، لتبدو تامة غير ناقصة أمام القارئ .

ويلاحظ المرحوم الأستاذ سيد قطب – أنه على الرغم من أن غرض القصة القرآنية ديني محض ، فإنا لنستطيع أن نجد بعض العناصر البارزة قائمة في معظم القصص التي وردت في الكتاب الكريم منها : الشخصية ، والحوار ، والصراع ، والمفاجأة ، والتصميم ، ويلحظ – كذلك – أن طبيعة الحوار بمجمله ، وعلى مختلف ضروبه ، لايوضع على ألسنة الشخصيات ، وإنما ينطلق منها انطلاقاً طبيعياً ، أو تلقائياً ، دون أن يحس القارئ بشيء من آثار الصنعة أو التكلف[2] .

---

(١) طه [٩٩] .

(٢) انظر : التصوير الفني في القرآن : ١٢٨ ، وروائع الإعجاز في القصص القرآني لمحمود السيد حسن جـ ١ ، المكتب الجامعي الإسكندرية ، والتعبير الفني في القرآن ، د. بكري شيخ أمين ، ص : ٢١٩ ، ٢٢٨ . ط . دار الشروق . ١٩٨٠ .

أصحاب الجنة :

وهاهي نماذج من القصص القرآني الدال على ما ذكرناه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ . فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وواضح من القصة أن الله – تعالى – يضرب بها المثل لبيان عاقبة المكر والتبييت والمنع ، والبطر بالنعمة ، إنها قصة أصحاب الجنة – جنة الدنيا – لا جنة الآخرة ، إنهم قوم منعوا خيرًا كان يؤديه أبوهم خوف الفقر ، وضيق الرزق ، نلمح ذلك من خلال التعبير القرآني : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ ، حلفوا ليقطعن ثمرها في الصباح ، قبل انتشار الفقراء والمساكين ، دون أن يستثنوا منها شيئًا للمساكين ، كما كان يفعل أبوهم الطيب الصالح .

وفي معنى « يستثنون » ثلاثة أقوال : أحدها : لم يقولوا : إن شاء الله حين حلفوا ليصرمنها . والثاني : لايستثنون شيئًا من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم . والثالث : لايتوقفون في رأيهم ، ولاينتهوا عنه ، أي : ولايرجعون عنه (٢) . ثم تحدث مفاجأة تتم في خفية جزاء لما دبره الورثة خفية،من بطر ومنع ، ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ : أنزل الله عليها نارًا من السماء ليلاً ، فأحرقتها وهم نائمون ، والطائف لايكون إلا ليلاً .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ : ذكر البيانيون في معنى الآية أقوالاً منها : أنها أصبحت كالبستان الذي حرق ثماره ، بحيث لم يبق فيه شيء ، أو كالليل المظلم باحتراقها ، واسودادها، أو مثل الزرع ، إذا حصد ، أي : هشيمًا يبسًا (٣) ، أو كالنهار ، أي : صارت أرضًا بيضاء بلا شجر (٤) .

---

(١) القلم [١٧ : ٣٢] .

(٢) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ٤ / ١٢٩ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٠٦ .

(٤) انظر : تفسير البيضاوي : ٧٥٣ ، وتفسير النسفي : ٤ / ٢٨١ .

قال الرازي : « والليل يسمى صريماً ، وكذا النهار ؛ لأن كل واحد منهما ينصرم بالآخر شبهت الجنة ، وهي محترقة ، لا ثمرة فيها ولا خير ، بالرملة المنقطعة عن الرمال ، وهي لاتنبت شيئًا ينتفع به[١] ، وحرم الأبناء خير الجنة بسبب ذنبهم .

فهاهم يصبحون مبكرين ، يتسارون فيما بينهم ، حتى لايشعر بهم أحد ، ويذكّر بعضهم بعضًا بما قرّ عليه رأيهم ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ . فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ : والنهي عن دخول المساكين هنا مبالغة في النهي عن التمكين ، أي : لاتمكنوهم من الدخول ، كقوله : لا أرينك ههنا[٢] .

﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ : والحرد هو المنع . أجل إنهم لقادرون على المنع والتضييق والحرمان ، ولكن حرمان من ؟ حرمان أنفسهم قبل حرمان المساكين .

ثم يفاجأ أصحاب الجنة بجنتهم محترقة ، فحسبوا أنهم أخطأوا الطريق ، ثم تبينوها فعرفوها ، وعلموا أن الله عاقبهم فيها ، بما دبروا وبيتوا ، فندموا على ما فعلوا[٣] . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا : إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ .

وبعد أن حاق بهم عاقبة ما قالوا ، يتقدم أوسطهم رأيًا وسنًا قائلاً لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، فلام بعضهم بعضًا لأن منهم من شارك بذلك ، ومنهم من استصوبه ، ومنهم من سكت راضيًا ، ومنهم من أنكره ورأى غير رأيهم ، لكنه لم يصر على الحق الذي رآه ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ .

ثم تركوا التلاوم واعترفوا بالخطيئة أمام العاقبة المرة ، وتابوا إلى ربهم ، عسى أن يعوضهم خيرًا عما فاتهم ، ﴿ قَالُوا : يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ ، وقد روي أنهم بدلوا خيرًا منها[٤] .

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ : أي مثل هذا العذاب الذي ينزل بأهل الجنة ، ينزل بأهل مكة . ووجه تشبيه قريش بأصحاب الجنة أن الله أنعم على قريش ، ببعث محمد ﷺ ، كما أنعم على أصحاب الجنة بالجنة ، وكفر هؤلاء بهذه النعمة ، كما فعل أولئك ، فعاقبهم الله كما عاقبهم[٥] .

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ٢٠ / ٣٠ .
(٢) انظر : تفسير البيضاوي : ٧٥٣ .
(٣) انظر : التسهيل : ٤ / ١٣٩ .
(٤) انظر : تفسير البيضاوي : ٧٥٣ .
(٥) انظر : التسهيل : ٤ / ١٤٠ .

ومن خلال نصوص هذه القصة وحركاتها ، نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية ، أشبه في تفكيرها ، وتصوُّرها وحركتها ، بأهل الريف البسطاء السذج ، ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية ، كان أقرب إلى المخاطَبين بالقصة ، الذين كانوا يعاندون ويجحدون ، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد ، إنما هي أقرب إلى السذاجة والبساطة [١] .

وبالرغم من هذا القول الوضيء ، إلا أننا نشعر أن للقصة أثرًا حتى على العقليات المركبة، والمعقدة في عصرنا الحاضر ، لما فيها من مفاجآت مشوِّقة وحياة متحركة ، وتصوير فني مبدع ، حتى لكأن السامع يتابع أحداثها في عالم الواقع والحقيقة .

صاحب الجنتين :

ويحدثنا القرآن عن قصة أخرى هي قصة صاحب الجنتين ، مع صاحب له ليس من ذوي الجنان ، لكنه من ذوي الإيمان والاطمئنان لما عند الله ، وقصة صاحب الجنتين تضرب مثلاً للكفر والإيمان ، وللنفوس المتبطرة بنعمة الله ، والأخرى المعتزة بالله ، والتي ترى النعمة موجبة لحمد الله وشكره ، لا بجحوده وكفره ، قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا . فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [٢] .

واضرب لهم مثلاً : أي : اضرب لهم مثلاً ، مثل رجلين ، أي وبيِّن لهم حالاً حال رجلين ، أو شأنا شأن رجلين ، أو صفة صفة رجلين [٣] ، والمثل مضروب للكفار ، الذين قالوا للنبي ﷺ

---

(١) انظر : في ظلال القرآن : ٦ / ٣٦٦٤ . (٢) الكهف [٣٢ : ٤٣] .
(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ١٦٨ .

اطرد فقراء المسلمين ، وللفقراء الذين أرادوا طردهم ، أي مثل هؤلاء ، ومثل هؤلاء كمثل هذين الرجلين .

والملاحظ على قصة هذين الرجلين أنها تُعرض في عدة حلقات ، الحلقة الأولى : تصف الجنة الضخمة ، المكتملة بأنواع الثمار ، ثم تأتي الحلقة الثانية ، وهي محاورة الكافر لصاحبه المؤمن ، والتي تمتلىء بفخر الغني وكِبْره، واحتقاره لأخيه المؤمن، الذي يظن أن الله – تعالى – إنما ولاه ما ولاه لاستنهاله ، واستحقاقه إياه لذاته[١] .

ولكن ماذا ترى يكون رد الفقير المؤمن ، الذي لا جنة له ولا نفر ؟ الواضح أن المؤمن المعتز بإيمانه لم تخدعه هذه المظاهر الكذابة ، ولم تُغفله عن تذكير صاحبه بالله ، وتبصيره بما كان يجب أن يصنع إذا دخل جنته : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ؟ ! ﴾ .

ويفترق الأخوان وهما غاضبين : أحدهما : غاضب لله ، والآخر : غاضب من التذكير بالله ، ويُفاجأ صاحب الجنتين بما توقعه صاحبه وأنذره منه – بتهدم جنتيه ، وتساقطهما ، وندم على ما فلت منه من عبارات البطر والكفر بنعمة الله ، ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ .

وأحيط بثمره : عبارة عن إهلاكه ، وأصله من أحاط به العدو ، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه ، واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك[٢] ، وهي استعارة تمثيلية ، لأنها صورت حالة هلاك الثمر ، بحالة استئصال العدو القاهر لعدوه[٣] . أما قوله : « فأصبح يقلب كفيه : أي يضرب إحداهما على الأخرى ، وهو كناية عن الندم والتحسر »[٤] . وإنما صار تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر ، لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن ، كما كني عن ذلك بِعَضّ الكف والسقوط في اليد ؛ لأنه في معنى الندم[٥] .

أما المعاني الثانية التي يمكن أن نستوعبها من هذه القصة فهي :

أولاً : التذكير بزوال بهجة الحياة الدنيا ، مهما فتنت أصحابها بسحرها وجمالها .

ثانياً : التنبيه على أنه ليس هناك من ضمان لمستقبل الإنسان غير الإيمان الكامل بالله .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي : ٢٩٢ . (٢) انظر : تفسير النسفي : ٣ / ١٤ .

(٣) انظر : البلاغة القرآنية د. محمد أبو موسى : ٤٢٢ ، والتصوير البياني : ٣١٩ .

(٤) انظر : تفسير البيضاوي : ٢٩٣ . (٥) انظر : تفسير النسفي : ٣ / ١٤ .

ثالثـًا : تبشير المؤمنين بحسن العاقبة ، وتخويف الكافرين من عذاب النار .

رابعـًا : العظة والإرشاد ، بأن متاع الآخرة هو المتاع ، وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب.

خامسًا : التنفير من البطر بالنعمة ، والاغترار بالغنى ، والتكبر على الفقراء[١] .

والآن يجيء دور القصص الحقيقي ، بعدما عرضنا شطرًا من قصص الأمثال ، وهي قصص الأنبياء في القرآن ، مركزين على الجانب البياني منه ، رابطين قدر الأمكان بين حلقات القصة وأحداثها ، وبين التصوير البياني فيها ، الذي يعتبر محور الدراسة والبحث ... وهذا هو موضوع المبحث التالي ....

قصص الانبياء في البيان القرآني

١ - ادم عليه السلام :

لتكن قصة آدم - عليه السلام - بداية موكب الأنبياء ، وهي مبثوثة في أكثر سور القرآن وسنلتقط الآيات التي تحتوي على بعض أجزاء البيان ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَاتَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[٢] .

لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة ، أباح لهما أن يتمتعا بكل شيء من ثمرها عدا شجرة واحدة ، أمرهما أن لايقرباها ، وأن لايذوقا ثمرها ، وأنهما إن فعلا ذلك ، يكونان من الظالمين، ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ ، نسب الخروج إليه لأنه سببه بالرغم من تحذير الله لهما في موضع آخر ﴿ فَقُلْنَا يَا ءَادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ، فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾[٣] ، أي : فلا يكون سببًا في إخراجكما ، لأن الإخراج فعل الله ، وإبليس سببه ، فالآية مجاز[٤] .

ونسي آدم وحواء أن الشيطان هو عدوهما ، ووقعا في حبائله ، فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة انكشفت لهما عوراتهما ، وشعر آدم وحواء بمبلغ ما اقترفا من إثم ، فندما أشد الندم ، وكرر القرآن القصة في موضع آخر فقال تعالى : ﴿ وَيَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ

---

(١) بتلخيص عن كتاب « المعاني الثانية في الأسلوب القرآني » لأستاذنا الدكتور فتحي عامر . ط دار المعارف . القاهرة . ٤٤٩ .

(٢) البقرة [٣٥ : ٣٧] . (٣) طه [١١٧] .

(٤) انظر : المطول : ٦٣ ، وتفسير النسفي : ٣ / ٦٨ ، ومختصر تفسير الماوردي : ١ / ٣٧ .

الجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاتَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْتَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾(١) .

فبدت لهما سوءاتهما : يقول السمين : سوءات بالجمع ، وضع موضع التثنيه ، كراهة اجتماع تثنيتين ، والجمع أخو التثنية ، فلذلك ناب منابهما ، كقوله : ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، ويُحتمل أن يكون الجمع على حقيقته ؛ لأن لكل واحد منهما قُبلاً ودُبُرًا ، والسوءات : كناية عن ذلك ، فهي أربع ، فلذلك جيء بالجمع (٢) .

وتضرّع آدم وحواء إلى ربهما قائلين : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾(٣) . وقبل الله توبة آدم ﴿ فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٤) . والكلمات : جمع كلمة ، وهي اللفظ الدال على معنى مفرد ، ويطلق على الجمل المفيدة مجازًا ، تسمية للكل باسم الجزء ، كقوله : ﴿ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾(٥) وقول لبيد :

الا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللَّهَ بَاطِلُ	وكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ

فسماه رسول الله ﷺ كلمة ، فقال : « أصدق كلمة قالها شاعر : كلمة لبيد »(٦) .

ثم أهبطهما الله إلى الأرض ليتم الاستخلاف ، وأخبرهما ، بأنه سيكون لذريتهما عداء فيما بينهم ، فقال : ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾(٧) .

إن قصة آدم تنبيه لأبنائه ، لأنهم مُعَرَّضون للإغراء والإغواء من الشيطان الذي كان عدوًا لأبيهم ، والذي أوقعه في مخالفة أمر الله بالكذب والخداع ، وما ترتب على ذلك من خروجه من الجنة جزاء عصيانه ، وفي هذا درس للبشر ، وتنبيه لهم أن عداوة الشيطان ما تزال مستمرة في ذريته حتى يوم القيامة .

---

(١) الأعراف [١٩ : ٢٢] .
(٢) انظر : الدر المصون : ٥ / ٢٧٨ .
(٣) الأعراف [٢٣] .
(٤) البقرة [٣٧] .
(٥) آل عمران [٦٤] .
(٦) انظر : الدر المصون : ١ / ٢٩٦ .
(٧) طه : [١٢٣] .

وإبراز هذه العداوة الخالدة بين الشيطان ، وبين ذرية آدم ، عن طريق القصة أروع وأقوى ، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في نفس الإنسان تدعوه إلى الشر وإسنادها إلى عدو البشرية الذي لايريد بالناس خيراً .

قال تعالى مؤكداً هذه العداوة : ﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ لايَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاتَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ لايَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ ﴾ : ولم يقل كما فتن أبويكم، لأن الخروج من الجنة هو المسبب الناشيء عن الفتنة ، فأوقع المسبَّب موقع السبب ، أي : لاتفتتنوا بفتنة الشيطان ، فأقيم فيه السبب مقام المسبب ، وهو سبب خاص ، فإذا عُدم ، فيعدم المسبب .

فالنهي في الحقيقة لبني آدم ، والمقصود عدم وقوع هذا الفعل منهم ، فلما أخرج السبب من أن يوجد بإيراد النهي عليه ، كان أدل على امتناع النهي بطريق الأولى (٢) ، والغريب أن النسفي اعتبر النهي في الآية للشيطان في الظاهر ، وفي المعنى لبني آدم ، والواضح من سياق الآية أن النهي لفظاً ومعنى موجه لبني آدم كما ذكر السمين (٣) .

أما الزركشي فقد اعتبر الآية من المجاز ، وبخاصة قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ ، جعله مجازاً من نسبة الخروج إليه ، لأنه سببه ، أي كما أخرج أبويكم ، فلا يخرجنكما من الجنة (٤) .

وقوله ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ : حال : أي أخرجهما نازعاً لباسهما ، نسب النزع الذي هو فعل الله إلى إبليس ، وإن لم ينول ذلك إليه ، لأن سببه أكل الشجرة ، وسبب أكلها وسوسته ، ومقاسمته إياهما ، إنه لمن الصالحين ، وذلك كما نقول ، أنت فعلت هذا ؟ لمن حصل منه ذلك الفعل بسبب ، وإن لم يباشره (٥) والراجح أن المجاز في الآية بسبب السبب ، وليس السبب كما ذكره البيانيون (٦) .

---

(١) الأعراف [٢٧] . (٢) الدر المصون : ٢ / ٢٥٩ .
(٣) انظر : تفسير النسفي : ٢ / ٤٩ .
(٤) البرهان : ٢ / ٢٦٢ .
(٥) انظر : الإيضاح : ١ / ١٠٤ ، والمطول : ٦٣ ، وشرح التلخيص : ١٨٦ .
(٦) البرهان : ٢ / ٢٦٢ .

٢ - نوح عليه السلام :

أرسلَ نوح إلى قومه عندما تحولوا إلى عبادة الأصنام ، وأمعنوا في الضلالة والكفر ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَنْ لاتَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) .

يقول السمين في قوله « أليم » إسناد الألم إلى اليوم مجاز لوقوعه فيه ، لا به ، وقال الزمخشري : « فإذا وصف به العذاب قلت : مجاز مثله ؛ لأن الأليم في الحقيقة هو المعذب فنظيرها قولك : نهارك صائم » (٢) ، قال صاحب البحر المحيط : « وهذا على أن يكون «أليم» صفة مبالغة وهو من كثر ألمه ، وإن كان «أليم» بمعنى «مؤلم» ، فنسبته لليوم مجاز ، وللعذاب حقيقة » (٣) .

ولكن قوم نوح لم يستجيبوا لنصيحته ، ولم يأبهوا لإنذار الله لهم ، وأنكروا عليه أن يكون نبيًا لأسباب منها : كونه بشرًا ، وأتباعه في نظرهم ليسوا من ذوي الفضل ، واتهموه ومن معه بالكذب ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا ، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٤) .

فهذه الآية موضعها في قصدهم ، واعتقادهم موضع التعريض (٥) ، بأنهم أحق بالنبوة ، وأن نوحًا لم يكن متميزًا عليهم بحالة يجب لأجلها أن يكون نبيًا من بينهم ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم (٦) . فقالوا : هب أنك واحد من الملأ ، ومواز لهم في المنزلة ، فما جعلك أحق منهم بها ؟ ألا ترى إلى قولهم : ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ (٧) .

ثم يبين لهم نوح عليه السلام ، أنه ليس عجيبًا أن يأتيهم نصح وتوجيه على لسان رجل منهم ، ينذرهم عذاب الله ، ويدعوهم إلى رحمته ، ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ، قَالَ : يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاتَعْلَمُونَ ، أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ

---

(١) هود [٢٥ ، ٢٦] . (٢) انظر : الكشاف :

(٣) البحر المحيط : ٦ / ٣٠٩ . (٤) هود [٢٧] .

(٥) والتعريض في القرآن وارد كثيرًا بأحوال الكفرة في التهكم والنقص وإسقاط المنزلة ، وحط القدر، ومواضعها دقيقة تستخرج بالفكر الصافي ، والرسوخ في قدم البلاغة . الطراز : ١ / ٣٨٨ .

ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنكُم لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1] .

﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ : أي : في زوال عن الحق بيِّن[2] . تجوز بـ «في» عن كثرة ما جعل ظرفًا مجازًا ، لما كان الحاوي (الظرف) أعظم من المحوي (المظروف) شُبه به ما توالى أو كثر من المعاني[3] ، والملاحظ أن الكثرة في المعنى «الظرف» فيما ذكره البيانيون من تنكير اللفظة الدالة على المعنى ، فالنكرة من معانيها التكثير والتعظيم ، ولعل هذا هو قصد البيانيين من الكثرة في هذا الموضع ، ومن أمثلة هذا النوع قولهم : فلان في أكل وشرب ، وأتيته في عنفوان شبابه[3] .

ثم قال لهم : ﴿ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي ، وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ : مجاز، وحقيقته – كما قال السمين الحلبي – أن الحُجة كما جُعلت بصيرة ومبصرة ، جُعلت عمياء ، لأن الأعمى لايهتدي ، ولايهدي غيره ، فمعنى فعُمِّيت عليكم البينة فلم تهدكم ، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة ، بقوا بغير هاد[5] . ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾[6] .

واستمر نوح في دعوته ، محاولاً إقناع قومه ، وأخذ يحاورهم ويجادلهم ، مستخدمًا ساطة الحوار ، ومحاولة التقرب من مشاعرهم[7] ، ولم تؤثر كلمات نوح – عليه السلام – في س قومه ، بل ردوا عليه في عناد بقولهم : ﴿ يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[8] بمعنى : أردت جدالنا ، وشرعت فيه ، وإنما عُبِّر به عن إرادة الفعل ؛ لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل ، وإرادته وقصده إليه[9] .

وبعد أن بذل نوح قصارى جهده في سبيل هداية قومه ، وبعد أن ضاقت في وجهه كل السبل لإصلاحهم ، عندئذ لجأ إلى ربه يشكو قومه : ﴿ قَالَ رَبِّ لَاتَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَايَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[10] . دعا

---

(١) الأعراف [٦٠ : ٦٣] . (٢) انظر : تفسير البيضاوي : ٢٠٩ .

(٣) انظر : الفوائد المشوق في علوم القرآن : ٦٨ ، والإشارة إلى الإيجاز : ٢٣ ، ورسالة الباحث في الماجستير : ٢٨٧ .

(٤) هود [٢٨] . (٥) الدر المصون : ٦ / ٣١٤ .

(٦) أي أكرهكم على الاهتداء بها وأنتم لاتختارونها ولا تتأملون فيها . البيضاوي : ٢٩٥ .

(٧) انظر تفصيل ذلك من سورة هود [٢٧ : ٣٤] ، وسورة الأعراف من [٦٠ : ٦٣] .

(٨) هود [٣٢] . (٩) البرهان : ٢ / ٢٩٦ .

نوح ربه ألا يترك على الأرض أحدًا من الكافرين ، لأنه - سبحانه - إن ترك الكافرين متمادين في ضلالهم ، أضلوا غيرهم ، وانتشر فسادهم ، وانتقل ذلك بالوراثة إلى ذريتهم، ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي : صائرًا إلى الفجور والكفر ، مجاز من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه(١) .

وأخبر القرآن أن نوحًا دعا ربه - أيضًا - أن ينتقم من قومه ، فاستجاب الله دعاءه ، وأرسل السماء عليهم مدرارًا ، وتفجرت الأرض عيونًا ، وحصل من جرّاء ذلك الطوفان العظيم، وتَسَجِّل العدسة القرآنية هذا المشهد ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾(٢) .

ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر : أي : منصب : وهو مبالغة وتمثيل ، لكثرة الأمطار ، وشدة انصبابها(٣) . ومن روعة البيان القرآني في الآية أنه قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ ولم يقل أنابيب السماء ، ولا منافذ ، ولا مجاري ، أو غيرها ، ولم يقل - كذلك - ففتحنا السماء أبوابًا ، لأن السماء أعظم من الأرض ، وهو للمبالغة كما سبق(٣) .

وفجرنا الأرض عيونًا : أي : وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون منفجرة ، ولو قال : وفجرنا عيون الأرض ، لم يعط أن الأرض كلها صارت عيونًا ، ويفيد ذلك لفظ القرآن (٤) . وأصل النظم : وفجرنا عيون الأرض ، ولكنه غيّر للمبالغة (٥) ، ونظيره في النظم ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ، والتفجير في العيون للمعنى ، ولكنه أوقع في اللفظ على الأرض ، ليفيد أن الأرض بالكلية قد صارت عيونًا (٦) . والقرآن يريد أن ينقل المستمع من المعنى الحقيقي ، إلى المعنى المؤثر ، معنى المبالغة .

---

(١) انظر : البرهان : ٢ / ٢٧٨ .
(٢) القمر [٩ : ١٤] .
(٣) انظر : تفسير الرازي : ٢٩ / ٣ .
(٤) بديع القرآن : ٢٠ .
(٥) انظر : تفسير النسفي : ٤ / ٢٠٢ .
(٦) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٦٥ ، والفوائد المشوق : ٧٨ ، والبرهان : ٣ / ١٣٥ .
والعيون في عيون الماء : حقيقة و مجاز : المشهور أن لفظ « العين » مشترك ، والظاهر أنها حقيقة في العين ، التي هي آلة الإبصار ، ومجاز في غيرها ، أما في عيون الماء ، فلأنها تشبه العين الباصرة التي يخرج منها الدمع ، أو لأن الماء الذي في العين ، كالنور الذي في العين ، غير أنها مجاز مشهور صار غالبًا ، حتى لايفتقر إلى القرينة عند الاستعمال إلا للتمييز بين العينين ، فكما لايحمل اللفظ على العين الباصرة إلا بقرينة ، كذلك لايحمل على الفوارة إلا بقرينة مثل : شربت من العين ، واغتسلت منها . بديع القرآن : ٢٨ .

ما أروع هذه الصورة التي رسمها القرآن للطوفان : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ مطر من السماء ، ولكن ليس كالمطر بل ماء غزير يحدث السيولة الجارفة ، والأرض ينبع منها الماء ، ولكن ليس من مكان واحد ، أو أمكنة متفرقة بل الأرض كلها تنفجر عيونًا ، ثم هاهو ماء الأرض وماء السماء يلتقيان ليحصل من جراء ذلك الطوفان ، ووسط هذا الطوفان تسير السفينة بمن فيها من المؤمنين ، ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ . ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ : أي بمرأى منا ، أو بحفظنا ، لأن العين آلة ذلك ، فتستعمل فيه ، والآية مجاز علاقته الآلية [١] .

ويصف القرآن موج الطوفان الذي جرت فيه السفينة ، فيقول تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [٢] . شبه كل موجة منه بجبل في تراكمها ، وارتفاعها ، وقوله : «في موج» يدل على أن الموج كان ظرفًا لهم ، وهم مظروفون فيه ، وكانت السفينة تسبح بهم في الماء كالسمكة [٣] .

ولايتم التصوير البياني لقصة نوح بغير جانبها الإنساني ، والعاطفي لتؤكد أن القرآن لايعرف الفروق بين إنسان وإنسان ، وأنه لايعرف العاطفة ، وأن عدل الله لايجامل عاطفة الذين بعثهم لينهضوا بمسئوليات الدعوة ، فها هو ابن نوح - عليه السلام - ينحاز إلى الكفر ، ودفعت نوح عاطفة الأبوة أن يناديه ، ليركب في السفينة مع المؤمنين ، لينجو من الطوفان ، ويكشف القرآن عن هذا التفاعل العاطفي الأبوي ، ويصور هذه الصورة النفسية التي ألمت بأب يرى هلاك ابنه ، ويأتي هذا البيان من طريق الجدل والحوار .

قال تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ : يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ، وَلاتَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ ، قَالَ : سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ ، قَالَ : لا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ ﴾ [٤] . وقوله : لا عاصم اليوم من أمر الله : قيل : عاصم بمعنى معصوم ، وفاعل قد يجيء بمعنى مفعول ، نحو : ماء دافق : أي مدفوق ، وأنشدوا :

بطيء القيام رخيم الكلام ... أمسى فؤادي به فاتنًا [٥]

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ٢٩ / ٣٩ ، والبرهان : ٢ / ٢٨٣ .

(٢) هود [٤٢] .

(٣) انظر : البحر المحيط : ٥ / ٢٢٤ ، وتفسير البيضاوي : ٢٩٧ ، وتفسير النسفي : ٢ / ١ .

(٤) هود [٤٢ : ٤٤] .

(٥) انظر : الدر المصون : ٦ / ٢٣٢ .

وثارت الشفقة في قلب نوح على ابنه ، فسأل ربه أن ينجّي ابنه ، ألم يعده ربه من قبل بأنه سينجيه مع أهله ؟ وابنه من أهله ، والله إذا وعد وفيّ ، وهو أعدل الحاكمين ، قال : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ، فَقَالَ : رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ : رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[١] .

وقال : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ، ثم علل القرآن لانتفاء كونه من أهله ، بقوله : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ : عَمِلَ على صيغة الفعل الماضي ، والمعنى ، أن ابنك عَمِلَ عملاً غير صالح ، يعني أشرك ، وكذب ، أو أن يكون المراد : أنه ذو عمل باطل (فاسد) فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه . أو جُعلت ذاته عملاً غير صالح ، مبالغة في ذمه ، ثم بدل الفاسد بغير صالح ، تصريحاً بالمناقضة بين وصفيهما ، وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله عنه[٢] .

وفي الآية إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك في دينك ، وإن كان حبشيًا ، وكنت قرشيًا لصيقًا ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمسّ أقاربك رحمًا ، فهو أبعد بعيد منك[٣] ، فمع الإيمان تنتفي علاقة الأبوة أو البنوة ، وتبقى علاقة واحدة هي التي تربط المؤمن بالمؤمن ، أو تفصل الكافر عن المؤمن ، وأنه لن يُرحم أحدٌ لمجرد أنه ابنٌ لرسوله ونبيه ما دام عمله غير صالح ، وبيان القرآن لهذا المعنى الكثير جاء موجزًا ينحدر بسهولة لفظ ، وعذوبة سبك ، وإيقاع موسيقي خفيف ، مما يعطي القرآن قوة في التعبير ، وتأثيرًا في النفس .

ثم يصف القرآن انتهاء الطوفان بهذه الآية التي ترتقي إلى أعظم مراقي البلاغة ، يقول تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[٤] .

ولأهل البيان في الآية نظرات متعددة ، فمنهم من عدها كناية ، ومنهم من عدها مجازًا ، ومنهم من عدها استعارة ، فابن عبد السلام يرى أن الآية كناية عن إرادة انكشاف وجه

---

(١) هود [٤٥ : ٤٧] .

(٢) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ٢ ، ٣ ، وتفسير البيضاوي : ١٩٧ ، وتفسير النسفي : ١ / ١٩١ ، ومن ذلك وصف الخنساء لناقة لها :

ترعى إذا غفلت حتى إذا ادكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار

(٣) انظر : تفسير النسفي : ١ / ١٩١ .

(٤) هود [٤٤] .

الأرض عن الماء ، وذلك أن إرادة الملك المطاع ملزوم لأمر رعيته المطيعة ، والأمر هو القول ، فأطلق اللازم ، وأراد الملزوم[١] .

وقال السكاكي إن «قيل» في الآية جاءت على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع لسببها قول القائل ، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد ، وهو"يا أرض"، "ويا سماء"، والمعنى أنه عز سلطانه لما أراد أن يبين معنى أردنا أن تَرُدَّ ما انفجر ، فقال : «ابلعي ماءك» بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهًا لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك للمالك[٢] .

وخاطب الأرض والسماء على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ، ثم استعار لغور الماء في الأرض «البلع» ، لأن أصله أن يكون للحيوان ، لكونه حركة إرادة نضوب الماء ، وغوره من الأرض ، وهو الذهاب إلى مقر خفي ، ثم استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية ، تشبيهًا له بها بالغذاء ، لتقوّي الأرض بالماء في الإنبات للزرع ، لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء ، ثم اختار لاحتباس المطر «الإقلاع» : وهو استعارة عن عدم الإرسال ، ثم أمر على سبيل الاستعارة ، وخاطب في الأمر قائلاً «اقلعي» مثل «ابلعي ماءك»[٣] .

والمتأمل في الآية يراها تصف الطوفان ، بأوجز لفظ ، وأبلغه ، فترى فيها حسن النسق[٤] حيث أتى الله بِجُمَلِهَا معطوفة على بعضها ، على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة ، فقد بدأ الله بذكر الأهم : وهو إطلاق أهل السفينة إلى البر ، ولايحصل ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض ، فلذلك أمر الله الأرض أن تبلع ماءها ثم إن الأرض لو ابتلعت الماء ، ولم تنقطع الأمطار المنهمرة ، لتأذي بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها ، لذلك أمر الله السماء أن تمسك عن إرسال المطر ، كما أن القرآن اختار لفظ «ابلعي» على «ابتلعي» لكونه مختصرًا ، وأكثر تجانسًا مع «اقلعي» ، ولنتأمل كيف أن القرآن لم يقل : يا أرض ابلعي فبلعت ، ويا سماء اقلعي فقلعت ؛ لأن ذلك يوهم إمكان المخالفة ، والتمرد على عظمة الله ، بل قال : يا أرض ... ، لأن الأمر الإلهي لايُرَدُّ ، والكون كله خاضع لكلمة «كن فيكون» .

ثم أشار الله إلى النتيجة التي ترتبت على ذلك بقوله : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ : أي : ذهب الماء ، فإن «غيض» تشير إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ، ومطر السماء ، ولولا ذلك لما

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٢٥٤ .

(٢) انظر : مفتاح العلوم : ٤١٨ .

(٣) المصدر نفسه : ٤١٨ .

(٤) وهو أن يأتي المتكلم بالكلمات متتاليات متلاحمات تلاحمًا سليمًا ، مستحسنًا لا معيبًا ولا مستهجنًا.

غاض الماء ، ثم بين الله الغاية التي توخاها من الطوفان بقوله : ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ ، وحقيقة معناها : هلك من قضى الله هلاكه ، ونجا من قُدر له النجاة ، وجملة «قضي الأمر» تُشعر بأن الإهلاك ، والإنجاء ، كان بأمر مطاع ، وقضاء من يرد قضاؤه ، والآية كناية عن استجابة دعاء نوح بإهلاك الظالمين من قومه وإنجاء المؤمنين [1] .

ويصف القرآن – كذلك – استقرار السفينة على جبل الجودي بقوله : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ : كناية عن سلامة المؤمنين من الغرق ؛ لأن سلامتهم تستلزم استواء السفينة أي : ارتفاعها [2] . وجعل صاحب «جوهر الكنز» الآية من أحد أقسام الكناية وهو التتبيع [3] . وحقيقة ذلك : جلست على هذا المكان فعدل عن اللفظ الخاص به إلى لفظ هو ردفه ، وإنما عدل عن لفظ الحقيقة ، لما في الاستواء الذي هو لفظ الإرداف ، من الإشعار بجلوس متمكن ، لازيغ فيه ولاميل ، وهذا لايحصل من لفظ الجلوس أو القعود ، وغير ذلك من ألفاظ الحقيقة [4] .

ولهذا الاستواء تسكن قلوب أهل السفينة ، ويسهل خروجهم منها دون خوف بخلاف قوله «استقرت» ، فإنها تحمل معنى الزيغ والميل ، والقرآن يريد أن ينفي الأسباب الموجبة خوف أهل السفينة من السفينة في حالتي حركتها وسكونها ، وذلك لايحصل حتى يفهم السامع أنها جلست جلوساً متمكناً ، لاميل فيه يوجب الخوف ، ولايحصل ذلك إلا بلفظ الاستواء دون غيره [5] .

وأخيراً ينهي القرآن الآية بقوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ : ، وهذا دعاء على الهالكين ، ووصفهم بالظلم ، ليعلم الذين من بعدهم أن جميع من هلك كان مستحقاً للهلاك ، وقيل بعداً : كناية عن إهلاك الظالمين من فوق ؛ لأن إهلاكهم يستلزم لقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، وعلى هذا التوجيه ، لايكون بُعداً ، مفعولاً له ، بل مصدراً لفعل محذوف ، لأنّ قُضي الأمر حينئذ إجمال ، وما بعده تفصيل [6] .

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٢٥٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) وحقيقته : العدول عن اللفظ المراد به المعنى الخارجي إلى لفظ هو ردفه ، وتابعه : أي قريب من لفظه قرب الرديف من الردف . انظر : جوهر الكنز : ١٠٥ .

(٤) انظر : الاتقان في علوم القران : ٢ / ١٢٦ .

(٥) انظر : تحرير التحبير : ٢٠٧ ، وبديع القران .

(٦) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٢٥٥ .

وجاء هذا الدعاء والهلاك والغرق بسبب تكذيب قوم نوح للرسل ، قال تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ ، وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) . وإنما كذبوه وحده ؛ لأن الرسالة وصف جامع ، فيلزم من تكذيبه تكذيبهم ، إن حمل الكلام على الاستغراق ، أو عكسه إن حمل على الحقيقة (٢) .

وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ (٣) أي : فأردنا الانتقام منهم ، وحكمته أنَّا إذا أردنا أمرًا ، نُقَدِّر فيه إرادتنا ، وإن كان خارقًا للعادة (٤) ، وفي سورة نوح قال : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾ ، والآية مجاز ، والمعنى من خطاياهم ، أي من أجل خطاياهم أغرقوا ، وتجوز بـ «من» عن التعليل ؛ لأن ابتداء غاية المعلول ، صادر عن علة ، فشبه ذلك بابتداء الغاية بالمكان (٥) .

ولهذا كله اتخذت قصة نوح مثلاً لنهاية الصراع بين الكفر والإيمان ، وإهلاك الذين أمعنوا في الكفر وفي معارضة وإذاية رسل الله ، وقطعوا الطريق عن الذين يريدون أن يؤمنوا ، فأهلك الله الكافرين ، حتى يخلوا السبيل أمام جيل جديد من المؤمنين .

٣ – إبراهيم عليه السلام :

لإبراهيم – عليه السلام – منزلة عظيمة عند معتنقي الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام ، فاسمه يُذكر دائمًا مقرونًا بالإكرام ، والدعاء والإجلال ، فهو من أُولي العزم من الرسل ، فقد جاهد في سبيل الدعوة إلى عبادة الله ووحدانيته ، وعرَّض نفسه للهلاك في سبيل ذلك ، وكانت حياته سلسلة من التضحيات لربه ، كما أن منزلة إبراهيم ، ورفعة شأنه تكمن – أيضًا – في أنه أبو الأنبياء ، فكل كتاب أُنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم ، فمن ذريته وشيعته (٦) .

ويمر سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في دعوته بمراحل حرجة ، ترافقها المحنة وتنتهي بالسلامة والإيمان ، الموقف الأول : كان ناتجًا عن رؤيا رآها في المنام ، أن يذبح ابنه ولم يتردد إبراهيم في تصديق الرؤيا ، وانتصرت عاطفة الدين على عاطفة الأبوة ، ويستشير إبراهيم الابن الضحية ، فلم يكن أقل من أبيه إيمانًا واستسلامًا لأمر الله ، وكانت النهاية منحة

---

(١) الفرقان [٣٧] .
(٢) انظر : التبيان في علم المعاني والبديع والبيان : ٢٧١ .
(٣) الأعراف [١٣٦] . (٤) البرهان : ٢ / ٢٩٥ .
(٥) انظر : تفسير الرازي : ٣٠ / ١٤٥ ، والفوائد المشوق : ٧٠ .
(٦) انظر : البداية والنهاية لابن كثير : ١ / ١٦٧ .

لا محنة ، ويتضح ذلك في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ : يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

فإبراهيم الحريص على الذرية ، والذي رُزق بعد لأي بولد ، وهو في سن الشيخوخة ، هذا الولد الذي هو بهجة قلبه وأمل حياته ، يأمره الله أن يُضَحّي به ليمتحن إيمانه .

وقوله : فبشرناه بغلام حليم : مجاز لأنه وصفه في حال البشارة بما يئول إليه من العلم والحلم[2] . ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ : فالقول في الآية حكاية حال ماضية معناه : إني رأيت في المنام أني أذبحك ،وقَصَدَت العرب بالإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل؛ لأن الإخبار بالفعل المضارع ، إذ أخبر به عن الماضي ، فإن الغرض بذلك تبيين هيئة الفعل ، واستحضار صورته ، ليكون السامع كأنه يعاينها ويشاهدها[3] . وواضح من بقية الآيات أن الله جازى إبراهيم خير الجزاء بسبب تصديقه الرؤيا وسرعة التنفيذ ، وقد كان إبراهيم حريصاً على ذلك ، ودليلنا قوله تعالى عن إبراهيم ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ، وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾[4] .

فقوله : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ : مجاز مرسل علاقته الآلية[5] ، ومعنى الآية : أي اجعل لي ذكراً حسناً ، وثناءً جميلاً ، أطلق اللسان ، وعبر عنه بالذكر ، لأن اللسان آلة الذكر[6] ، ولما كان في الآخرين نوع خفاء ، صرح به في الكتاب[7] .

ثم يأتي الموقف الثاني من مواقف الامتحان والمحنة ، وهو دعوة إبراهيم قومه أن يتركوا عبادة الأوثان ، وقام بينه وبينهم جدال طويل ، انتهى فيه الأمر إلى أن كاد لآلهتهم ، وعبث بها إلا كبيراً لهم ، وهي طريقة عملية فذة ، ودرس في الشجاعة نتيجته واضحة للعيان : إما الموت المحقق ، وإما اقناع قومه بترك الأصنام ، ولكن إبراهيم أراد بذلك أن يظهر لقومه أن معبوداتهم لاتستطيع الدفاع عن نفسها ، فكيف تدافع عنهم ، أو تصيبهم بخير أو شر .

---

(١) الصافات [١٠١ : ١١٠] .
(٢) انظر : البرهان : ٢ / ٢٧٩ .
(٣) انظر : الفوائد المشوق : ٦٢ .
(٤) الشعراء [٨٣ ، ٨٤] .
(٥) انظر : التلخيص : ٨٤ ، والإيضاح : ٢ / ٤٠٢ ، وشرح التلخيص : ٥٥٢ ، والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان : ٢٢٤ .
(٦) انظر : البرهان : ٢ / ٢٨٣ .
(٧) انظر : المطول : ٣٥٦ .

ولقد فجر هذا العمل نقمة قومه ، فحاكموه ، وأصدروا حكمهم عليه بالموت حرقًا ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (١) .

ويسجل القرآن المحاكمة العلنية التي حوكم على ساحتها إبراهيم - تسجيلاً بيانيًا واضحًا ، فيه من البيان روعته ، ومن المنطق حجته ، ومن النهاية : النصر لإبراهيم والخيبة للكافرين ، قال تعالى : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ، فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ (٢) .

والاستفهام في الآية في نظر البيانيين خارج عن الحقيقة ، فهو مجاز بسبب الهمزة ، التي تجوز بها عن التقرير في الآية ، الذي يعني التحقيق والتثبيت ، أو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه ، وإلجائه إليه ، واشترطوا لذلك، أن يلي الهمزة ما حُمل المخاطب على الإقرار به (٣).

وبالرغم من وضوح التقرير في الآية ، فإن صاحب التلخيص يرى أن الاستفهام فيها على أصله ، إذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأن إبراهيم - عليه السلام - هو الذي كسّر الأصنام ، حتى يمتنع حمله على حقيقة الاستفهام ، وقد خطّأه العلامة التفتازاني بردود مفحمة من القرآن الكريم (٤) ، ويطمئنا إلى ذلك ما ذهب إليه عبد القاهر في دلائله ، قال: «قوله ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ؟ الغرض أن يقرروه أن كسر الأصنام منه قد كان ، ولذلك أشاروا له إلى الفعل ، وقال هو عليه السلام - بل فعله كبيرهم هذا . ولو كان التقرير بالفعل ، لكان الجواب : فعلت أو لم أفعل ، فالهمزة تقرير بفعل قد كان ، وإنكار له لم كان ؟ وتوبيخ لفاعله» (٥) .

أما قوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ : فغرض إبراهيم من ذلك أنه لايجوز أن يُعبد مع الله تعالى من هو دونه ، فإن من هو دونه مخلوق من مخلوقاته فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثالاً لما أراده (٦) . وقد يكون قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ : كناية عن غير مذكور ، أي فعله من فعله ، وكبيرهم هذا : ابتداء الكلام (٧) .

---

(١) الأنبياء [٦٨ : ٧٠] . (٢) الأنبياء [٦٢ ، ٦٣] .
(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٢١ ، والمطول على التلخيص : ٢٣٦ .
(٤) انظر : المطول : ٢٣٥ ، ورسالة الباحث في الماجستير : ٢٨٠ .
(٥) انظر : دلائل الإعجاز : ٨٤ .
(٦) انظر : المثل السائر : ٢ / ٧٢ .
(٧) انظر : تفسير الرازي : ٢٢ / ١٨٥ .

ويمكن أن يقال : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة ، وكان غيظ كبيرها أشد ، لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل إليه ، لأن الفعل كما يسند إلى مباشره ، يسند إلى الحامل عليه ، ويجوز أن يكون حكاية لما يقوده تجويزه مذهبهم ، كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم ، فإن من حق من يُعبد ، ويُدْعَي إلهًا أن يقدر على هذا [1] .

ويؤكد هذا التوجيه ما ذكره العلوي بقوله : « والقول فيه – الآية – أن قصد إبراهيم لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقديره لنفسه وإثباته لها على مسلك خفي ، وأسلوب تعريض [2] ، يبلغ فيه عرضه من إلزام الحجة عليهم ، والاستهزاء بهم ، والتسفيه لحلومهم ، كأنه قال – والكلام ما يزال للعلوي – يا ضعفاء العقول ، ويا جهال البرية، كيف تعبدون ما لايجيب إن سُئل ، ولاينطق إن كُلم ، وتجعلونه شريكًا لمن له الخلق والأمر ، فوضع قوله : فاسألوهم إن كانوا ينطقون موضع هذا ، وقال : بل فعله كبيرهم هذا ، إلزامًا للحجة [3] .

وقد يقال إن كبير الأصنام غضب أن تُعبد معه هذه الأصنام الصغار ، فكسرها على جهة التخييل والتمثيل ، تلويحًا لعابدها بأنها لاتصلح أن تكون آلهة لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل ، والإله لايكون عاجزًا أبدًا [4] .

واضح من هذه المحاورة البيانية التي مرت في آيتين اثنتين ، أن القوم قد عدلوا عن المناظرة والمجادلة ، لأنهم رأوا أنهم هم المغلوبون ، وعمدوا إلى القوة يسترون بها ضعفهم وفضيحتهم ، فأصدروا حكمهم عليه بالموت حرقًا ، ولكن الله نجاه بقدرته وقال للنار : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، فكانت بردًا وسلامًا بأمر منه .

أما المعاني الخفية التي يمكن أن نخرج بها من هذا العرض البياني الرفيع هي : تعليم لدعاة الإصلاح يقوّي نفوسهم ، ويَحيلها إلى مستوى عال من الجرأة والقوة في مواجهة الباطل ، وأن يطمئنوا إلى نصر الله ، كما فعل إبراهيم ، الذي لم يجزع ، ولم يُصَب بأي انهيار لما صُدر ضده من حكم غاشم ، بل وقف أمام الأشهاد مطمئنًا إلى مصيره تغمره الثقة بالله والعزة بالإيمان .

---

(١) انظر : الفوائد المشوق : ١٩٠ ، وتفسير النسفي : ٣ / ٨٣ .

(٢) والتعريض : هو الدلالة على المعنى من طريق المفهوم ، وسمي تعريضًا ، لأن المعنى باعتباره يفهم من عُرض اللفظ ، أي من جانبه ، ويسمى التلويح لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده .

(٣) انظر : الطراز : ١ / ٢٧٨ ، والمثل السائر : ٣ / ٧٢ .

(٤) انظر : البرهان : ٢ / ٣١١ ، وتفسير النسفي : ٣ / ٨٣ ، والطراز : ١ / ٣٧٩ .

ثم يؤمر إبراهيم ببناء الكعبة ، والثبات على دينه وإيمانه يقول : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَاتُشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[1] ، والآية من مجاز التضمين : ضمن « لاتشرك » معنى «لاتسوي» والعدل – التسويه – أي ، لاتسوي بالله شيئًا في العبادة والمحبة ، فإنهم عبدوا الأصنام كعبادة الله ، وأحبوها كحب الله ، ولذلك قال الذين في النار : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وما سووهم به إلا في العبادة والمحبة دون أوصاف الكمال ، ونعوت الجلال[2] .

نعم إن إبراهيم نموذج رائع من نماذج الإيمان ، والمنار الذي استرشد به الأنبياء والمؤمنون في كل زمان ، ولعل موطن العظمة فيه ، والذي أبرزه العرض البياني للآيات . هو قلبه الكبير الذي وَسِعَ الناس جميعًا ، وقدرته على الحوار المقنع بالحجة والبرهان وأعظم ما فيه هو تضحيته بالنفس والولد في سبيل الدعوة إلى توحيد الله .

٤ – يوسف عليه السلام :

كان يعقوب – عليه السلام – يؤثر يوسف بمحبته ، ويفضله على إخوته ، مما جعلهم يضمرون ليوسف الشر ، وائتمروا فيما بينهم للخلاص منه ، واستقر رأيهم في النهاية إلى إلقائه بعيدًا في أغوار أحد الآبار ، فطلبوا من أبيهم أن يأذن لهم باصطحاب يوسف معهم وخرجوا ونفذوا فيه خطتهم ، ثم رجعوا في المساء يظهرون حزنهم لأبيهم ، وأبرزوا له قميصه ملوثًا بالدماء ، ووصف القرآن هذا الجرم بقوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[3] . أي مكذوب فيه ، إلا أنه وُصف بالمصدر على تقدير : دم ذي كذب ، ولكنه جعل نفسه كذبًا للمبالغة[4] ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه ، والزور بذاته[5] . ومجيء المصدر بمعنى المفعول مجاز عند البلاغيين ؛ لأنه لو جاء الكلام في الآية على ظاهره لأشكل ؛ لأن الكذب من صفات الأقوال لا الأجسام[6] .

وأخرجت إحدى القوافل يوسف من البئر ، وباعته في مصر بدراهم قليلة ، وكان الذي اشتراه عزيز مصر . ولما بلغ يوسف مرحلة الشباب تعرض لمحنة في بيت العزيز، فامرأته تغريه وتغويه بجمالها ، ونتجاوز هذه المحنة التي خرج منها يوسف بسلام[7] لننتقل معه في سجنه .

---

(١) الحج [٢٦] .
(٢) انظر : الفوائد المشوق : ٥٣ .
(٣) يوسف [١٨] .
(٤) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ١٠٢ .
(٥) انظر : تفسير النسفي : ٢ / ٢١٤ .
(٦) انظر : البرهان : ٢ / ٢٨٨ .
(٧) ذلك بسبب تناولنا لها باستفاضة في مبحث : المرأة في البيان القرآني . انظر : ٢٤٨ : ٢٥١ من البحث .

وقد أعطى الله يوسف حكمًا صائبًا ، وعلمًا نافعًا ، مما جعل نزلاء السجن يحترمونه ، ويطلبون منه تفسير رؤياهم ، واستغل يوسف هذا الاحترام في الدعوة إلى توحيد الله ، قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ، قَالَ أَحَدُهُمَا : إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الآخَرُ : إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ، تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ : لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

أجمع البيانيون على أن الخمر المقصود بها في قوله : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ ، هو العنب ، أطلق عليه ذلك مجازًا ، من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه (٢) . وقال بعضهم : لامجاز في الآية ، فإن الخمر العنب بعينه (٣) ، وهذا الكلام غير صحيح ؛ لأن الخمر لا مشابهة بينها وبين العنب ، لا في الشكل ولا في الهيئة ، ولا في الأثر ، وانفرد الرازي بهذا القول : « أعصر خمرًا » ، أي أعصر عنب الخمر ، أي العنب الذي يكون عصيره خمرًا ، فحذف المضاف (٤) ، ولم يتابعه في هذا الرأي أحد من البيانيين ، وبصرف النظر عن متابعة البيانيين للرازي ، فإن الآية على هذا التوجيه تعتبر مجازًا ، لأن الحذف مجاز مشهور .

وقيل : اكتفي بالمسبب الذي هو الخمر عن السبب الذي هو العنب ، وقيل لا مجاز في الاسم ، بل في الفعل ، وهو «أعصر» ، فإنه أطلق ، وأريد به استخرج (٥) .

أما قوله : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ﴾ ، فقد جعله الزركشي مجازًا - أيضًا - من باب تسمية الشيء باعتبار ما يؤول إليه « لأن الذي تأكل الطير منه إنما هو البر لا الخبز (٦) ، ولم يذكر بعض البيانيين هذه الآية في التمثيل بها ضمن أنواع المجاز ، وكان الأجدر بعلمائنا القدامى أن يتناولوا كل آية وردت فيها صورة من البيان ، وألا يركزوا على آيات بعينها ، وهذا الجهد يجب أن يقوم به الباحثون المحدثون استكمالاً لجهود القدماء .

---

(١) يوسف [٣٦ ، ٣٧] .

(٢) انظر : التلخيص : ٢٩٨ ، والإيضاح : ٢ / ٤٠٣ ، وشرح التلخيص : ٥٢٥ ، والفوائد المشوق : ٥٠ ، وجوهر الكنز : ٥٣ ، والإشارات والتنبيهات : ٢٣٧ ، والدر المصون : ٦ / ٤٩٦ .

(٣) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ١٣٤ ، والبرهان : ٢ / ٢٧٩ .

(٤) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ١٣٤ .

(٥) انظر : البرهان : ٢ / ٢٩٧ . نقلاً عن ابن جني في الخصائص ، والسجستاني في غريب القرآن .

(٦) المصدر نفسه : ٢ / ٢٧٨ .

ثم استمر يوسف – عليه السلام – في مخاطبة صاحبيه قائلاً : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

وقوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ : معناه : ما تعبدون من دونه إلا مسميات ، وهو من مجاز إطلاق الاسم على المسمى ، وهو في القرآن كثير[٢] .

وبعد تلك السنين التي قضاها يوسف في السجن ، شاءت عناية الله أن يخرج من سجنه بعد أن فسَّر رؤيا الملك ، فاستخلصه لنفسه ، وولاه أمور مصر الاقتصادية ، وذلك بعد أن علم أن تأويلها ينسجم مع رؤياه ، مما يدل على رجاحة عقل مفسرها ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا : أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾[٣] .

يقول السمين : ونسب الأكل إليهن مجازاً ، كقوله : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ، لما كان الأكل والإبصار فيهما ، جُعلا كأنهما واقعان فيهما[٤] ، ثم يجيء تفسير يوسف للرؤيا على النحو التالي : ﴿ قَالَ : تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾[٥] .

تزعون سبع سنين : خبر في معنى الأمر ، وهو من المجاز ، كقوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ ﴾ هو من الإسناد المجازي ، جعل أكلهن مسنداً إليهن[٦].

ثم جاء أخوة يوسف إلى مصر ، فأكرمهم يوسف ، وطلب منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، ورجعوا إلى أبيهم ، وعاهدوه على أن يعيدوه إليه ، فوافق وأوصاهم عند دخول مصر بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ، حتى لايلفتوا الأنظار عند دخولهم ، ولاتترقبهم الأعين ، وقد يكون في ذلك ما يسوؤهم ، قال تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

---

(١) يوسف [٣٩ ، ٤٠] .
(٢) انظر : الفوائد المشوق : ٣١ .
(٣) يوسف [٤٣ ، ٤٤] .
(٤) انظر : الدر المصون : ٦ / ٥١٠ .
(٥) يوسف [٤٧ ، ٤٨] .
(٦) انظر : تفسير النسفي : ٢ / ٢٢٥ .

وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ، وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

والآية مجاز من إطلاق اسم الحاجة على المحتاج إليه ، معناها : ما كان دخولهم يرفع عنهم من قضاء الله وقدره شيئًا ، ولكن طلب حاجة في نفس يعقوب قضاها ، ويحتمل : ولكن حاجة في نفس يعقوب قضى متعلقها ، لأن الحاجة الحقيقية التي هي الافتقاد لاتقضي ، وإنما يقضي متعلقها ، الذي هو المحتاج إليه (٢) .

ثم يحتجز يوسف أخاه « بنيامين » الذي طلبه من إخوته - بعد أن كاد لهم بسرقة صواع الملك ، ولم يكن بد من محاولة لتخليص أخاهم ، وافتدائه تنفيذًا للعهد الذي قطعوه على أنفسهم أمام أبيهم ، فحاولوا إقناع يوسف أن يأخذ واحدًا منهم يحل محله ، ولكن دون جدوى ، فلما يئسوا من إقناعه ، اختلوا بانفسهم للتشاور في أمر أخيهم، ووصف القرآن ذلك بقوله : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (٣): أي فلما يئسوا ، وزيادة السين والتاء للمبالغة ، «نجيًا» : ذوي نجوى ، وهي فعيل بمعنى الجمع ، كقوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ ، وشرط بعض البيانيين أن يكون المخبر عنه جمعًا ، وأنه لايجيء ذلك في المثنى ، ويرده قوله تعالى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ .

والمتامل للآية السابقة : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ يرى أن اليأس قد استحكم في انفسهم ، مما جعلهم ينفردون عن الناس ويعتزلون ، يناجي بعضهم بعضًا فهذه الآية القصيرة في منتهى الإعجاز والبيان ، لأنها بكلمات قليلة موجزة ، صورت حالة الأخوة ، وقد تملكهم اليأس ، واعتزالهم الناس ، وتقليبهم الرأي ظهرًا لبطن ، وتدبير الموقف الذي يجابهون به والدهم .

وعادوا إلى أبيهم ، وأخبروه الخبر ، وقالوا له : إن كنت في شك من أمرنا فأرسل رسلك إلى مصر يأتوك بكنه القصة (٤) ، واسأل رفاقنا في القافلة ، وبالغوا في إزالة التهمة عن أنفسهم ، لاتهامهم بسبب واقعة يوسف فقالوا : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ قال بل سولت لكم انفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ (٦)

(١) يوسف [٦٧ : ٦٨] .
(٢) انظر : الفوائد المشوق : ٣٥ .
(٣) يوسف [٨٠] .
(٤) انظر : البرهان : ٤/ ٢٨٨ .
(٥) انظر : تفسير النسفي : ٢ / ١٢٤ .
(٦) يوسف [٨٢ : ٨٤] .

واسأل القرية : الأكثرون من علماء البيان اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر ، وقال قوم : بل المراد منه قرية على باب مصر [١] ، وذكروا في الآية ثلاثة أوجه : أحدها : وهو المشهور أنه على حذف مضاف ، والمراد : واسأل أهل القرية ، وأهل العير [٢] . وقال الرازي : إن حذف المضاف للإيجاز والاختصار ، وهذا النوع من المجاز المشهور [٣] . فالمجاز والمضاف – إذن – قسمان لا قسيمان ، فهما متباينان ، كما ذكر السمين في دره [٤] .

ويرى السكاكي أن المجاز بالحذف يعد ملحقًا بالمجاز مشبهاً به لما بينهما من الشبه ، وهو اشتراكهما في التعدي عن الأصل إلى غير الأصل ، لا أن يعد مجازًا ، فالحكم الأصلي في القرية ، في الكلام هو الجر ، والنصب مجاز ، فالكلمة كما أنها توصف بالمجاز لنقلها عن معناها . فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليست هي بحقيقته فيه [٥] .

الوجه الثاني : أن الآية مجاز ، ولكنه من باب إطلاق اسم المحل على الحال للمجاورة كالراوية [٦].

الوجه الثالث : أن الكلام في الآية حقيقة ، لا مجاز فيه ، وذلك أنه يجوز أن يسأل القرية نفسها والإبل فتجيبه ؛ لأنه نبي ، يجوز أن ينطق له الجماد والبهائم [٧] . ومنعت الظاهرية والروافض وجود المجاز في الآية ؛ لأن الله تعالى – قادر على إنطاقها والزمان زمان خرق العوائد ، فإنه زمان النبوة ، وزمان النبوة زمان خرق العادة [٨] .

ولكن يعقوب لم يسأل لا القرية ولا البهائم سؤالاً حقيقيًا أو مجازيًا ، ولكنه أعرض عنهم وقال : ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ، وذكر الرازي أن قوله : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ : كناية عن غلبة البكاء [٩] . وهاجت أحزان يعقوب – عليه السلام – وتضاعف آلامه ، وتوالت أحزانه ، ثم يطلب من أبنائه البحث عن يوسف ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَلَاتَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَايَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [١٠] وصدع الأبناء لأمر الأب الحزين ،

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ١٩٠ ، وتفسير النسفي : ٢ / ٢٣٤ .
(٢) انظر : التلخيص: ٣٣٧ ، ومفتاح العلوم : ٣٩٢ ، البرهان : ٢ / ٢٧٤ ، والطراز : ١ / ٧٣ .
(٣) انظر : تفسير الرازي: ١٨ / ١٩٠ . (٤) انظر الدر المصون : ٦ / ٥٤٤ .
(٥) مفتاح العلوم : ٢٠٨ ، وتفسير الرازي : ١٨ / ١٧٥ .
(٦) انظر : الدر المصون : ٦ / ٥٤٤ .
(٧) انظر : المصدر نفسه ، ومختصر تفسير الماوردي : ٢ / ٤٨٧ .
(٨) انظر : شرح التلخيص : ٥٢٥ . (٩) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ١٩٥ .
(١٠) يوسف [٨٧] .

وتلقى خبر سلامة يوسف وأخيه ، وحدث اللقاء المثير بين الأخوة وأخيهم ، واعترفوا بخطئهم :

ويصف القرآن هذا الاعتراف بقوله : ﴿ قَالُوا : تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ . قَالَ : لاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ . يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١)
وقولهم : لقد آثرك الله علينا : كناية ، من قولهم : استأثر الله بفلان كناية عن اصطفائه . قال الشاعر :

والله أسماك بسُمًا مباركًا ... آثرك اللـه بـه إيثـاركـا (٢)

وبرغم اعتراف الأخوة بخطئهم لم يؤنبهم يوسف ولم يعاتبهم، إنه العفو عند المقدرة ، قال : ﴿ لاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ : أي اللهم اغفر لهم : تجوَّز بلفظ الخبر عن الأمر وهو مجاز ، ومنه قوله ﷺ : « يرحم الله أخي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد » ، ومن ذلك تشميت العاطس : يرحمك الله ، وفي إجابته : يهديكم الله ويصلح بالكم » المعنى : اللهم ارحمه اللهم اغفر له (٣) .

وقصة يوسف كما هي معروضة في القرآن ، مثيرة للغاية ، والقرآن لم يعرضها لمجرد التسلية ، وإنما لأخذ الدروس والعبر ، التي جاءت بين التصوير البياني ، وأهم ما يمكن أن نخرج به من دروس في القصة هو : التأكيد على وحدانية الله ، وخطر الخلوة بالأجنبية ، وصمود يوسف أمام الإغراء يعطينا درسًا في العفة وفي مغالبة الشهوة والانتصار عليها مما يعتبر أعظم مثل يمكن أن يقتدي به الشباب الذين يبتغون السمو الإنساني .

وينضاف إلى ذلك من دروس : أهمية الصبر وعاقبته ، وفائدة الإحسان لمن أساء ، والعفو عند المقدرة ، وقيمة السمعة الطيبة في حياة الأفراد ، وأهمية العدل بين الأبناء ، هذا وفي القصة دروس أخر يمكن الخروج بها من غير الآيات البيانية التي جاءت في كتب البيانيين .

٥ - شعيب عليه السلام :

أرسلَ شعيب عليه السلام لأهل مدين ، وكانت حرفتهم التجارة وكانوا لايؤمنون بالله ، ويعبدون سواه ، وكانوا ينقصون الكيل والميزان إذا باعوا ، فبعث الله فيهم رجلاً منهم هو شعيب ، وأيده بالمعجزات ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، وَلاتَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ (٤) .

---

(١) يوسف [٩٢] . (٢) انظر : الدر المصون : ٧٦ / ٥٥٤ .
(٣) انظر : الفوائد المشوق : ٦٣ ، نقلاً عن الكشاف : ٢ / ٣٤٢ .
(٤) هود [٨٤] .

يقول السمين : قال الزمخشري : «إن وصف اليوم بالإحاطة أبلغ من وصف العذاب بها ، قال : لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه ، فقد اجتمع للمعذَّب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه [١] . وتوصيف اليوم بالإحاطة ، وهي صفة الزمان لاشتماله عليه ، وقوله : « محيط » أي مهلك ، من قوله : « وأحيط بثمره» [٢] .

واستهزأ القوم بكلام شعيب ، وتهكموا به قائلين : هل صلاتك هي التي جعلتك مرشداً ، تدعونا إلى ترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام ، وتحثنا على الوفاء بالكيل ؟ كيف يصدر منك ذلك ، وأنت عندنا المعروف بالحلم والرشد ؟

﴿ قَالُوا : يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْـرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [٣] . يقول النسفي : « كان شعيب كثير الصلوات ، وكان قومه يقولون له ما تستفيد بهذا ، فكان يقول : إنها تأمر بالمحاسن ، وتنهى عن القبائح ، فقالوا على وجه الاستهزاء : « أصلواتك تأمرك أن تأمرنا بترك عبادة ما كان يعبد آباؤنا ، أو نترك التبسط في أموالنا ما نشاء من إيفاء ونقص ، وجاز أن تكون الصلوات آمرة مجازاً ، كما سماها الله تعالى ناهية مجازاً » [٤] .

وأرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل ، لا وجه لصحته ، وأن مثله لايدعوك إليه داعي عقل ، ولايأمرك به آمر فطنة ، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان في ليلك ونهارك [٥] .

وذكر الرازي أن المراد بقوله : أصلاتك : المراد منه الدين والإيمان ، لأن الصلاة أظهر شعار الدين ، فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين ، والمراد : دينك يأمرك بذلك [٦] .

أما قولهم : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ : فمعناه : إنك لأنت السفيه الجاهل ، إلا أنهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء ، والسخرية به ، كما يقال : للبخيل الخسيس : لو رآك حاتم لسجد لك [٧] .

---

(١) انظر : الدر المصون : ٦ / ٣٧١ .
(٢) انظر : تفسير البيضاوي : ٣٠٣ ، وتفسير النسفي : ٢ / ٢٠٠ .
(٣) هود [٨٧] .
(٤) انظر : تفسير النسفي : ٢ / ٢٠٠ .
(٥) انظر : الكشاف : ٢ / ٢٨٦ .
(٦) انظر : تفسير الرازي : ١٨ / ٤٣ .
(٧) المصدر نفسه : ١٨ / ٤٤ .

فالحليم الرشيد بدل السفيه الغوي ، وهي استعارة تهكمية [١] : استعار الحلم والرشد للسفه والغواية ، ثم سرى إلى الحليم الرشيد ، أو قصدوا وصفه بضد ذلك ، وعللوا إنكار ما سمعوا منه ، واستبعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك [٢] .

هذا شأن شعيب مع عامة قومه ، أما أكابرهم فقد هددوه بإخراجه ومن معه وطردهم من قريتهم ، إلا أن يعودوا إلى دين الآباء ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ : أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾[٣] .

قال البيضاوي : معنى ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ : أي ليكونن أحد أمرين : إما إخراجكم من القرية ، أو عودكم إلى ملة الكفر ، وشعيب عليه السلام - لم يكن في ملتهم قط ؛ لأن الأنبياء لايجوز عليهم الكفر مطلقًا ، لكن غلّبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم ، وعلى ذلك أجري الجواب في قوله : ﴿ قَالَ : أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أي كيف نعود فيها ، ونحن كارهون لها ، أو أتعيدوننا في حال كراهتنا »[٤] .

وعلى نفس الدرب سار ابن جزي في تفسيره ، أما ابن المنير فيرد استعمال الفعل «عاد» إلى التعبير المجازي بالمسبب عن السبب ، يقول : « .... إنه كثيرًا ما يراد - أي الفعل «عاد» - بمعنى صار ، وحينئذ يجوز أن يكون أخًا «لكان» ، ولايستدعي الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة إلى حال مؤقتة مثل «صار» ، وكأنهم قالوا : - والله أعلم - لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتصيرن كفارًا مثلنا ... وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب ، وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار ؛ لإقامة حجة الله على عباده »[٥] .

ثم جاء الأمر الإلهي بهلاك أهل مدين جزاء عصيانهم ، فنجى الله شعيبًا ، والذين آمنوا معه ، رحمة منه وأهلك الكافرين . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[٦] .

---

(١) وحاصل الاستعارة التهكمية : أن تستعمل الألفاظ الدالة على المدح في نقائضها من الذم والإهانة تهكمًا بالمخاطب ، وإنزالاً لقدره ، وحطًا منه . انظر : الطراز : ١ / ٢٤٦ .

(٢) انظر : مفتاح العلوم : ٢٨٢ ، ومختصر تفسير الماوردي : ٢ / ٤٦٢ ، والتبيان للطيبي : ٢٣٧ ، وتفسير البيضاوي : ٣٠٣ .

(٣) هود [٨٨] . (٤) انظر : تفسير البيضاوي : ٢١٤ .

(٥) انظر : الانتصاف من الكشاف حاشية الكشاف : ٢ / ١٣٠ .

(٦) هود [٩٤ : ٩٥] .

وفي قصة شعيب – عليه السلام – بيان لأثر الصلاة في سلوك الإنسان ، وتغييره إلى الأفضل ، وتحثنا القصة كذلك – على الحرص على الأمانة والاستقامة في البيع والشراء ، وهي كذلك – دعوة صريحة إلى ناحية عملية تتصل بالإصلاح الاجتماعي ومنع الفساد في الأرض والقيام بحق الأمانة في التعامل .

٦ – موسى عليه السلام :

تقص سورة القصص قصة موسى منذ ميلاده ، ، وإلقائه في اليم إلى أن التقطه آل فرعون ، إلى أن أُوحِيَ إليه ، وما نريد أن نتتبع كل الآيات فقد فصل القرآن قصة موسى أو أشار إليها أو ضربها مثلاً في نحو اثنين وثلاثين ومائةِ موضع (١) ، والجانب التاريخي في هذه القصة لايهمنا ، بمقدار ما يهمنا الجانب البياني الذي تصوره .

وتحكي السورة قصة خروجه من مصر إلى أرض مدين ، واستئجار شعيب له ، وزواج موسى من إحدى بناته ، وبعد أن أمضى موسى السنين المتفق عليها في خدمة شعيب ، توجه بأهله نحو مصر ، وكلّمه الله ، قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا ، فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لايُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ (٢) .

قال النسفي : الخطاب في قوله تعالى : ﴿ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ – لموسى ، والمراد أمته (٣) ، ويؤكد ذلك ما ذكره الرازي بقوله : « هذا النهي ، وإن كان للكافر بحسب الظاهر فهو في الحقيقة نهيٌ لسيدنا موسى عليه السلام عن الإنصداد أو إظهار اللين للكافرين أو الميل إليهم ، ومقاومتهم ، وأن يكون في الدين شديداً صلبًا (٤) .

ومراد الآية : لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة ، والتصديق بها من لايؤمن بها من الكفرة (٥) ، لأن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب ، فذكر السبب ليدل على المسبب كقولهم : لا أرينك ههنا ، المراد نهيه عن مشاهدته ، والكون بحضرته ، وذلك سبب رؤيته إياه ، فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب ، كأنه قيل : فكن شديد الشكيمة صليب المعجم (٦) .

---

(١) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن . (٢) طه [٩ : ١٦] .

(٣) انظر : تفسير النسفي : ٢ / ٥٠ . (٤) انظر : تفسير الرازي : ٢٢ / ٢٣ .

(٥) انظر : الفوائد المشوق : ٦٥ ، وروائع الإعجاز في القصص القرآني لمحمود السيد حسن ٣٠ . ط . المكتب الجامعي ، الاسكندرية سنة ١٩٨٢م .

(٦) انظر : الكشاف : ٢ / ٥٣٣ .

ثم أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون ، ولما كانت مواجهة فرعون تستدعي الشجاعة ، ورباطة الجأش ، فقد سأل موسى ربه أن يشرح صدره ، وأن يعينه على البيان والإفصاح ، وأجاب الله سؤله ، فبعث معه أخاه هارون ، وأمرهما أن يأتيا فرعون قال : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[١] ، وهو من إطلاق اسم الخاص على العام[٢] . وأوصاهما الله أن يلينا له ، لعلهما يصلا إلى قلبه ، وتلين طبيعته الطغيانية، قال تعالى ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[٣] ، الآية مجاز بسبب دخول الحرف «لعل» وهي مجاز تشبيه أو تسبيب ، وحقيقته الترجي والتوقع ، فالله سبحانه وتعالى وتنزه أن يوصف بحقيقتها ، بل يصح حملها على مجاز التشبيه أو التسبيب ، اي باشر الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ، وهو يجتهد مع العلم بأنه لن يؤمن إلزامًا للحجة[٤] .

ويحقق هذا القول أن الكلام المنفّر لايُتوقع منه إجابة ولا إنابة ، والكلام اللين المرغب يتوقع كل من سمعه الإجابة والإنابة ، فلذلك قيل لموسى وهارون – عليهما السلام – ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، لما كان القول اللين سببًا للتذكر والخشية ، أمرهما به لتقوم عليه الحجة ، فهذا الرجاء المتعلق بكلامه[٥] .

ولبى موسى وهارون أمر ربهما ، وذهبا إلي فرعون ، ويلغاه الرسالة كما أمر ووصى – سبحانه – ، وكان فيما بلغه موسى لفرعون أن لايقول على الله إلا الحق ، وقد أيده الله بمعجزات تشهد بنبوته : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[٦] . ضمن «حقيق» معنى «حريص» ليفيد أنه محقوق على قول الحق ، وحريص عليه ، وكونه حقيقًا به فعداه تعدية « حريص »[٧] ، والتضمين مجاز ، لأن اللفظ لم يوضع للحقيقة والمجاز معًا ، فالجمع بينهما مجاز خاص يسمونه بالتضمين تفرقة بينه وبين المجاز المطلق[٨] ، والظاهر من كلام البيانيين – أن التجوز بالتضمين من شأن العرب لغرض الاختصار والإيجاز[٩] .

---

(١) الشعراء[١٦] .
(٢) انظر : الإشارات والتنبيهات : ٢٣٤ .
(٣) طه[٤٢، ٤٣] .
(٤) انظر : تفسير البيضاوي : ١٧/٢٣٧ .
(٥) انظر : الفوائد المشوق : ٧٢ ، ٧٣ ، والإشارة إلى الإيجاز : ٢٦ .
(٦) الأعراف[١٠٤، ١٠٥] .
(٧) انظر الفوائد المشوق : ٥٣ ، وتفسير النسفي : ٢ / ٦٨ ، والكشاف : ٢ / ٢٠١ .
(٨) انظر البرهان : ٣ / ٣٣٩ ، والإتقان للسيوطي : ٢ / ١٢٣ .
(٩) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٢٩ ، ورسالة الباحث : ص ٣١ .

ثم قامت محاورة بين موسى وفرعون في ربوبية الله ، سجلتها سورة الشعراء [١] وتطور الجدل بينهما حتى طلب فرعون من موسى دليلاً يؤكد صدقه ، فألقى حينئذ موسى عصاه ، فإذا هي ثعبان يتحرك ، وأخرج يده من جيبه ، فإذا هي ناصعة البياض تتلألأ للناظرين ، وجاء أمر الإلقاء نتيجة خطاب إليه ، قال تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى لاتَخَفْ إِنِّي لايَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [٢] .

قال الخازن في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ : شبهها سبحانه بالجان من حيث الاهتزاز والحركة ، والهيئة والسرعة ، لا من حيث المقدار ، والمعنى أنها في سرعة حركتها ، كالحية السريعة الحركة [٣] ، في اضطرابها وحركتها مع عظم جثتها [٤] ، وهذه الصورة البيانية التي وجهها البيانيون توجيهًا رائعًا تتفق مع خيال السامع لصورة الجان الذي يتحرك بسرعة شديدة وخاطفة ، لايكاد يهدأ ، ولايستقر .

أما قوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ المقصود منه : جانبك ، بدليل قوله في موضع آخر : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ ، وجناحا الإنسان : جانباه ، والأصل المستعار منه : جناحا الطائر ؛ لأنه يجنحهما عند الطيران ، والمراد إلى جنبك تحت العضد [٥] .

من غير سوء : السوء : الرداءة ، والقبح في كل شيء ، كنى به عن البرص ، كما كنى عن العورة بالسوأة [٦] .

ودخل موسى في حوار مع السحرة ، وألقوا سحرهم ، فألقى عصاه كما أُمر ، فإذا هي حية تبتلع ما صنعوه من السحر ، وقهر موسى فرعون ، ثم أخذ يظهر جبروته على أولئك السحرة الذين آمنوا لموسى ، وصور القرآن هذه الأحداث بقوله : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ، قَالَ : بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا لاتَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى ، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ

---

(١) من آية [٢٣ : ٢٨] الشعراء .
(٢) النمل [٩ : ١٢] .
(٣) انظر : تفسير الخازن : ٥ / ١٧٣ .
(٤) انظر : البحر المحيط : ٧ / ٥٢ .
(٥) انظر : تفسير الرازي : ٢٢ / ٢٠ ، والكشاف : ٤ / ٥٣٤ .
(٦) انظر : الكشاف : ٢ / ٥٣٤ .

وَلايُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أتى ، فَأُلقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ، قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ، قَالَ آمَنْتُم لَهُ قَبْلَ أن آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وأرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ، وَلَتَعْلَمُنَّ أيُّنَا أشَدُّ عَذَابًا وأبْقَى [١] .

قوله : ﴿ لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ شبه تمكن المصلوب في الجذوع ، بتمكن المظروف في الظرف ، وخص النخل لطول جذوعها [٢] ، واعتبر ابن عبد السلام الآية مجازًا ، وموقع المجاز هنا في الحرف «في» ، لأن ما بعدها لايصلح لأن يكون ظرفًا لما قبلها ، فتكون مستعملة في غير ما وضعت له [٣] ، ويعتبر ابن عبد السلام الوحيد من علماء البيان – على قدر اطلاعنا – الذي ذكر هذا التوجيه ، ولم يحم أحد قبله حول هذا الحمى .

وبعد ذلك يجيء الأمر الإلهي لموسى بالخروج من مصر ، فانطلق بقومه سرًا من أرض مصر ، قاصدًا فلسطين ليلاً ، وخرج فرعون بجيشه ، ولحق بهم فرعون ، وأيقن بنوا إسرائيل بالهلاك ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الجَمْعَانِ قَالَ أصْحَابُ مُوسَى إنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قَالَ : كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ، فَأوْحَيْنَا إلَى مُوسَى أنْ اضْرِب بِعَصَاكَ البَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ ﴾ [٤].

ولما أوحي إلى موسى بضرب البحر ، ضربه فانفلق ، وصار اثني عشر فرقًا بينهما مسالك ، فكان كل فرق كالجبل المنيف الثابت في مقره ، فدخلوا في شعابها ، كل سبط في شعب [٥] . وهلك فرعون ومن معه .

ثم يصف القرآن الانحدار الأليم لقوم فرعون من النعيم إلى الهلاك ، فيقول تعالى ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ، وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْوًا [٦] إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ، كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ والأرْضُ ، وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ [٧] .

---

(١) طه [٦٥ : ٧١] .
(٢) انظر : تفسير البيضاوي : ٤١٩ ، وتفسير النسفي : ٣ / ٥٩ .
(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ٢٢ .
(٤) الشعراء [٦١ : ٦٣] .
(٥) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ٣ / ٨٦ ، وتفسير البيضاوي : ٤٨٩ .
(٦) أي ساكنًا هادئًا .   (٧) الدخان [٢٢ : ٣٠] .

قوله : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ : الآية تشبيه ، شبه حركة بحركة ، شبه ذهاب حركة البحر بذهاب حركة الخيل رهوًا ، أي : ساكنة ، فشبه البحر بها ، وذلك أنه قام فرقاه ساكنين، فقال لموسى : دع البحر ساكنًا قائمًا ماؤه ، أما قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ : ففيه قولان : الأول : أنه عبارة عن تحقيرهم ، وذلك إذا مات رجل خطير ، قالت العرب في تعظيمه : بكت عليه السماء والأرض على وجه المجاز والمبالغة ، فالمعنى : أن هؤلاء ليسوا كذلك ، لأنهم أحقر من أن يبالي بهم ، والمؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض ويبكي على المؤمن من الأرض مصلاه ، ومن السماء مصعد عمله ، ومهبط رزقه .

الثاني : أن المعنى : ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض ، والأول : أفصح ، وهو منزع معروف في كلام العرب [١] .

ويلقى موسى – عليه السلام – الأهوال من بني إسرائيل في سبيل دعوتهم إلى الله وحده، وتستمر شخصية موسى في القصة نموذجًا للمؤمن الصابر ، وهو يجابه قومه ، فبعد أن نجاهم الله من فرعون ، واجتاز البحر ، وجدوا قومًا يعبدون الأصنام ، فطالبوا موسى بأن يصنع لهم إلهًا يعبدونه ، ويرفض موسى هذا المطلب الوثني من قومه ، ثم يذهب موسى لميقات ربه ، فيغيب عن قومه أربعين ليلة ، مستخلفًا أخاه هارون يرعى القوم ، فاستضعفوه ، وسرعان ما عادوا إلى عبادة العجل .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [٢] ، معناه : وإذ واعدنا انقضاء أربعين ليلة ، كقولهم : اليوم أربعون يومًا منذ خرج فلان ، أي تمام الأربعين ، والحاصل : أنه حذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [٣] وعلى هذا التوجيه فالآية تعد من المجاز .

ثم اتخذتم العجل من بعده : الآية من الإخبار عن الجماعة بما يتعلق ببعضهم ، وفي خطابهم بما يتعلق ببعضهم معناه : ثم اتخذ العجل بعض أسلافكم ، فإن جميع الخلف والسلف لم يتخذوا العجل إلهًا ، وإنما وُجد من بعضهم ، فصار هذا كقول امرىء القيس :

فإن تقتلونا نقتلكم وإن تقصدوا لدم نقصد

معناه : فإن قتلتم بعضنا نقتلكم ، إذ لايتصور أن يقتلوهم ، بعد استيعاب جميعهم بالقتل[٤] .

---

(١) انظر : تفسير النسفي : ٢ / ١٣٠ ، والتسهيل : ٤ / ٢٦ ، والتحرير والتحبير : ١٠١ .
(٢) البقرة [٥١] .
(٣) انظر : تفسير الرازي : ٢ / ٧٤ .
(٤) انظر : القوائد المشوق : ٤٢ .

ولما رجع موسى من ميقات ربه ، ووجد قومه على هذه الحال ، غضب على فعلهم ، ولام أخاه هارون ، ثم نهض ليقاوم هذه الوثنية ، ويصور القرآن غضب موسى على قومه بقوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (١) .

السكوت : قطع الكلام ، وهو هنا استعارة ، فالمستعار السكوت ، والمستعار له الغضب ، والمستعار منه الساكت ، وهذه من ألطف الاستعارات ، لأنها استعارة معقول لمعقول لمشاركة في معقول (٢) . هذا هو كلام القوم برمته ، وسكتوا ، غير أن ابن أبي الإصبع كان له شأن آخر في الآية ، وهو أكثر دقة من السابقين له ، واللاحقين عليه ، فقال : المعنى : ولما زال عن موسى الغضب ؛ لأن حقيقة السكوت : زوال الكلام ، وحقيقة زوال الغضب عدم ما يدل عليه من الكلام ، أو غيره في تلك الحال ، وغضب موسى إنما عرف هناك من قوله : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ (٣) ، فإن هذا الكلام كان مقدمة إلقاء الألواح ، ولما زال الكلام الدال على الغضب ، حسنت استعارة السكوت للغضب ، ولايلزم من سكوت الغضب حصول الرمي، فإن موسى لم يرض بمعصيتهم ، ولا ببقائهم على المعصية ، حتى تحصل التوبة ، ولهذا أخبر سبحانه عنه بسكوت الغضب دون حصول الرضى (٤) . وتابع ابن أبي الإصبع في هذا الفهم الدقيق والبليغ السمين الحلبي (٥) .

ولما رأي بنو إسرائيل أنهم قد ظلموا أنفسهم ، وقارفوا إثمًا كبيراً بعبادة العجل طلبوا التوبة من الله ، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه للذهاب معه إلى جبل الطور ، ليقدموا الطاعة لله والندم على ما اقترفوا . قال تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا (٦) ، والأصل : واختار موسى من قومه سبعين ، وقال البيانيون : وإنما يحسن الحذف إذا كان فيه زيادة مبالغة ، والمحذوفات في القرآن على هذا النمط ، من ذلك قولك : اختر من الرجال زيداً ، ثم يتسع فيقال : اخترت الرجال زيداً ، وقولك : استغفر الله من ذنبي ، وأستغفر الله ذنبي ، وقول الشاعر : استغفر الله ذنبًا لست احصيه (٧) .

---

(١) الأعراف[١٥٤].

(٢) انظر : البرهان : ٣ / ٤٤٢ ، والفوائد المشوق : ٧٩ ، والتبيان للطيبي : ٢٤٦ ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٦٨ ، ومفتاح العلوم : ٢٩٠ .

(٣) الأعراف[١٥٠].

(٤) انظر : البرهان : ٢ / ١٥٥ ، وتفسير الرازي : ١٥ / ١٧ .

(٥) انظر : الدر المصون :

ولم تتوقف قسوة بني إسرائيل لموسى فقط ، ولكنها برزت أكثر مع نبي الله عيسى عليه السلام ، وهذا ما سنعرفه من قصته ، أما الدرس الذي يمكن أن نخرج به من قصة موسى فهو : أهمية التحلي بالقول اللين في الدعوة إلى الله ، وتنزيه الله وتقديره حق قدره ، وصمود العقيدة وانتصار الحق ، وعاقبة الطغيان والكفر ونجاة المؤمنين .

٧ – قصة عيسى عليه السلام :

تعتبر قصة عيسى من القصص التي تعانقت فيها الإنسانية مع المعجزة السماوية من البدء والتكوين حتى الرفع إلى السماء ، وربما كان هذا سببًا في تأليه عيسى ، واقتران شخصيته بكثير من الخرافات والتزيد الذي قام به النصارى وهم يرفعونه إلى مرتبة الإله ، فكان على القرآن أن يضع قصة عيسى على حقيقتها ، حتى يرفع كل الشبهات ، وحتى يضعه في حقيقته . فمن هو عيسى – إذن – في نظر البيان القرآن ؟ (١) .

يؤكد القرآن على حقيقة عيسى الإنسانية ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٢) إن مثل عيسى : أي صفة خلق عيسى عند الله من غير أب ، كصفة خلق آدم من غير أبوين في كونه خلقه من تراب (٣) ، فمن أقر بأن الله خلق آدم من التراب ، وهو أبلغ في القدرة ، فلم لايقر بأن الله خلق عيسى بن مريم من غير أب ، بل الشأن في خلق آدم أعجب وأغرب (٤) . شبه القرآن حاله بما هو أغرب ، إفحامًا للخصم ، وقطعًا لموارد الشُّبَه ؛ لأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب ، فشبّه الغريب بالأغرب ، ليكون أحسم للمشتبه إذا نظر فيما هو أغرب بما استغربه (٥) .

الواضح من كلام البيانيين أنهم أقروا إقرارًا جماعيًا ، أن المثل في الآية بمعنى الصفة أو الشأن أو الحال ، وفي هذا إقرارٌ الكافَ على معناها التشبيهي ، غير أن المثل هنا من ضرب الأمثال ، وقال : العرب تضرب الأمثال لبيان ما خفي معناه ودق إيضاحه (٦) .

وفي الآية دليل على جواز القياس ؛ وهو رد فرع إلى أصل ، لشبه ما ، لأن عيسى

---

(١) لقد انقسم النصارى أقسامًا ثلاثة في تأليه المسيح ، فبعضهم قال : إن المسيح بعينه هو الله ، وبعضهم ذهب إلى آلهة ثلاثة : الله ومريم والمسيح ، وبعضهم قال : أنه ولد الله من مريم . وأكد القرآن على بشرية عيسى وكفر النصارى ، فقال : «لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم» . وقوله : «لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة» ، وقال : «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» .

(٢) آل عمران [٥٩ ، ٦٠] .

(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ١٢٠ .

(٤) انظر : تفسير الخازن : ١ / ٥٩ .

(٥) انظر : تفسير البيضاوي : ٧٥ ، وتفسير النسفي : ١ / ١٦ .

(٦) انظر : البحر المحيط : ٢١٧/٢ .

رَدٌ إلى آدم لِشَبه بينهما ، وفيها كذلك – إبطال لإدعاء الألوهية ، في عيسى ، وإبراز قدرة الله لخلقه حين خَلق آدم ، لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ [١] ، ومعنى هذا أن ولادة عيسى كانت ولادة عجيبة بالنسبة لمألوف البشر ، ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر ؟

وهكذا يَجلي القرآن في بساطة هذه الحقيقة – حقيقة عيسى ، وحقيقة آدم وحقيقة الخلق كله ، وتدخل إلى النفس في يسر ووضوح ، حتى ليعجب القارىء للنص القرآني كيف ثار هذا الجدل حول خلق عيسى ، وقد جاء وفق سنة الخلق والنشأة ، وهكذا يقوم البيان القرآني بحل أعقد القضايا التي تبدو بعد ذلك من أيسر اليسر .

ويحسم القرآن هذه القضية في موضع آخر ، فيبين القرآن أن خلق عيسى كان بكلمة من الله ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [٢] .

« بكلمة منه » : المراد بالكلمة هنا عيسى ، سُمي كلمة لوجوده بها ، وهي قوله : «كن فيكون» ، فهو من باب إطلاق السبب على المسبب ، وهو أحد فروع المجاز [٣] . واستدل الرازي على فساد قول النصارى بالآية ، لأن كل من كان له أم ، فقد حدث بعد أن لم يكن ، وكل من كان كذلك كان مخلوقًا لا إلهًا [٤] .

وإذا تتبعنا آيات القرآن ، وجدناه ينص على أن عيسى بشر ، وأنه رسول من الله لهداية خلقه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَاتَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَاتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [٥] : تأمل كيف قرن الله لفظ المسيح بكلمة «ابن مريم» ، ليلفت الأنظار بأنه ابن مريم ، لا ابن الله ، وكون عيسى عليه السلام كلمة من الله إذن فهو مخلوق وليس بإله ، لأن الكلمة حادثة ومخلوقة، وليست قديمة [٦] .

ويؤكد البيان القرآني على بشرية المسيح ، يقول تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير : ١ / ١٦٧ . (٢) آل عمران [٤٥] .

(٣) انظر : الدر المصون : ٣ / ١٧٢ . (٤) انظر : تفسير الرازي : ١٢ / ٦٠ .

(٥) المائدة [٧٧] .

(٦) ذلك لأن الله كلم موسى تكليمًا مباشرًا فتأكيده بالمصدر يفيد الحقيقة وأنه أسمعه كلامه وكلمه بنفسه لا كلامًا قام بغيره . انظر المزهر للسيوطي ١٦٢/١
وجعل عيسى كلمة منه ، والقرآن كلمة ،'بلغت إلى رسول ليبلغها للناس وهي ثابتة مبلغة ، والكلمة لابد لها من متكلم إذن فالكلمة مخلوقة والمتكلم قديم ، وبما أن عيسى هو الكلمة إذن فهو مخلوق وليس إله .

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[١] . فالآية تنفي الألوهية عن عيسى وأمه ، وما هي إلا كبعض النساء المصدقات للأنبياء ، المؤمنات بهم ، ووقع اسم الصديقة عليها لقوله : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[٢] .

ثم أبعدهما القرآن عما نسب إليهما بقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ ، لأن من أكل الطعام ، فإنه لابد وأن يُحدث[٣] . وأنكر الرازي هذا القول ، وذكر في الآية وجوهـًا كثيرة زبدتها : أن الآية من أقوى الدلائل على أنه ليس بإله ، ويعزّز ما ذهب إليه الرازي قول الجاحظ بأن الكلام في الآية على ظاهره ، ويكفي في الدلالة على عدم الإلهية ، نفس أكل الطعام ؛ لأن الإله لايحتاج إلى شيء يأكله ، لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام ، وما يتبعه من الهضم والنقص ، لم يكن إلا جسمًا مركبًا من لحم وعظم وعروق ، وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة ، وغير ذلك على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام[٤] .

ومن الواضح أن كائنًا من هذا النمط لايمكن أن يكون إلا بشرًا خاضعًا لكل قوانين البشرية التي لاتؤدي إلى نقص في مرتبته كرسول[٥] . وفي الآية – كذلك – تشنيع وبشاعة على من اتخذهما – عيسى وأمه – آلهة ، لأن الآية كناية عن الغائط والحدث[٦] .

فالآية تؤكد على أن عيسى مخلوق موقوت ، وليس خالدًا ، لأنه يتزود بالطعام ليعيش ، والله تعالى يترفع عن ذلك . ونفهم من هذه الآية أنه كان يسود المجتمع العربي قبل الرسالة مفاهيم دينية تؤله الرسل،والقرآن يريد أن يلغي ذلك ويثبت وحدانية الله ، ويبطل فكرة التثليث عند النصارى .

ثم يأتي الامتحان الكبير لعيسى الذي ألّهَهُ النصارى ، وهل هناك محنة أشق على نفس نبي من تأليهه ، وهو الداعي إلى وحدانية الله ، إنها لمحنة نفسية أشد من استمرارهم على عبادة الأوثان وتأليهها ؛ لأن الداعي إلى الإيمان هنا يصبح هو نفسه سبيل كفرهم ، ونستطيع أن نتصور هذا الامتحان النفسي حينما نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ، قَالَ ، سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[٧] .

---

(١) المائدة[٧٥] . (٢) التحريم[١٢] .
(٣) انظر : بديع القرآن : ٣٥ ، والتحرير والتحبير : ١٤٣ ، والطراز : ١ / ٨١ .
(٤) انظر : تفسيرالنسفي : ١ /٢٩٦ ، وتفسير الرازي : ١٢ / ٦١ ، وسر الفصاحة / ١٩٦ ، والبرهان.
(٥) انظر : التفكير الفلسفي في الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود . ط . دار المعارف . مصر .
(٦) انظر : مختصر تفسير الماوردي : ١ / ٢٧ ، والبرهان : ٢ / ٣٠٥ .
(٧) المائدة[١١٦] .

فالله – تعالى – يسأل المسيح ، هل هو الذي دعاهم لهذا الإشراك ، والله يعلم أن عيسى بَرَاءٌ من ذلك، ولكنه سؤال يُراد منه تجريدهم من كل حجة يتخذونها في إشراكهم بالله الواحد.

قال جمهور البيانيين إن هذا القول يكون من الله يوم القيامة ، على رؤوس الخلائق ، ليرى الكفار تبرئة عيسى مما نسبوه إليه ، ويعلمون أنهم كانوا على باطل ، وقد يراد بذلك توبيخهم ، وتبكيتهم ، وقال بعضهم خاطبه به حين رفعه إلى السماء ، وعلى هذا يكون « وإذ قال » ماضيا في معناه كما هو في لفظه [١] .

﴿ وَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ : الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٢] ، ذكر البيانيون «إنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم ، لأن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم ، وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد [٣] .

فالإيمان الحقيقي هو الذي يهيب بالمؤمن لنصرة دين الله ، وإعلاء شأنه والتبشير به بين الناس ، والاستماتة في الدفاع عنه ؛ لأن نصرة دين الله نصرة للعدالة والإصلاح ، وإحقاق الحق ، والقضاء على الطغيان والفساد في الأرض .

ولهذا اعتبر القرآن الحواريين نموذجاً يحتذيه المؤمنون في كل زمان ومكان فقال تعالى مخاطبًا أتباع خاتم النبيين ﷺ ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ [٤] ، وقول الحواريين « نحن أنصار الله » أي أنصار دين الله ، أو نحن الذين ينصرون الله ، والحواريون أول من آمن بعيسى ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، وحواريو الرجل : صفوته وخاصته [٥] .

وقد كانت معجزة عيسى في نبوته عجيبة كمعجزة خلقه وتكوينه ، إنه كان يصنع من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، كهيئة الطير ، قال تعالى : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [٦] .

---

(١) انظر : التسهيل في علوم التنزيل : ١٩٤/١، وتفسير النسفي : ٢١٠/١، وتفسير البيضاوي : ١٦٧.

(٢) آل عمران [٥٢] .

(٣) انظر : تفسير النسفي : ١ / ١٥٩ ، وتفسير البيضاوي : ٧٥ .

(٤) الصف [١٤] .

(٥) انظر : النسفي : ٤ / ٢٥٤ .

(٦) آل عمران [٤٩ ، ٥٠] .

وقد كانت معجزة عيسى – عليه السلام – من هذا النوع لتناسبها لأهل زمانه ، ولكن اليهود الذين بعث فيهم عيسى كانوا قساة القلوب ، فناوأوه ، وحاولوا قتله ، ونجاه الله منهم ، ورفعه إلى السماء ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[١] .

وبعد .... فقصص الأنبياء في القرآن تمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد المتواصل الطويل ، ويعرض قصة الدعوة إلى الله ، واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل ، كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر ، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذي خصهم بهذا الفضل العظيم .

وإذا كان القرآن كتاب دعوة ، فإنه قد استخدم القصص كوسيلة لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها في نفوس أتباعها ، وهذا يؤكد أن القرآن ليس كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ «فالقصص القرآني يجيء في السياق بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق ، وتحدد الجمال الفني الصادق الذي لايعتمد على الخَلْقَ والتزويق ، ولكن يعتمد على إبداع العرض ، وقوة الحق ، وجمال الأداء ، وقد لاحظنا أن التعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني فيما يعرض من صور بيانيه ، وأنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية ، لأن الفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس»[٢] .

ويلاحظ – كذلك – أن القصة في القرآن سيقت لأغراض معينة برغم استخدام عنصر البيان فيها من هذه الأغراض التي سيقت من أجلها ذكر الحقائق الإسلامية في القصص كإثبات الوحي ، ووحدانية الله ، وبيان أن الدين كله من عند الله من عهد آدم إلى محمد ﷺ ، وبيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة ، وتشابه استقبال القوم لهم واحد ، وبيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية ، ويهلك المكذبين الجبابرة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وفي ذلك تثبيت لمحمد ﷺ وتأثير في نفوس من يدعوهم إلى الله ، «وفي القصص كذلك – إيناس صاحب الرسالة المحمدية بأخبار إخوانه من المصطفَيْنَ الأخيار ، وإثبات قوله»[٣] .

والواقع أن المتأمل في قصص الأنبياء في البيان القرآني يخيل إليه أن الأنبياء نبي واحد ، وأنها إنسانية واحدة على تطاول الأزمان والآماد ، ولهذا جاءت قصة محمد ﷺ في البيان القرآني جامعة لقصص الأولين والآخرين .

---

(١) ال عمران[٥٥] .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : ١ / ٥٥ ، والتصوير الفني : ١٤٤ ، ١٧١ .

(٣) انظر : المعجزة الكبرى : ص ١٨٧ .

فهرس

٢٨ ٢٢٥٧٢٢٩